وسائل التوكيد في القصص النبوي عن بني إسرائيل

"دراسة في مقامات الكلام وأسراره"

دكتور

السيد أحمد أحمد موسى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية

الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببور سعيد

وسائل التوكيد في القصص النبوي عن بني إسرائيل

دراسة في مقامات الكلام وأسراره

دكتور

السيد موسى

قسم اللغويات، كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بورسعيد، جامعة الأزهر

elsayd-zo @yahoo.com

الملخص:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد :-

فهذا ملخص بحث بعنوان: "**وسائل التوكيد في القصص النبوي عن بني إسرائيل . دراسة في مقامات الكلام وأسراره**"، وقد وقفت فيه مع كثير من صور التقرير والتوكيد، وأنماطه التي حفل بها القصص النبوي عن بني إسرائيل، والتي اتخذ منها وسائل لترسيخ مضامينه، وتحقيق غاياته وأهدافه .

وقد انتهجت في دراسته المنهج الوصفي التحليلي؛ للكشف عن أسرار هذه الوسائل ونكاتها، واستخلاص بعض شياتها وخصائصها في هذا النوع من القصص، والتعرف على مدى موافقتها للمقام، ومطابقتها لمقتضى الحال، ووفائها بالمعنى والغرض .

وقد جاء هذا الموضوع في مقدمة، وتمهيد، وخمسة محاور، وخاتمة، وفهرس.

المقدمة فيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والخطة، والمنهج، والتمهيد **جاء في مطلبين: الأول:** مفهوم التوكيد وأهميته، والثاني في أسبابه ومناشئه.

أما محاور البحث فجاءت على النحو الآتي:

المحور الأول: التوكيد بالوسائل الحرفية، والمحور الثاني: التوكيد بصيغ وألفاظ ذات دلالة وإيحاء تقريري، والمحور الثالث: التوكيد بأساليب التناسب،

والمحور الرابع: التوكيد بأساليب الإيضاح بعد الإبهام، والمحور الخامس: التوكيد بأساليب المفاجأة، والخاتمة: وذكرت فيها أهم النتائج، ثم فهرس المصادر، وفهرس للموضوعات .

وقد أردت من وراء هذا البحث أن أظهر جانبًا من جوانب التميز والعظمة والكمال في جانب من البيان النبوي الذي هو الصفوة من كلام البشر، وذلك من خلال دراسة وسائل التوكيد في هذا النوع من القصص، والتعرف على أسبابه ومناشئه، واستكناه أسراره ونكاته، واستخلاص بعض سماته وخصائصه .

وقد أسفرت هذه الدارسة عن بعض النتائج التي منها: كثرة وسائل التوكيد والتقرير وتعدد صورها وأنماطها في القصص النبوي عن بني إسرائيل، ومنها: تناغم الوسيلة التقريرية وارتباطها الشديد بسياق الكلام، وقرائن الأحوال، ومنها: التوكيد بصيغة الماضي وهو أكثر وسائل التوكيد دورانًا في هذا القصص .

والله أسأل أن يكون من وراء القصد، إنه ولي ذلك والقادر عليه

الكلمات المفتاحية: القصص – التوكيد – المقام – الأسرار – التقرير.

means of emphasis in the prophet stories about the children of Israel.

A study in the positions of speech and its secrets,

Elsayd Mousa

Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for girls Port said, Al-Azhar University

Email: elsayd-zo @yahoo.com

Abstract:

Praise be to Allah, Lord of the Worlds, and peace and blessings be upon our Prophet Muhammad the Seal of Prophets and Messengers, and upon his family and companions: -

A research summary entitled: "means of emphasis in the prophet stories about the children of Israel. A study in the positions of speech and its secrets," which makes me stops to think more about the images of the conformation and the emphasis, and the styles in which the stories of the Prophet about the children of Israel made a good use of it to establish its Contents and to achieve its goals and ends.

In this study I have taken these methodological, qualitative, Descriptive methods and styles to reveal its secrets and creativity and to extract some of its characteristics and qualities in this type of stories, and to identify the suitability of the position of speech according to the situation and fulfillment in the sense, meaning and purposeby .

This topic includes the introduction, preface, five sections, the conclusion, and two indexes.

-The introduction: I talked about the importance of the topic, the reasons for this choice, the plan, the approach, and preface: the concept of affirmation, emphasis and its link to the stories of the Prophet.

-The sections of research are:- the first section: emphasis by using literal formulas, the second section: emphasis in formulas and words meaningful and suggestive affirmation, the third section: emphasis by using methods of suitability, the forth section: emphasis by using methods of clarification after confusion, the fifth section: emphasis by using methods of surprising, conclusion: I mentioned the most important outcomes, and index for resources, references, and other for topics.

I want from this research to clearly demonstrate absolutely fabulous of Brilliantness, distinction and Perfection sides of prophet's eloquence which is the elite words of humans and the head of it; through studying the images of the confirmation and the emphasis, and the styles in which the stories of the Prophet about the children of Israel and understanding their reasons, principles and extract some of its characteristics and qualities in this type of stories.

This research has brought out some outcomes: the variety of this images of the conformation and the emphasis, and the style of the stories of the Prophet about the children of Israel, harmony of the coherence, cohesion, means of affirmation and its strong relevance to the context of speech which related to the conditions, and assurance by using statements in past tense which is the most brilliant means of affirmation and the great style which mentioned in this stories .

I ask Allah's pleasant for this research, that's all my intention … He is the sustainer and able to do that.

Key words:

The stories – Emphasis - The position - The secrets - The conformation .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، وخاتم النبيين سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد:

فالقصص النبوي قبس من مشكاة قصص القرآن، ونبع من فيضه، وزهرة يافعة من بستانه الحافل بأفانين الزهور، وأطايب الثمر، ولا غرو في ذلك فهو جزء من الوحي، وضرب من ضروبه التي يحوطها قول الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣,٤] ويؤكدها قول النبي ﷺ:" ألا إنما أوتيت القرآن ومثله معه"، فكان له من السمات والخصائص ما جعله يتبوأ قمة البيان البشري، وذروة سنام البلاغة الإنسانية.

وقصص النبي ﷺ عن بني إسرائيل ضرب متميز من القصص النبوي، له من السمات والخصائص ما ينفرد به عن ضروب القصص الأخرى، ويتميز بها منه، فهو ذو طبيعة خاصة، وسمت مختلف؛ إذ يحكي أخبارا غيبية، ويقص أحداثا ومشاهد واقعية، حصلت في الزمان الغابر، ووقعت في الماضي السحيق، ولا مجال فيها للتزيد أو التخيل الذي يضيف إلى المشاهد مشاهد أخرى، أو يحيك أحداثا ومواقف جديدة، تنبت عن الواقع، ولا تربطها به صلة أصلًا، أو غير ذلك مما يتخذ سبيلا إلى صناعة قصة، أو تأليف رواية مطولة، تتحقق فيها الحبكة الفنية، والعقدة الدرامية، أو غير ذلك من المؤثرات الأخرى التي يتطلبها بناء القصص الفني الحديث، فالقصص النبوي كله أو جله وحي إلهي، وليس حديثا يفترى، أو نسجا من الخيال والأوهام، أو الحكايات وأساطير الأولين.

وقد وقعت أحداث هذا القصص في أمة بني إسرائيل، وهي أمة ذات طبيعة خاصة، وشيات مختلفة؛ فمع ما حباها الله- تعالى- به من الفضائل

والمزايا التي لم تتهيأ لأمة أخرى غيرها في هذا الزمان إلا أنها كانت كثيرة المراء والجدل، ظاهرة التمرد والعناد، دائمة الالتفاف على أوامر الله ونواهيه، والاختلاف على الأنبياء والمرسلين.

كما تعلق بأحداث هذا القصص ومشاهده كثير من الوقائع العجيبة، والأمور الغريبة التي تثير الدهشة وتدعو إلى الاستغراب، وتملأ النفس تعجبا وذهولا؛ لخروجها عن السنن المعهود، وإنبائها على كثير من خوارق العادات التي لم تقع لأمة قبل هذه الأمة ولا بعدها، فاقتضى الحديث – من جانب– مع هذه الأمة وعنها خطابا ذي طبيعة خاصة، وسمت معين يتواءم في نسجه وبنائه مع هذه الجبلة المتمردة التي تطبعت بها هذه الأمة، وجنحت إليها، ويتطابق مع حالها في هذه الصفات والخلال؛ إذ البلاغة تكمن في مراعاة أمثال هذه الاعتبارات، ومطابقة أمثال هذه الأحوال.

ومن جانب آخر: فإن القصص النبوي في عمومه لما كان يهدف إلى تحقيق أهداف تربوية، ومقاصد دينية ودعوية كبيرة، تنسجم في سمتها وطبيعتها مع سمت هذه الرسالة الخاتمة وطبيعتها فإنه– كان ولا زال– يحمل في أحداثه ومواقفه، وكلماته وأساليبه المواعظ والعبر التي تغذو أرواح المؤمنين، وتسقي عطش قلوبهم وعقولهم، وتنير صدورهم، وتهدي للتي هي أقوم، وتنأى بهم عن الشرور والمفاسد، والأخلاق الذميمة، وتلك مقامات وأحوال تتطلب أنماطا خاصة من التراكيب تتواكب في سمتها وخصائص بنايتها مع طبيعة هذه الغايات والأهداف، وتعمل– في الوقت ذاته– على ترسيخ القيم والمبادئ، وتعميقها في النفوس، وتمكينها في القلوب، وغرسها في مستودع الضمائر، وتزيل عنها الشك والريبة، وتنأى بأحداثها عن مواطن الشبهات، وإن كانت مما لا تنكر أو تجحد؛ إذ المخاطب بها ابتداءً هم أصحاب

النبي ﷺ ومن ثم كان من البدهي أن ترى توفر عناصر التقرير والتوكيد، ووسائل التمكين والتثبيت مبثوثة في ثنايا هذا القصص، ظاهرة في سمت كلماته، وبناء أساليبه وأنماطه، وتصاعد مواقفه وأحداثه، وعلى نحو لافت ومثير، وهذا ما حدا بالبحث إلى إيثار هذا الموضوع الذي جاء بعنوان" وسائل التوكيد في القصص النبوي عن بني إسرائيل دراسة في مقامات الكلام وأسراره" لتتبع وسائل التقرير والتوكيد، ودراستها في هذا النوع من القصص، والعكوف على صورها وأنماطها في سياقاتها ومقاماتها؛ للوقوف على أسبابها ومناشئها، والكشف عن مكنون أسرارها ونكاتها، واستخلاص بعض شياتها وخصائصها، والتعرف على كيفية موافقتها للمقام، ومطابقتها لمقتضى الحال، ومدى وفائها بالمعنى والغرض، وذلك في محاولة جادة من البحث لإضاءة بعض جوانب التميز والعظمة والكمال في جانب من البيان النبوي الذي هو الصفوة من كلام البشر، وذروة سنامه والرأس منه.

وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع بالإضافة إلى ما سبق الأسباب الآتية:

أولًا: بكارة الموضوع، فلا أعلم دراسة بلاغية سابقة توفرت على دراسة وسائل التقرير والتوكيد في القصص النبوي عن بني إسرائيل.

ثانيًا: كثرة وسائل التوكيد في القصص النبوي عن بني إسرائيل كثرة لافتة، وتعدد صورها وأنماطها، وهذا في البيان النبوي لا يرد عرضا، ولا يجئ كيفما اتفق، وإنما له غاياته وأهدافه، وله دواعيه ومقتضياته.

ثالثاً: الكشف ما أمكن عن الأسرار والنكات البلاغية المستكنة وراء إيثار التعبير بوسيلة توكيدية دون أخرى.

رابعاً: محاولة التوفيق والمواءمة بين الوسيلة التوكيدية المعبر بها من جانب، وبين المقام الذي جاءت فيه، والحال التي سيقت لها من جانب آخر،

وتعليل ذلك بلاغيًا، فهنا يكمن التميز، وتظهر العبقرية، وتتفاوت مراتب البيان، حتى ترقى في النهاية إلى رتبة الكمال.

خامساً: محاولة رصد بعض الخصائص الأسلوبية والشيات التعبيرية لوسائل التقرير والتوكيد في القصص النبوي عن بني إسرائيل، من خلال تتبع مواقعها فيه.

وقد جاءت دراستي لهذا الموضوع في مقدمة، وتمهيد، وخمسة محاور، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات.

١- **المقدمة**: تحدثت فيها عن أهمية الموضوع، وذكرت فيها أسباب اختياره، وأودعتها الخطة التي يقوم عليها بنيانه، والمنهج المتبع في الدراسة.

٢- **التمهيد**: ويشتمل على مطلبين: الأول: مفهوم التوكيد وأهميته.

الثاني: أسباب التوكيد ومناشئه.

٣- **المحور الأول**: التوكيد بالوسائل الحرفية ويشتمل على سبع صور.

٤- **المحور الثاني**: التوكيد بألفاظ وصيغ ذات دلالة وإيحاء تقريري.

ويشتمل على مبحثين: الأول: التوكيد بالصيغ الفعلية.

الثاني: التوكيد بالصيغ الاسمية.

٥- **المحور الثالث**: التوكيد بأساليب التناسب: ويشتمل على إحدى عشرة صورة.

٦- **المحور الرابع**: التوكيد بأساليب الإيضاح بعد الإبهام: ويشتمل على ست صور.

٧- **المحور الخامس**: التوكيد بأساليب المفاجأة: ويشتمل على خمس صور.

٨- **الخاتمة**: وفيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث، والتوصيات التي

يوصى بها.

٩- فهرس المصادر والمراجع.

١٠- فهرس الموضوعات.

وقد اقتضت طبيعة هذه الخطة في محاورها وصورها المختلفة أن يكون منهج الدراسة هو المنهج الوصفي التحليلي الذي يصف الظاهرة المدروسة من كل جوانبها، ويكشف عن طبيعتها؛ وذلك- في كثير من مناحي هذا البحث- من خلال استقراء جميع صورها وأنماطها التعبيرية في هذا القصص، ثم دراسة مواضعها وتحليلها في سياقاتها ومقاماتها تحليلا بلاغيا؛ للكشف عن أسرارها وأغوارها، واستخراج المستكن من نكاتها ودقائقها، ورصد الملحوظ من شياتها وخصائصها التي تفتق عنها التحليل في محاور البحث وصوره المختلفة.

والله أسأل أن يكون من وراء القصد، وأن يعصمني من الزلل، وأن يلهمني السداد والتوفيق، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

دكتور
السيد أحمد أحمد موسى
أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية
الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببور سعيد

التمهيد

المطلب الأول

مفهوم التوكيد وأهميته

مصطلح التوكيد تعددت أسماؤه في كتب العربية، فابن جني يسميه الاحتياط[1]، والمبرد يطلق عليه التحقيق[2]، لكن التوكيد هو أشهر ألفاظه في كتب البلاغة واللغة.

ومصطلح التوكيد يدور معناه في المعاجم حول معنى التقوية والتشديد والتوثيق، وحول معنى الإصابة والقصد، قال صاحب اللسان: "وكد العقد والعهد أوثقه، والهمز فيه لغة، يقال: أوكدته، وأكدته، وآكدته إيكادًا، وبالواو أفصح، أي: شددته، وتوكد الأمر وتأكد، بمعنى، ويقال: وكدت اليمين، والهمز في العقد أجود، وتقول: إذا عقدت فأكد، وإذا حلفت فوكد، وقال أبو عباس: التوكيد دخل في الكلام لإخراج الشك، وفي الأعداد لإحاطة الأجزاء، ووكد الرحل والسرج توكيدًا، شده، والوكائد: السيور التي يشد بها، واحدها وكاد وإكاد، قال ابن دريد: الوكائد السيور التي يشد بها القربوس إلى دفتي السرج، الواحد وكاد وإكاد؛ وفي شعر حميد بن ثور:

تَرَى العُلْبِفِيَّ عَلَيْهِ مُوكَدَا

أي: موثقًا شديد الأسر.

---

(١) ينظر الخصائص لابن جني، ٣/ ١٠١-١٠٤، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٦م.

(٢) ينظر كتاب المقتضب لمحمد بن يزيد النحوي الملقب بالمبرد، ٢/ ٣٥٣، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٣م.

ووكد بالمكان يكد وكودًا، إذا أقام به، ويقال: ظل متوكدًا بأمر كذا، ومتوكزًا، ومتحركًا، أي: قائمًا مستعدًا، ويقال: وكد يكد وكدًا، أي: أصاب، ووكد وكده، قصد قصده، وفعل مثل فعله، قال الطرماح: ونبئت أن القين زنى عجوزة فقيرة أم السوء أن لم يكد وكدي.

معناه: أن لم يعمل عملي، ولم يقصد قصدي، ولم يغن غنائي"(١).

وجاء في كتاب التعريفات: "التأكيد، ويقال: التوكيد، معناه في اللغة التقوية، يقال: أكدت الشيء، وتقول: وكدته أيضا، إذا قويته، وقد جاءت كلمة (توكيد) في القرآن فقال جل في علاه: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [النحل: ٩١]"(٢)، وقد ساق صاحب المصباح المنير نحوًا من هذا الكلام، قال: أكدته فتأكد، ويقال على البدل: وكدته، ومعناه التقوية"(٣).

أما التوكيد في الاصطلاح فقد تعددت تعريفات العلماء له، إلا أن هذه التعريفات تكاد تتلاقى كلها حول مضمون واحد، فالتوكيد عند عبد القاهر: أن تحقق باللفظ معنى قد فهم من آخر قد سبق منك، أفلا ترى أنه إنما كان كلهم في قولك: "جاءني القوم كلهم" تأكيدًا من حيث كان الذي فهم منه، وهو الشمول قد فهم بدءًا من ظاهر لفظ "القوم"، ولو لم يكن فهم الشمول من لفظ القوم، ولا كان هو من موجبه لم يكن "كل" تأكيدًا، ولكان الشمول مستفادًا من "كل" ابتداءً"(٤).

---

(١) لسان العرب لابن منظور، وكد ٦/ ٤٩٠٥-٤٩٠٦، دار المعارف، مصر ١٩٧٩م.

(٢) التعريفات للشريف الجرجاني صـ٧١، تحقيق/ إبراهيم الإبياري – الطبعة الثالثة ١٩٩٦م – دار الكتاب العربي، بيروت.

(٣) المصباح المنير للفيومي صـ ٧١، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٩٠م.

(٤) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، صـ ٢٣٠، تحقيق/ محمود محمد شاكر، الطبعة الثالثة ١٩٩٢م – مطبعة المدني – القاهرة – جدة.

وهو عند الكفوي: "أن يكون اللفظ لتقرير المعنى الحاصل قبله وتقويته"[١].

وذكر التهانوي أن التوكيد يطلق على معنيين: التقرير، أي: جعل المتحدث عنه مقررًا في ذهن المخاطب، واللفظ الدال على التقرير، أي: اللفظ المؤكد الذي يقرر به، وهو ما قصدوه بقولهم: التأكيد لفظ يفيد تقوية ما يفيد لفظ آخر، وهو أعم من أن يكون له[٢].

والذي يبدو لي أن أقرب التعريفات وأدقها هو ما ذكره ابن يعيش، في شرحه على المفصل، وكذلك الرضي في شرحه على الكافية، فقد ذكرا أن التوكيد: هو تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره[٣].

وإنما كان ذلك كذلك؛ لأن التوكيد أوسع من أن يختص بالألفاظ المفردة، بل يتجاوز كثيرًا إلى الجمل والتراكيب، وإلى المعاني والأغراض، فالعرب تؤكد كل شيء تراه في حاجة إلى توكيد؛ فهي قد تؤكد الحكم كله، أو تؤكد جزءًا منه، وقد تؤكد لفظة بعينها، وقد تؤكد مضمون الحكم، أو مضمون اللفظة، أو غير ذلك[٤].

---

(١) الكليات. معجم في المصطلحات والفروق اللغوية للكفوي صـ ٢٦٧، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، الطبعة الثانية ١٩٩٨م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٢) كشف اصطلاحات الفنون للتهانوي ١/ ٨٣، تحقيق: أحمد حسن الشيخ، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) ينظر شرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٤٠، مكتبة المتنبي، القاهرة، بدون تاريخ، وشرح الكافية في النحو للرضي ١/ ٢٢٨ وما بعدها، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥م.

(٤) يُنظر معاني النحو للدكتور: فاضل صالح السامرائي ٤/ ١٣١، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، الأردن.

وقد حظى التوكيد باهتمام البلاغيين قديمًا وحديثًا، فكان محط عنايتهم، وموضع نظرهم وتأملهم؛ لارتباطه الوثيق بمقتضى الحال الذي يمثل لب البلاغة وجوهرها، سواء أكان مقتضى حال السامع، وهو الأكثر اعتبارًا في البلاغة، أم مقتضى حال المتكلم، أم مقتضى حال الكلام نفسه؛ فقد لا يراعى في توكيد الكلام اعتبار علاقة المتكلم بالسامع أصلًا، وذلك على النحو الذي سيأتي تفصيله في أسباب التوكيد ومناشئه.

لكن الذي يثير التنبه أن البلاغيين مع عنايتهم بدرس التوكيد، واهتمامهم به لم يفردوا لبحثه، وتفصيل القول في بيان جدواه وأهميته خاصة بابًا مستقلًا، بل جاءت دراستهم له في ضمن الأساليب التي يمثل التوكيد سمة من سماتها، وعنصرًا مكونًا في بنائها، فذكروا أن جدوى التوكيد وفائدته تكمن في تقرير المعنى وتمكينه في النفس، وتثبيته في الوجدان، ودفع ما قد يتبادر إلى الوهم نحوه من إرادة المجاز، أو يحوم حوله من شبهة، أو ما قد يتلبس به من غفلة أو سهو أو نسيان، أو غير ذلك مما يدور في المقام الذي يرد فيه النص، ولذلك يقول الزمخشري: وجدوى التأكيد أنك إذا كررت فقد قررت المؤكد، وما علق به في نفس السامع، ومكنته في قلبه، وأمطت شبهة ربما خالجته، أو توهمت غفلة، أو ذهابًا عما أنت بصدده فأزلته، وكذلك إذا جئت بالنفس والعين، فإن لظان أن يظن حين قلت: "فعل زيد" أن إسناد الفعل إليه تجوز أو سهو أو نسيان، و"كل وأجمعون" يفيدان الشمول والإحاطة "[1] وقد أشار صاحب اللسان إلى شيء من هذا وهو بمعرض حديثه عن مادة "وكد"، حين

(١) المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري صـ١١١، ١١٢ تحقيق/ د. علي بو ملحم، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، مكتبة الهلال، بيروت.

قال: والتوكيد دخل في الكلام لإخراج الشك، وفي الأعداد لإحاطة الأجزاء[1].

وقد أحسن السيوطي[2] حين فصل الكلام في جدوى التوكيد وبيان أهميته، وربط كل ذلك بما يناسبه من السياق والمقام، فذكر أن الغرض من التوكيد لا يعدو أن يكون واحدًا من الأمور الآتية:

١ – التقرير: تقرير المسند إليه، وتحقيق مفهومه بحيث لا يظن به غيره.

٢ – دفع توهم السهو؛ إذا خاف المتكلم أن السامع ظن به السهو، فأسند الحكم إلى غير من هو له.

٣ – دفع توهم المجاز، نحو: جاء الأمير نفسه؛ دفعًا لتوهم أن إسناد المجئ إلى الأمير مجاز، وإنما الجائي بعض خدمه.

٤ – دفع توهم التخصيص وعدم الشمول، نحو (جاء القوم كلهم)؛ دفعًا لتوهم أن الجائي البعض، وعبر عنه باللفظ الدال على الكل.

---

(١) لسان العرب لابن منظور، وكد ٦/ ٤٩٠٥-٤٩٠٦

(٢) شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، وبهامشه حلية اللب المصون على الجوهر المكنون للشيخ أحمد الدمنهوري صـ٦٤، دار الفكر، بدون تاريخ.

المطلب الثاني
أسباب التوكيد ومناشئه

اهتم البلاغيون كثيرًا بدراسة أحوال الجملة الخبرية من حيث التوكيد وعدمه، وفصّلوا القول في بيان أسباب التوكيد ومناشئه تحت ما أطلقوا عليه أضرب الخبر، من الباب الذي عقدوه لدراسة أحوال الإسناد الخبري.

وقد تركز نظرهم في الغالب حول اعتبار حال المخاطب، فقسموا الخبر من هذه الجهة إلى ثلاثة أضرب[1] هي التي يدور عليها توكيد الكلام وجودًا وعدمًا؛ لأن المخاطب إما أن يكون خالي الذهن من الحكم بأحد طرفي الخبر على الآخر والتردد فيه، وهذا النوع من الأخبار يستغنى في صياغته عن المؤكدات؛ لأن الخبر يتمكن من نفس المخاطب من غير توكيد؛ لمصادفته إياها خالياً، وهو الذي سموه الخبر الابتدائي.

وإما أن يكون المخاطب مترددًا في الحكم، أي: في إسناد أحد الطرفين للآخر، ونسبته إليه، طالبًا الوقوف على حقيقة الأمر، وفي هذه الحالة يستحسن تأكيد الكلام بمؤكد واحد؛ لإزالة ما بصدره من شك وتردد، وهو الذي أطلقوا عليه الخبر الطلبي.

وإما أن يكون المخاطب منكرًا للحكم من أصله، رافضًا إياه بالكلية، وحينئذ يجب أن يؤكد الكلام بمؤكد واحد أو أكثر، وذلك على حسب درجة الإنكار قوة وضعفًا، فإن كان الإنكار قويًا ومبالغًا فيه زيد في عدد المؤكدات، وإن كان الإنكار ضعيفًا أو متوسطًا، أكّد الكلام بما يتلاءم مع هذه الحال.

وقد تجاوز البلاغيون قليلًا هذه النظرة التي حصرت مناشيء التوكيد ودواعيه في مراعاة المتكلم حال المخاطب، وذلك حين عرجوا على بعض

---

(١) ينظر شروح التلخيص ٢٠٢/١ وما بعدها، دار الكتب العلمية بيروت، بدون تاريخ.

الأسباب الاعتبارية التي يفترضها المتكلم في مخاطبه، فيصوغ عبارته خالية من التوكيد أو مشتملة عليه انطلاقًا من هذه الرؤية الجديدة التي عنت له، فينزل غير المنكر منزلة المنكر، وينزل المنكر منزلة غير المنكر، وهكذا، وهذه النظرة فيما يبدو–ترى حال المتكلم نفسه، من خلال التعبير عن رؤيته الخاصة هو، كما تعتبر النص المنطوق، وإن لم يصرح البلاغيون بذلك أو يشيروا إليه(١).

ثم توالت دراسات العلماء حول هذا الموضوع، فوسعوا دائرة النظر، وزاوية البحث في الكشف عن أسباب التوكيد ودواعيه إلى مجال أوسع، وفضاء أرحب، فذكروا أن اشتمال الكلام على التوكيد قد يكون لأسباب ترجع إلى المخاطب وهو الطرف المتلقي، وذلك على النحو الذي فصله البلاغيون سلفًا، وقد يكون لأسباب تعود إلى المتكلم نفسه، وهو الطرف المرسل، وقد يكون لأسباب ترجع إلى الكلام أو النص المنطوق، وقد يكون لأسباب ترجع إلى أطراف الخطاب الثلاثة، والحدود الفاصلة بينها جد شفيفة، قلما يتبصرها إلا ذووا الخبرة والدربة، المتمرسين بصناعة الكلام.

فقد يرجع سبب التوكيد إلى رؤية المتكلم حال نفسه خاصة، دون مراعاة حال المخاطب؛ كأن يكون منفعلًا بمعناه، متشبعًا به، قد أفعمت نفسه به، فأراد أن يلقيه إلى الآخرين مقررًا مؤكدًا كما أحسه هو، وكما أشبعت به نفسه، وأفعم به وجدانه(٢).

---

(١) ينظر المرجع السابق ٢٠٩/١ومابعدها.

(٢) ينظر خصائص التراكيب. دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني. د/ محمد محمد أبو موسى صـ٩١، الطبعة الرابعة ١٩٩٦م–مكتبة وهبة–القاهرة.

وقد يكون التوكيد من صدق رغبة المتكلم، ووفور نشاطه، وحرصه على إذاعة خبره ورواجه، وقبوله عند السامع[١].

وقد يكون السبب هو إظهار كمال عناية المتكلم بخبره، أو استعظامه، أو إظهار كمال التضرع والابتهال والرجاء، أو إظهار كمال الخوف[٢].

وقد يكون لمجئ الخبر على غير وفق ظن المتكلم نفسه، وعلى خلاف ما يترقب، فكأن نفسه تنكره، فيؤكده لها[٣].

وقد يكون التوكيد لإظهار معتقد المتكلم، وإبراز مذهبه؛ لتزداد النفس به يقينًا؛ لأن المقام يقتضي ذلك[٤].

وقد يكون سبب التوكيد هو مراعاة الكلام نفسه؛ كأن يكون الخبر غريبًا، فيحرص المتكلم على أن يؤنس به نفس المخاطب، وإن كانت لا تنكره، وإنما هي في حاجة إلى ما يهيئها لقبوله[٥].

وقد يشتمل الكلام على وعد، أو يتضمن وعيدًا، فيأتي التوكيد لتحقيق الوعد، أو الوعيد، حتى تزداد به النفوس يقينًا واطمئنانًا، ورهبة وخوفًا[٦].

وقد يأتي التوكيد في الجمل التي كأنها نتائج ومقدمات، فيلفت التوكيد إلى

---

(١) ينظر الكشاف للزمخشري ١/ ٦٦، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م-دار الريان للتراث- القاهرة.

(٢) ينظر الخصائص لابن جني ١/ ١٩، والكليات للكفوي صـ٢٦٨.

(٣) ينظر الكليات للكفوي صـ ٢٦٨، وخصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى صـ٩٧.

(٤) ينظر الكليات للكفوي صـ ٢٦٨، وخصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى صـ٩٨

(٥) ينظر خصائص التراكيب صـ٩٨

(٦) ينظر المرجع نفسه صـ٩٧.

هذه الجمل، ويثير التنبه نحوها، وكأنها هي المقصود الأهم، وموضع العنايـــة والنظر، إلى غير ذلك من الأسباب والدواعي التي تقتضي توكيد الكلام بوجه ما، مما هو مفصل في كتب البلاغة[1].

(١) ينظر المرجع نفسه صـــ ٩٨-٩٩

المحور الأول
التوكيد بالوسائل الحرفية

تعددت وتنوعت وسائل التوكيد الأداتية أو الحرفية في القصص النبوي عامة، وفي سياق قصص بني إسرائيل خاصة، حيث يتخذ البيان النبوي من هذه الوسائل ركيزة من الركائز التي تفيدنا اهتمام المتكلم بخبره، ومتكأ لتعميق مضامين هذا القصص في النفوس، وتحقيق غاياته وأهدافه –دينية كانت أم تربوية– في وجدان المتلقي، وإزالة كافة الأسباب الظاهرة أو المحتملة من الشك أو الجحد حول أحداثها ومواقفها.

وأكثر هذه الوسائل الحرفية استعمالًا، وأبرزها دورانًا في القصة النبوية عن بني إسرائيل هما حرفا التأكيد "إن و أن" وحرف التحقيق "قد"، وكذلك "كأن" ونون التوكيد المتصلة بالفعل، والباء الزائدة في سياق النفي، ولام الابتداء، واللام الموطئة للقسم، وغير ذلك مما سنعرض له في صور هذا المحور السبعة بمشيئة الله تعالى.

الصورة الأولى
التوكيد بـ "إنَّ" وأنَّ الناصبتين

تستعمل "إن، وأن" لتأكيد إثبات المسند للمسند إليه؛ إذا تطلب المقام تقرير الكلام وتوكيده، وتحقيقه وتشديده(١)، وذلك عوضًا عن تكرير الجملة؛ فإن دخول "إن" أو "أن" في الكلام بمنزلة تكرير الجملة مرتين(٢).

ويعد هذان الحرفان من أكثر وسائل التقرير والتوكيد دورانًا في القصص النبوي عن بني إسرائيل، كما تتعدد مواقعهما في ثنايا وسياقات هذا النوع من القصص، وذلك تبعًا لاعتبارات السياق ومقتضيات المقام، وطبيعة الحدث المقصوص.

فقد يقعان في مفتتح القصة النبوية ومستهلها، وبخاصة " إن " المكسورة؛ إذ هي التي يبتدأ بها الكلام، وتفتتح بها الجمل، بخلاف "إن" فلا تقع إلا في درج الكلام، دون مستهله أو مبتداه، وقد يقترنان في سياق واحد، وقد يفترقان ولا يقترنان.

وقد يكون الغرض من استعمال هاتين الأداتين في الكلام هو الدلالة على اهتمام المتكلم بخبره، وتصوير مدى عنايته به، وحرصه عليه، وامتلائه به من خلال إفراغه في قالب مشحون بعناصر التوكيد والتقرير.

---

(١) ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ٣٧/١، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت ١٩٨٧م، كما ينظر الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي صـ٣٩٧، تحقيق: د/فخر الدين قباوة، أ–محمد نديم فاضل، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، دار الكتب العلمية–بيروت.

(٢) ينظر اللباب في علل البناء والإعراب للعكبري ٢٠٥/١، تحقيق: محمد غازي الطبعة الأولى ١٩٩٥م –دار الفكر– دمشق، والكليات للكفوي صـ٢٦٩.

وقد يكون الدافع هو مجرد المبالغة في تقرير وتأكيد ما تهدف إليه القصة النبوية نفسها من مقاصد وأغراض، ومفاهيم ومضامين، بتقرير وتوكيد أحداثها ومواقفها ومشاهدها في نفوس المستمعين؛ قصدًا إلى تثبيتهم في موقف يحتاجون فيه إلى التثبيت، والتخفيف عنهم بعض ما يجدونه في طريق الحق من مشاق وصعاب، وما يلاقونه من أذى وعنت، دون اعتبار إنكار المخاطب أو عدم إنكاره، فإن المخاطب بهذا القصص هم أهل الإيمان من أصحاب النبي ابتداءً، ومن تابعهم على الحق إلى أن تقوم الساعة.

وقد يكون المقصد من وراء استخدام هذه الوسائل هو إزالة الوحشة من حول أحداثها ومواقفها؛ إذ كثيرًا ما يتعلق هذا القصص ببعض الأحداث العجيبة، والأمور الغريبة التي تحتاج إلى فضل تقرير وتوكيد؛ لخروجها عن السنن المعهود، حتى تأنس بها النفوس، وتطمئن إليها القلوب، ولذلك يقول عبد القاهر في معرض حديثه عن مقامات تقرير الكلام وتوكيده، وهو يتحدث عن تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المثبت:- " وكذلك في كل شيء كان خبرًا على خلاف العادة، وعما يستغرب من الأمر..."[1]

وافتتاح القصص النبوي عن بني إسرائيل بحرف التوكيد "إن" خاصة إنما يكون في الغالب في مطلع القصص التي تتعلق بذكر بعض الأحداث العجيبة والأمور الغريبة التي تتطلب قدرًا زائدًا من التقرير والتوكيد، ومن إثارة التنبه واستثارة الأذهان حتى تتهيأ النفوس لقبول هذه الأحداث العجيبة، والأمور الغريبة، وإزالة ما يتعلق بها من أوجه البعد والغرابة.

---

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني – صـ١٣٤- تحقيق/ محمود محمد شاكر-الطبعة الثالثة ١٩٩٢م – مطبعة المدني – القاهرة – جدة.

وذلك كالذي تجده في قصة الرجل الذي تجاوز الله عنه ولم يعمل خيرًا قط؛ لتجاوزه عن الناس، في قوله ﷺ: "إن رجلًا كان يداين الناس، فيقول لرسوله: خذ ما تيسر واترك ما عسر، وتجاوز لعل الله أن يتجاوز عنا...."[1] الحديث.

فإن تجاوز الله – تعالى – عن هذا الرجل الذي لم يعمل خيرًا قط إلا ما ذكر في الحديث من عمل قليل مما قد تتعاظمه النفوس، وتستغربه، فجاء قول النبي ﷺ– في مستهل الحديث مؤكدًا بـ " إن" ليحقق مضمون الكلام ويقرره، ويؤكد على سعة رحمة الله بعباده، وعظيم عفوه عنهم، ويزيل ما قد يعلق بهذا الخبر من أوجه الدهشة والاستغراب، وينبه في الوقت ذاته على ضرورة التحلي بخلق التخفيف عن الموسرين، وإنظار المعسرين أو التجاوز عنهم، وتأصيل هذه القيمة، وإعلاء هذا المبدأ بين الناس في تعاملاتهم.

وكقوله ﷺ في قصة المبتلين الثلاثة الأبرص، والأقرع، والأعمى: "إن ثلاثة من بني إسرائيل –أبرص وأقرع وأعمى– أراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكًا، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن..."[2] الحديث.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل حديث رقم ٣٤٥١ صـ٤٥٤، وفي كتاب البيوع، باب من أنظر معسرًا رقم ٢٠٧٨ صـ٢٦٩، ترقيم وترتيب الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي – الطبعة الأولى ٢٠١٨م – دار ابن حزم –القاهرة، ومسلم في صحيحه–كتاب المساقاة – باب فضل إنظار المعسر صـ٤٤٨، ترقيم وترتيب الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي – الطبعة الأولى ٢٠١٨م – دار ابن حزم – القاهرة.

(٢) صحيح البخاري–كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل حديث رقم ٣٤٦٤ صـ٤٥٥، ومسلم في كتاب الزهد والرقاق صـ٨٤١.

فإن الذي يطالع هذه القصة يجد أن النبي ﷺ قد آثر في مستهلها حرف التأكيد "إن" في قوله: "إن ثلاثة من بني إسرائيل..."، لأن المقام يقتضي هذا التأكيد؛ فإن القصة الكريمة جاءت لبيان أن الابتلاء -كما هو سنة جارية لله في خلقه- يكون بالخير كما يكون بالشر، ويكون بالصحة كما يكون بالمرض، وبالعطاء كما يكون بالسلب، وأن الناس يتفاوتون في كيفية تلقيهم إياه على موارد شتى، ومواقف متباينة، فمن شاكر معترف بفضل الله ونعمته، ومن جاحد منكر، لا يرى لله عليه نعمة ولا فضلًا.

والابتلاء بالخير خاصة مما لا يتصوره أكثر الناس، ولايرد لهم على خاطر، ولا يتلبس به تفكيرهم أصلًا، وقلما يلتفتون إلى مدى خطورته، فنبهوا إليه من خلال قرع الآذان، وإثارة الأفهام بحرف التأكيد "إن" في أول الحديث.

ثم إن ما يتعلق بهذه القصة وأحداثها من أوجه الغرابة وأسبابها بذكر بعض الخوارق والمعجزات التي كان الله يجريها في هذا الزمان على يد من شاء من خلقه مما يثير الدهشة والاستغراب، ويبعث على التعجب، وهذا من المناطات التي تقتضي تقرير الكلام وتوكيده، حتى تأنس النفوس بهذه الخوارق، وتطمئن القلوب إلى قبول هذه المعجزات.

ومن اللافت للنظر أن اسم "إن" في القصص السابقة، وفي غيرها مما لا يدخل تحت هذا البحث مما وقعت فيه "إن" في مستهل هذا القصص يجيء في الغالب اسمًا منكرًا، موصوفًا، وغير موصوف، وهنا نجد وجود "إن" في مبتدأ القصة ضروريًا؛ إذ تهيئ "إن" النكرة وتصلحها -إذا كانت غير موصوفة- لأن يكون لها حكم المبتدأ، ولا يصح المعنى إلا بها، ولو جاء الكلام من غير "إن" لم يكن كلامًا[1].

(١) ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر صـ٣٢٠.

أو عدمت منه الحسن والطلاوة والتمكن الذي أنت واجده مع "إن"، ووجدت ضعفا وفتورا وإن الكلام مستقيمًا، وذلك إذا كانت النكرة موصوفة(١).

وقد تقع "إن" و "أن" في ثنايا القصص النبوي كثيرًا، وعلى نحو لافت أكثر من وقوع "إن" في مستهل القصص النبوي خاصة، وقد يقترنان في سياق واحد، وقد لا يقترنان.

فمن وقوع " إن" في ثنايا القصص النبوي قوله ﷺ في سياق قصة المبتلين الثلاثة: "ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال رجل مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك..."(٢) وذلك لتقرير مضمون الكلام وتوكيده، والتنبيه على أنه مما يجب أن تتوفر العناية على الاهتمام به، والاحتشاد لأجله؛ لأنه يتعلق بالغاية والمغزى من القصة نفسها؛ لأن حقيقة الابتلاء ونتيجته تبدأ عند هذا المقطع من مقاطع القصة الكريمة.

وقرينة هذا من ضمير الشأن المتصل بإن في قوله: "ثم إنه"، وقد اشترط العلماء في الكلام الذي يبنى على ضمير الشأن أن يكون ذا مضمون عظيم يعتنى به(٣).

---

(١) ينظر المرجع نفسه صـ٢٢١.

(٢) صحيح البخاري-كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل صـ٤٥٥، ومسلم في كتاب الزهد والرقاق صـ٨٤١.

(٣) المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم لسعد الدين التفتازاني صـ٢٨٣، تحقيق: د/عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى ٢٠٠١م – دار الكتب العلمية، بيروت.

وكذلك من إيثار صيغة الماضي الداخل عليها حرف التحقيق(قد) في قوله: قد انقطعت بي الحبال في سفري "أي: الأسباب التي يقطعها في طلب الرزق، وقيل: العقبات[1]، ومن القصر بالنفي والاستثناء في قوله: "فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك" ومن القسم في قوله: "أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن.... " فإن اجتماع كل هذه القرائن المؤكدة على هذا النحو في سياق واحد لمما يدل على عظم الأمر، وأنه ذو قدر وخطر.

والمراد بقوله: "ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته" أي: في الصورة التي كان عليها لما اجتمع به وهو أبرص؛ ليكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة عليه، وليس المراد أنه أتاه على هيئة رجل، وفي صورة شخص به برص[2]، والله أعلم.

ومن وقوعها أيضًا في ثنايا القصص النبوي عن بني إسرائيل قوله ﷺ في قصة الكفل: "فمات من ليلته فأصبح مكتوبًا على بابه: "إن الله –تعالى– قد غفر للكفل... فعجب الناس من ذلك..."[3] الحديث.

---

(١) ينظر فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٥٠٢/٦، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي–قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب–الناشر: دار المعرفة–بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٢) ينظر قصص السنة لطائف وعبر د/ السيد أحمد محمد سحلول صـ٦٣ – طبعة ٢٠١٨م.

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في سننه ٦٥٧/٤، حديث رقم ٢٤٦٩– تحقيق/ أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي – الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ–١٩٧٥م–شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي– مصر. وأوله: "كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله".

فإن الغرض من وقوع "إن" في صدر جملة "إن الله قد غفر للكفل" هو تقرير مغفرة الله – تعالى – لهذا الرجل، وتأكيد تجاوزه عنه، وإزالة ما قد يعلق بذلك من أوجه الغرابة وأسبابها؛ لمخالفته لما عهد من أمر هذا الرجل الذي كان مسرفاً على نفسه في المعصية، حيث كان لا ينزع عن شيء، ولا يتورع عن قبيح، كما جاء في الحديث.

وبرهان هذا وقرينته من سياق الكلام، وذلك قوله ﷺ: "فعجب الناس من ذلك"، والأمور المستغربة التي تجري على خلاف السنن المعهود تتطلب مزيد تقرير وتوكيد؛ لتأنس بها النفوس، وتطمئن إليها القلوب.

ولا شك في أن إخراج الكلام هذا المخرج في التوكيد والتقرير مما يصب في خدمة الغرض والمغزى من القصة نفسها، وهو تصوير سعة رحمة الله –تعالى–، وتجاوزه عن المسرفين، وبعث الأمل في نفوس العصاة، حتى لا ييأسوا أو يقنطوا، بشرط التوبة والإقلاع عن المعصية.

ومن ذلك –أيضا– قوله ﷺ في قصة لطم موسى ملك الموت، حين جاءه يستأذنه في أن يقبض روحه:– "فرجع الملك إلى الله –تعالى– فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك، لا يريد الموت، وقد فقأ عيني، قال: فرد الله إليه عينه، وقال: ارجع إلى عبدي، فقل: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما توارت يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة"(١).

(١)الحديث أخرجه البخاري–كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد، حديث رقم ٣٤٠٧، صـ١٨١، ومسلم في كتاب الفضائل – باب فضل موسى–عليه السلام–، حديث ١٥٨ صـ٦٨٣، وأوله جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال له: أجب ربك...".

فإن وقوع "إن" في صدر الجملة الأولى من كلام ملك الموت: " إنك أرسلتني إلى عبد لك... " إنما تنطق بقناعته التامة بما يخبر به، وأنه قد استقر عنده ووقر في قلبه حرص موسى عليه السلام على الحياة، وكراهيته الموت.

كما ينبئ -من وجه آخر- عن بالغ تعجبه واستغرابه، وقوة امتعاضه من شدة ردة فعل موسى عليه السلام تجاه طلب الملك منه أن يجيب ربه، وهو النبي الكليم، ومن الخمسة أولي العزم من الرسل، وليس المراد من تأكيد الكلام بـ"إن" دفع إنكار أو شك أو تردد؛ فإن المخاطب بذلك هو رب العزة جل جلاله.

وهي في صدر جملة جواب شرط (ما) من كلام رب العزة سبحانه: "فما توارت[1] يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة" للمبالغة في التقرير والتوكيد، والتطمين والتأنيس نحو هذا الخبر الغريب.

وفيها دفع بقوة، ومجابهة على وجه السرعة لما قد يحوم حول هذا الخبر -لغرابته- من شبهات، وما قد يعلق بالنفس نحوه من شك أو إنكار؛ فقد تلقفه أهل الأهواء والشبه، وظنوه مدخلًا مواتيًا للطعن على الكتاب والسنة، فأثاروا حوله الشبهات، واتخذوه مادة للتندر والهزؤ، وهو ما دفع أهل العلم من غير التخصص إلى إنكار الحديث أصلًا، والحكم بعدم ثبوته وصحته[2]، على الرغم من وروده في صحيح البخاري، لكن أهل العلم من المتخصصين في علوم الحديث قديمًا وحديثًا فندوا هذه الشبه، ودحضوها بما يشفي الصدور، ويثلج القلوب[3].

---

(١) أي: سترت ووارت. ينظر لسان العرب، مادة وري، ١٥/ ٣٨٩.

(٢) ينظر السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، محمد الغزالي، الطبعة السادسة، دار الشروق، صـ ٣٤: ٣٨.

(٣) ينظر المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي ١٢٩/٥ – الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ-دار إحياء التراث العربي – بيروت، كما ينظر فتح الباري لابن حجر ٦/ ٤٤٢ وما بعدها.

ومن وقوعها –أيضًا– في ثنايا القصص النبوي عن بني إسرائيل قوله ﷺ في قصة النبي الذي حبست عليه الشمس، حتى فتح الله عليه: "فدنا من القرية صلاة العصر أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة، وأنا مأمور " وقوله في القصة نفسها: "فجمع الغنائم، فجاءت –يعني النار– لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غلولًا، فليبايعني من كل قبيلة رجل..."[1] الحديث.

فإن التأكيد بـ"إن" في قول النبي المذكور مخاطبًا الشمس: إنك مأمورة" كأنه للتمهيد بين يدي مطلوبه، والتوطئة لقوله: اللهم احبسهاعلينا" لما يتعلق به من غرابة شديدة؛ لخروجه عن مقتضى السنن الكونية المعهودة.

والتأكيد بها في قوله: "إن فيكم غلولًا" لدفع الإنكار، وإزالة كافة أسبابه ومقتضياته؛ فإن الغلول –وهو الخيانة في المغنم والسرقة منه[2] مما لا يكاد يقبل أو يصدق في هذا المقام المشحون بالجهاد، ولا يكاد يتأتى أو يصدر ممن خرجوا مع هذا النبي للجهاد؛ فقد كانوا صفوة القوم وخاصتهم؛ بقرينة سياق الكلام من قوله ﷺ حكاية عن هذا النبي "لا يتبعني رجل ملك بضع[3] امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يبن بها، ولا أحد بنى بيوتًا ولم يرفع سقوفها، ولا

---

(١) البخاري – كتاب فرض الخمس – باب قول النبي ﷺ:" أحلت لكم الغنائم " حديث رقم ٣١٢٤ صـ٤٠٦، ومسلم في كتاب الجهاد والسير–باب تحليل الغنائم ١٧٤٧ صـ٥١٢، وأول الحديث: "غزا نبي من الأنبياء فقال لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها... " وهو في شرح النووي على مسلم، باب تحليل الغنائم لهذه الأمة، حديث رقم ١٧٤٧، ١٢/ ٥١.

(٢) ينظر مقاييس اللغة لابن فارس، باب الغين وما معها لافي المضاعف والمطابق، غل ٣٧٦/٤ – تحقيق/ عبد السلام محمد هارون–دار الفكر العربي ١٩٧٩م، وفتح الباري لابن حجر ٢٢٣/٦.

(٣) البضع بضم الباء يطلق على الفرج والتزويج والجماع، وهذ المعاني جائزة –هنا– ويطلق أيضًا على المهر والنكاح، قال ابن السكيت: البضع النكاح، يقال: ملك فلان بضع فلانة. ينظر الصحاح للجوهري، مادة بضع، ١١٨٧/٣، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطا، الطبعة الرابعة ١٩٨٧م، دار العلم للملايين، بيروت.

أحد اشترى غنمًا أو خلفات[1] وهو ينتظر أولادها" فإن اجتماع هذه الصفات في القوم الذين خرجوا للقتال مع هذا النبي ينادي على أنهم كانوا أصحاب همم عالية، ونفوسًا مرتفعة عن أمثال هذه الدنايا والسقطات، فجاء كلام نبيهم مؤكدًا على هذا النحو المذكور في مبادرة ومبادءة منه لدفع إنكار من قد يجحد، وإزالة استغراب من قد يعجب، لا سيما في هذا الموقف المشحون بالجهاد والإيمان والنصر.

وأما مجيء القصص النبوي مؤكدًا بـ"أن" وحدها فلم يرق في كثرته إلى ما جاء مؤكدًا ب"إن" المكسورة؛ نظرًا لخصيصة "إن"؛ إذ يبتدأ بها الكلام، وتقع في ثنايا الجمل، وفي مستهلها بخلاف "أن" فلا تقع إلا في ثنايا الجمل، ولا يبتدأ بها الكلام أبدًا.

وقد جاء ذلك في بعض القصص النبوي من أمثال قوله ﷺ في قصة الكفل: "فلما أرادها عن نفسها ارتعدت وبكت، فقال: ما يبكيك؟ فقال: لأن هذا عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة"[2] فإنها بتقرير جوابها على هذا النحو وتوكيده كأنها أرادت أن تحرك فيه نوازع الإنسانية، وتستثير فيه مشاعر الخوف والمراقبة لله، لعله أن يستفيق من غفلته، ويرق لها قلبه، وتنبعث فيه بقايا روح من ضمير ميت فيتركها.

أو لأنها أرادت أن تقرر عنده وتؤكد لديه أن هذا الفعل القبيح الشنيع يجري على خلاف المعهود من عفتها وطهارتها، وأنها اضطرت إليه تحت إلحاح الحاجة وشدة العوز، وقد كان لها ما أرادت؛ فقد أقلع عنها، وترك لها ما أعطاها، وأقسم على التوبة:- "أتفعلين هذا من مخافة الله تعالى؟ فأنا أحرى

---

(١) الخلفات: بفتح الخاء وكسر اللام: الحامل من النوق، وقد يطلق على غير النوق. ينظر فتح الباري ٦/٢٢٢.

(٢) سنن الترمذي ٤/٦٥٧، حديث ٢٤٩٦.

بذلك، فاذهبي ولك ما أعطيتك، ووالله لا أعصيه بعدها أبدًا، فمات من ليلته فغفر الله له"[1].

ومن أمثال ذلك –أيضًا– قوله ﷺ في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، فانحدرت على بابه صخرة من أعلى الجبل فسدته، فلا يستطيعون الخروج:– "فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها"[2] وذلك بعد أن رغب الثاني بما كان منه مع ابنة عمه التي أرادها عن نفسها فامتنعت منه، حتى ألمت بها فاقة شديدة، فجاءته فأعطاها على أن تخلي بينه وبين نفسها، حتى إذا قدر عليها، وقعد منها مقعد الرجل من المرأة قام عنها، وترك لها الذهب الذي أعطاها.

فإن الغرض من وقوع "أن" في هذه الجملة هو تقرير عدم قدرتهم على الخروج وتوكيده؛ لما قد يقع في الوهم، ويتبادر إلى الذهن من قدرتهم على الخروج من الغار، وتمكنهم من ذلك، لا سيما وأن الصخرة قد انفرجت شيئًا

---

(١) المرجع نفسه، حديث ٦٥٧/٤، حديث ٢٤٩٦.

(٢) البخاري كتاب أحاديث الأنبياء–باب "أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم" حديث ٣٤٦٥ صـ٤٥٦، وفي كتاب الأدب، باب إجابة دعاء من بر والديه ٥٩٧٤ صـ٧٨٢، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار – باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال ٢٧٤٣ صـ٧٧٩، وأوله: "انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم، حتى أواهم المبيت إلى غار..." الحديث، وفي رواية: "بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل..." الحديث، وقد ذكر الطبراني في معجمه بسند ضعيف أن الثلاثة كانوا من بني إسرائيل. ينظر المعجم الكبير للطبراني ١٦٠/٢١، تحقيق/ حمدي بن عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية ١٩٩٤م – مكتبة ابن تيمية – القاهرة، كما ينظر فتح الباري لابن حجر ٥٠٦/٦.

قليلًا بعد دعاء الأول منهم، فربما كان انفراجها شيئًا آخر مضافًا إلى الانفراجة الأولى بعد دعاء الثاني المذكور موهمًا قدرتهم على الخروج، وتمكنهم منه بقوة، فجاءت "أن" في سياقها لدفع هذا الوهم ورده، وتقرير عدم تمكنهم من الخروج وتوكيده.

وكقوله ﷺ في قصة الحجر الذي فر بثوب موسى عليه السلام حكاية عن بني إسرائيل: "والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر"، والآدر: هو عظيم الخصيتين، وهي التي يسميها الناس القيلة(١).

فهذه التهمة التي ألقاها القوم جزافا، وهذا النقص الذي رموا به موسى عليه السلام من دون بينة أو برهان، وهو نبيهم المخلص لهم، والذي نجاهم الله به من فرعون وجنوده إنما كان الغرض من توكيدها بـ" أن" على هذا النحو "إلا أنه آدر" هو القصد إلى ترويجهم هذه المقالة وإشاعتها، ودفع ما قد يحوم حولها من شبهات، وإزالة ما قد يرد عليها من اعتراضات؛ فإن هذا البهتان مما لا يستقيم في الطباع السليمة، والفطر السوية، فضلًا عن أهل الإيمان الذين ينكرون هذه الفرى أشد الإنكار، ويدفعونها بقوة، لاسيما إذا كان المرمي به أولياء الله وخاصته من أنبيائه ورسله.

وليكون هذا التوكيد كالدليل على صدقهم فيما اختلقوه، وافتروه في حقه

---

(١) ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام محيي الدين أبي السعادات المبارك ١/٦٠، تحقيق/ محمد صلاح عويضة – الطبعة الأولى ١٩٩٧م – دار الكتب العلمية – بيروت والحديث أخرجه البخاري في كتاب الغسل باب من اغتسل عريانًا حديث ٢٧٨ صـ٧٨، وفي كتاب أحاديث الأنبياء – حديث رقم ٣٤٠٤، صـ٨٤٢، وفي كتاب التفسير باب "يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى" حديث رقم ٤٧٩٩، صـ١٢٠٦، ومسلم في كتاب الفضائل – باب فضائل موسى / حديث ٣٣٩ صـ٦٨٣، وفي كتاب الحيض – باب جواز الاغتسال عريانًا في الخلوة حديث ٧٥ صـ١٠٠.

ﷺ؛ تمهيدا لقبوله، ومحاولة الإقناع به، بقرينة القسم في أول الجملة "والله" وبقرينة القصر بالنفي والاستثناء.

ومن التأكيد ب "أن" قوله ﷺ في قصة الذي تسلف صاحبه ألف دينار: "أخبرتك أني لم أجد مركبا قبل الذي جئت فيه"(١) وقوله في قصة الملك الذي فر هاربا من الملك والحكم:" بينما رجل فيمن كان قبلكم كان في مملكته فتفكر فعلم أن ذلك منقطع عنه، وأن ما هو فيه قد شغله عن عبادة ربه، فتسرب فانساب ذات ليلة من قصره، فأصبح في مملكة غيره"(٢) فإن المقام في قصة المتسلف صاحبه ألف دينار مقام طلب؛ بقرينة سؤال المقرض إياه قبل قوله مباشرة: "هل كنت بعثت إلى شيئا؟" ومقامات الطلب مما تقتضي توكيد الكلام استحسانا، فجاء كلام المتسلف على هذا النحو المؤكد بـ "أن" لإزالة كافة أسباب الشك والتردد التي ظهرت بوارقها في سؤال المقرض.

---

(١) البخاري في كتاب الكفالة، باب الكفالة والقرض حديث ٢٢٩١ صـ٢٩٣، وفي كتاب البيوع باب التجارة في البحر صـ٢٦٨، وأخرجه أحمد في مسنده ٢٤٦/٤، حديث ٨٥٨٧، تحقيق/ شعيب الأرناؤوط– الطبعة الأولى ٢٠٠١م مؤسسة الرسالة–بيروت.

(٢) أخرجه البزار في مسنده المنشور باسم البحر الزخار ٣٥٨/٥، حديث ١٩٩٠، تحقيق/ محفوظ الرحمن زين الله وآخرون، الطبعة الأولى ٢٠٠١م – مكتبة العلوم والحكمة – المدينة المنورة، وأحمد في مسنده ٣٣٦/٧٥، حديث ٤٣١١، وأبو يعلى الموصلي في مسنده ٢٦١/٩، الطبعة الأولى ١٩٨٤، دار المأمون للتراث–دمشق، والهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، كتاب الزهد – باب التفكر في زوال الدنيا ٢١٨/١٠ حديث ١١٧٦٤١ تحقيق/ حسام الدين القدمي – القاهرة ١٩٩٤ م.

والمقام في قصة الملك الذي فر هاربا من الحكم مقام تعجب واستغراب؛ فإن الفرار من الحكم على هذا النحو، والانخلاع من الملك لهذا السبب من الأمور المستغربة التي تنكر وتدفع، وترد وترفض؛ لجريانها على غير المعهود من أمر الملوك؛ فقد جرت العادة باستمساكهم بملكهم، وشدة تشبثهم بحكمهم وإن كلفهم ذلك النفس والنفيس؛ فأكد الكلام بـ"أن"؛ لتأنيس النفوس بهذا الخبر العجيب، ودفع ما قد يحوم حوله من شبهات.

وقرينة هذا من تكرار "أن"، ومن مجئ خبرها في الجملة الأولى اسما، وهو "منقطع"؛ للدلالة على الثبوت والدوام، ومن مجيئه في الثانية جملة فعلية، فعلها ماض مقترن بـ"قد" وهو قوله:"قد شغله عن عبادة ربه"؛ لإفادة التحقيق، ومن إضافة العبادة إلى لفظ الربوبية، وكذلك من إضافة الرب إلى ضمير الملك.

وأما اقتران "إن" و "أن" واجتماعهما في نسق واحد، فهو قليل الدوران في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل، وقلما تعثر على شاهد له، وإذا ذهبت تفتش عن ذلك فإنك تجده –بعد عناء– في قول النبي ﷺ في قصة الرجل الذي تسلف صاحبه ألف دينار، وذلك حين وقف على شاطئ البحر ينتظر مركبًا يركبه؛ ليسدد إلى صاحبه دينه، فلما أعياه ذلك أخذ خشبة ونقرها، وأدخل فيها الألف دينار، وصحيفة منه إلى صاحبه، قال: "اللهم إنك تعلم أني تسلفت فلانا ألف دينار، فسألني كفيلًا، فقلت: كفى بالله وكيلًا، فرضي بك، وسألني شهيدا، فقلت: كفى بالله شهيدا، فرضي بك"[1] فإن اجتماع الأداتين في جملة واحدة: "اللهم إنك تعلم أني تسلفت فلانا ألف دينار" فيه مزيد تقرير وتأكيد على أنه قد استفرغ جهده وطاقته في سداد دينه في الموعد المضروب، والميقات المحدد، فلم يتمكن من ذلك لأسباب خارجة عن إرادته.

---

(١) سبق تخريج الحديث.

وفيه نداء على شدة عجزه، وغاية ضعفه، وتصوير لنهاية ذله وفقره بين يدي ربه، وقوة إلحاحه؛ ليكون ذلك كله كالتوطئة والتمهيد بين يدي مطلوبه، وما يقدم عليه من أمر عجيب، وفعل غريب، دل عليه قوله في نسق القصة: "وإني استودعتكها فرمى بها إلى البحر، حتى ولجت فيه، ثم انصرف"(١)؛ طمعًا في حصوله، ورجاءً في تحققه؛ بقرينة قوله في سياق القصة:- "وإني جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أجد"، وقد تحقق له رجاؤه، وكان له ما أراد، وذلك على النحو الذي كشفت عنه أحداث القصة بعد ذلك.

كما تجد هذا في قوله ﷺ في قصة الملك الذي فر هاربًا من الحكم "فناداه -أي الذي تسرب إلى مملكته- يا عبد الله! إنه ليس عليك مني بأس، فأقام، حتى أدركه، فقال له: من أنت؟ رحمك الله! قال: أنا فلان بن فلان، صاحب مملكة كذا وكذا، تفكرت في أمري فعلمت أن ما أنا فيه منقطع، فإنه قد شغلني عن عبادة ربي، فتركته وجئت ههنا أعبد ربي -عزَّ وجل- "(٢)

فإن اقتران الأداتين في نسق واحد على هذا النحو الذي جاء في قوله:- "فعلمت أن ما أنا فيه منقطع فإنه قد شغلني عن عبادة ربي "للمبالغة في تأنيس نفس صاحبه بهذا الخبر العجيب، والحكم الغريب الذي خرج عن المألوف من أمر الملوك وعادتهم، وزيادة تحقيقه عنده، وتزجيته لديه؛ للتأكيد على قوة استمساكه بموقفه، واقتناعه بحجته، وقناعته الشديدة، ورضائه التام بما فعل، وأنه غير نادم ولا عاتب؛ بقرينة قوله في صدر الجملة: "تفكرت فعلمت"، وبقرينة إخراج الجملة الثانية: "فإنه قد شغلني عن عبادة ربي "مخرج العلة والدليل على الجملة الأولى؛ فإن اتباع الأحكام بعللها أبلغ في تقريرها وتوكيدها، وأقوى في الإقناع بها من سوقها مرسلة غير معللة.

---

(١) سبق تخريج الحديث.

(٢) سبق تخريج الحديث.

الصورة الثانية
التوكيد بحرف التحقيق [قد]

يعد الحرف "قد" من أشهر وسائل التقرير والتوكيد، وأكثرها دورانًا في القصص النبوي، ويدخل في الأكثر على الجملة الفعلية ذات الفعل الماضي فيفيد التحقيق والتأكيد، وثبوت مضمون الكلام الذي دخل فيه [1].

ولم تقع "قد" في مستهل القصص النبوي عن بني إسرائيل، كما كان الشأن في "إن"، ولم أقف –بعد نظر ومعاودة– على مثال لها وقعت فيه في مطلعه، وإنما تقع في مستهل الجمل دون وسطها أو آخرها، وذلك في ثنايا القصص.

وكثيرًا ما تقترن "قد" باللام الموطئة في هذا النوع من القصص، وتأتي من دون هذه اللام كثيرًا، وقد تقترن بـ"إن" و"أن" المؤكدتين، وقد تقترن بالقسم وحده، وقد تقترن به مع اللام الموطئة، وقد لا تقترن بشيء أصلًا، وحيث تقترن بهذه الوسائل وتجتمع بها في نسق واحد، فذلك للمبالغة في تقرير المعنى وتوكيده، والزيادة في تحقيقه وتشديده، إما لأنه قوبل برفض وإنكار شديد، وإما لأنه بلغ في الغرابة مبلغًا عظيمًا.

فمن اقترانها باللام الموطئة في نسق واحد قوله ﷺ في قصة الرجل الذي ملأ خفه ماءً فسقى كلبًا كان يلهث ويأكل الثرى من شدة العطش:-" لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني"[2]؛ فإن اقتران اللام بقد، ودخولهما

---

(١) ينظر الجنى الداني في حروف المعاني، أبو محمد بدر الدين حسن عليّ المرادي المصري المالكي(ت: ٧٤٩هـ)، صـ٢٥٤: ٢٥٦.

(٢) البخاري في كتاب المساقاة – باب فضل سقي الماء حديث ٢٣٦٣ صـ٣٠٤، وفي كتاب المظالم – باب الآبار التي على الطريق إذا لم يتأذ بها الناس حديث ٢٤٦٦ صـ٣١٧.

على الفعل الماضي "بلغ" في الجملة السابقة ينبئ عن شدة استعظام هذا الرجل، وفرط دهشته واستغرابه من الحال التي وصل إليها الكلب، وأنها بلغت في السوء حدًا لا يكتنه كنهه، حتى أكل الكلب الثرى –وهو التراب المندى[1]– من شدة العطش، ولعل هذا كان من أسباب رقة قلبه، ورحمته إياه.

وفي اجتماع هذه المؤكدات –إلى جانب ما سبق– دلالة أخرى، وهي أن الرجل كأنه أراد بذلك أن يوطن نفسه ويهيئها لما يقدم عليه من أمر بالغ المشقة والخطورة؛ بدلالة قرينة الحال؛ فقد ذكر العلماء[2] أن الرجل نزع خفه، وأمسكه بفيه، نزولًا إلى البئر وصعودًا منها، مملوءًا وفارغًا، وهذا يشعر بأن الماء كان بعيدًا، وأن البئر كانت عميقة، وأنها لم تكن مهيأة للسقى، وليس بها من الآلات ما يستقى به، فقد يكون له عن سقي الكلب مندوحة، وفي تركه عذر، ولكنها الرحمة تغمر قلبه، وتملؤ فؤاده، فينزع خفه، ويمسكه بفمه، وينزل إلى قاع البئر، فيملؤه ماءً، ويصعد فيسقي الكلب.

وفي هذا مبالغة أيما مبالغة في تقرير وتوكيد مضمون الجملة، وترسيخ الهدف من القصة في النفوس، وتحقيق الغاية منها في الوجدان، وإزالة ما قد يعلق حيالها من دواعي الدهشة والاستغراب، ومن هنا يتخلق المسلم بالرحمة، ويحرص على فعل الخير، ولا يحقرن شيئًا من المعروف، وإن بدا ضئيلًا، فقد تكون نجاته فيه، كما كانت نجاة هذا الرجل في سقية سقاها كلبًا.

---

(١) ينظر تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي، باب الياء فصل الثاء، ثرى٣/٢٧٣ – دار الهداية، بدون تاريخ.

(٢) ينظر فتح الباري لابن حجر١/٢٩٨، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني ٢٢/١٠٦ – دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.

ومن اقترانها بـــ"إن" أو "أن" المؤكدتين قوله ﷺ في قصة الكفل:-"إن الله قد غفر للكفل"(١)، وقوله ﷺ في قصة الملك الذي فر من الحكم:-"فتفكر فعلم أن ذلك منقطع عنه، وأن ما هو فيه قد شغله عن عبادة ربه"(٢)، وقوله في القصة ذاتها:-"فعلمت أن ما أنا فيه منقطع، فإنه قد شغلني عن عبادة ربي"، وقد سبق تحليل هذه النماذج باستفاضة في الجزئية السابقة.

وقوله ﷺ في قصة أصحاب الأخدود، حكاية عن الساحر:-"فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إلى غلامًا أعلمه السحر"(٣)، ومـــن المعلـــوم أن الملك لا ينكر كبر سن الساحر، ولا يشك في ذلك أو يتردد، وكـــذلك الحـــال بالنسبة لجلسائه وخاصته؛ لبدو أمارات الكبر وظهور علاماته، وليس في هذا الخبر -أيضًا- ما يثير الدهشة والاستغراب، حتى يخرج الساحر كلامه مخرج التوكيد بـــ"إن" واسمية الجملة، و"قد" الداخلة على الفعل الماضي.

وإنما أكد الساحر كلامه على هذا النحو السابق بتنزيل غير المنكر منزلة المنكر؛ تمهيدًا بين يدي مطلوبه بتهيئة الملك له، وتنبيهًا على خطورة الأمـــر، وعظم الخطب، ودلالة على أنه جاد في الطلب، حريص على تحققه وحصوله، وهذا كله مما يقتضيه مقام مخاطبة الملوك، وحســـن التـــأدب فـــي حـــديثهم؛ بالاحتراز عن مجابهتهم بالطلب من أول الأمر، ومن ثم لبى الملك طلبه على

---

(١) سبق تخريج الحديث.

(٢) سبق تخريج الحديث.

(٣) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقاق، باب قصة أصحاب الأخدود والســـاحر والراهب والغلام، حديث رقم ٣٠٠٥ صـــ٨٤٩، والترمذي في سننه، في كتاب التفســـير، تفسير سورة البروج ٤٣٧/٥ رقم ٣٤٤١، وأول الحديث:-"كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر فلما كبر..."

وجه السرعة، وذلك على الوجه الذي ينبئ عنه دخول الفاء في قوله:-"فبعث إليه غلامًا يعلمه" عقب الطلب مباشرة.

وقد تقترن "قد" بالقسم وحده في نسق واحد، وذلك كما في قوله ﷺ في قصة أصحاب الأخدود -أيضًا-:-"فأتى الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك؛ قد آمن الناس"(١)، وقد تجيء مقترنة بالقسم واللام الموطئة، كما في قوله ﷺ في قصة بلاء أيوب عليه السلام:-"إن نبي الله أيوب كان في بلائه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلان من إخوانه، كانا من أخص إخوانه، كانا يغدوان ويروحان إليه، فقال أحدهما لصاحبه: أتعلم-والله- لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد؟ قال صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف عنه"(٢)

فإن اقتران "قد" بالقسم في قوله من قصة أصحاب الأخدود:-"قد والله نزل بك حذرك"، أي: ما كنت تحذر، يجري على تنزيل غير المنكر منزلة المنكر؛ فإن الملك لا ينكر إيمان الناس؛ لأنه أصبح حقيقة واقعة، وإنما خرج الكلام هذا المخرج من التوكيد للمبالغة في التنبيه على خطورة الأمر، وعظم الخطب، وأنه مما ينبغي أن يؤخذ على محمل الجد، وعدم التراخي أو التساهل في المواجهة؛ بقرينة قوله بعده:-"قد آمن الناس" إذ هو كالدليل والبرهان على الجملة السابقة.

---

(١)أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد والرقاق -باب قصة أصحاب الأخدود/ حديث ٣٠٠٥صـ٨٤٩.

(٢)الحديث أخرجه أبو يعلى في مسنده ٢٩٩/٦، حديث ٣٦١٧، وابن حبان في صحيحه بترتيب ابن بلبان ١٥٧/٧، حديث ٢٨٩٨/ تحقيق: شعيب الأرناؤوط-الطبعة الثانية ١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة-بيروت.

كما أن في إخراج الكلام هذا المخرج من التوكيد نوعًا من تحقيق اللوم والتأنيب، والتقريع والتعنيف المدلول عليه من سياق الكلام، بقرينة الاستفهام في قوله في الجملة السابقة "أرأيت ما كنت تحذر؟ "فإنه للتقرير المشوب بلوم وتأنيب، وتقريع وتعنيف، كأن أصله: أرأيت ما كنا نحذرك؟، فلعلهم نصحوا الملك قبل ذلك بأن لا يفعل ما طلبه الغلام منه، فلم يستمع إلى نصيحتهم.

وأما اقتران "قد" بالقسم واللام الموطئة في قوله ﷺ من قصة نبي الله أيوب:-"أتعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد" ففيه محاولة حثيثة من هذا الصاحب في تحقيق فريته في أيوب عليه السلام عند صاحبه، وتقريرها لديه، وإقناعه بها، وإيهامه بصدقها؛ لما علم من حال صاحبه أنه سوف يدفعها وينكرها، ولن يصدقه فيها أو يسلم له بها، وهذا ما كشف عنه سياق القصة بعد ذلك في قوله:-"فلما راحا إليه-أي إلى أيوب- لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له" أي: لأيوب عليه السلام.

ففي هذا دلالة على ظهور فريتها عنده، ونداء على شدة امتعاضه منها، وأنه لم يقتنع بها، ولم يقبلها في شأن أيوب عليه السلام.

وأما انفراد "قد"، وعدم اقترانها بغيرها من أدوات التوكيد الأخرى، والتي سبق بيان طرف منها فهو أكثر أحوال "قد" في القصص النبوي عن بني إسرائيل، ولا تدخل إلا على الفعل الماضي دون المضارع؛ إذ لم أقف فيما عرضت له من هذا النوع من القصص ما دخلت فيه [قد] على الفعل المضارع، ولعل ذلك يرجع إلى تحقق مضامين ما دخلت عليه "قد"في الواقع أو في الخارج، ولو ادعاءً، كما سيظهر في الأمثلة والشواهد.

فمن ذلك قوله ﷺ في قصة المبتلين الثلاثة، على لسان الأبرص خاصة، حين سأله الملك:"أي شيء أحب إليك ؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب

عني الذي قد قذرني الناس، فمسحه فذهب عنه قذره"(١)، فإن دخول"قد" على الفعل الماضي في قوله: "ويذهب عني الذي قد قذرني الناس" يفيد تحقق مضمون الخبر، ووقوعه على وجه الجزم واليقين، وأن الناس قد تجنبوا مخالطته، واستقذروا شكله وهيئته، وهذا ما يشهد به الواقع؛ فإن الناس في حقيقة الأمر، وواقع الحال ينفرون من هذه الأمراض المعدية ويستقذورنها.

ولا يخفى ما يتوارى من وراء التعبير بهذا الحرف ودخوله على الفعل الماضي، وكونه من مادة القذر خاصة من نفس محطمة، وقلب معني قد آلمه موقف الناس، واستقذارهم إياه بما ابتلي به من مرض.

ومن ذلك –أيضًا– قوله ﷺ في القصة ذاتها، على لسان الملك حين أتى الأبرص يسأله المعونة:"ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك"، وكذا قوله ﷺ على لسان الأعمى لما قال له الملك:"أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله إلى بصري، فخذ ما شئت ودع ما شئت"، وقوله ﷺ على لسان الملك في جواب كلام الأعمى السابق: "أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك"، فإن "قد" إنما دخلت على الفعل الماضي في قول الملك أولًا: "قد انقطعت بي الحبال في سفري"؛ لتأكيد شدة حاجته، وتقرير عظم فاقته بحسب الظاهر، وتحقيق استنفاذه كل الوسائل والأسباب قبل أن يلجأ إلى مسألته، ويطرق بابه يطلب منه الفضل مما آتاه الله؛ ليكون ذلك أبلغ في إعذاره، وأقوى وأدخل في إقامة الحجة عليه فيما يصير إليه بعد ذلك.

---

(١) البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص، وأعمى وأقرع في بني إسرائيل /حديث ٣٤٦٤صـ٤٥٥، ومسلم في كتاب الزهد والرقاق/ حديث رقم ٢٩٦٤صـ٨٤١.

وهي في قول الأعمى: "قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري" للمبالغة في التسليم بقول الملك له: "أسألك بالذي رد عليك بصرك" والتأكيد عليه، والإقرار –في الوقت ذاته– بعظيم فضل الله عليه، والاعتراف بسابغ نعمته لديه.

ثم إن في تأكيد الجملة على هذا النحو السابق دلالة على صحة مزاج الأعمى، وسلامة فطرته، دون صاحبيه الأبرص والأقرع؛ وذلك لأن الأبرص مرض يحصل من فساد المزاج، وخلل الطبيعة، وكذلك القرع، بخلاف العمى، فإنه لا يستلزم ذلك، بل قد يكون من أمر خارج، فلهذا حسنت طباع الأعمى، وساءت طباع الآخرين(١).

وهي في قول الملك أخيرًا: "فقد رضي الله عنك"؛ لتأكيد مضمون الجملة وتحقيقه، وأن الابتلاء قد تمخض عن حقيقة ثابتة، وأمر واقع لا تشوبه أدنى شائبة، ولا تحوم حولة شبهة من شك أو تردد، وهو أن الله قد رضي عن الأعمى وسخط على صاحبيه.

ومن ذلك –أيضًا– قوله ﷺ في قصة لطم موسى عليه السلام ملك الموت: "فرجع ملك الموت إلى الله تعالى، فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقأ عيني"(٢) فإن دخول "قد" على الفعل الماضي في قوله:"وقد فقأ عيني" لتحقيق مضمون الخبر وتأكيده إنما هو بحسب الظاهر، وإلا فإن المخاطب بذلك هو رب العزة –سبحانه– وهو أعلم بما بدر من موسى عليه السلام وما أصاب ملك الموت منه.

وإنما أخرج الكلام هذا المخرج للدلالة على شدة قناعة ملك الموت بما أخبر به من أن موسى عليه السلام لا يريد الموت، وقد أراد أن يفرغه مقررًا مؤكدً

---

(١) ينظر فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٢٦٥/١.

(٢) سبق تخريج هذا الحديث.

كما أحسه هو واقتنع به، بقرينة وقوع هذه الجملة موطن الشاهد في موقع الحال من ضمير موسى عليه السلام وكأن ملك الموت يسوقها مساق الدليل والبرهان على ما أخبر به من صفة موسى عليه السلام.

وفي إخراج الكلام هذا المخرج –أيضًا– إعراب عن بالغ أسى ملك الموت، وشدة أسفه على ما حصل من موسى عليه السلام تجاهه.

وكذلك قوله ﷺ في قصة بغي بني إسرائيل التي سقت كلبًا:"بينما كلب يطيف بركية، قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل..."(١) الحديث. فجملة "قد كاد يقتله العطش" أكدت بـ"قد" والفعل الماضي "كاد" للمبالغة في الدلالة على سوء حال الكلب، والتأكيد على أنه قد أشرف على الموت من شدة العطش، وهو ما حرك مشاعر الإنسانية، ونوازع الرحمة في قلب البغي فرقت له، فنزعت موقها فاستقت له، فغفر الله لها بذلك.

وقوله ﷺ في قصة بلاء أيوب:"... فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وأوحى إلى أيوب في مكانه أن " اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب" فاستبطأته فلقيته ينتظر، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان"(٢).

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه فإن في إحدى= =جناحيه داء، وفى الأخرى شفاء، حديث رقم ٣٣٢١صـ٤٣١، ومسلم في كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها، حديث رقم ٤٢٤٥صـ٦٥٤، واللفظ لمسلم.

(٢)الحديث سبق تخريجه.

فإن دخول "قد" على الفعل الماضي "أذهب" في جملة: "قد أذهب الله ما به من البلاء" التي وقعت موقع الحال؛ لتأكيد برئه، وتحقيق شفائه، وإزالة كافة ما يتعلق بذلك من أسباب الغرابة؛ فإن إذهاب ما به من البلاء على هذا النحو المفاجئ، ومن دون مقدمات مما يثير الدهشة، ويدعو إلى الاستغراب؛ لجريانه على غير المعهود من تحقق الشفاء شيئًا فشيئًا، وحصوله على غير توقع، فاقتضى المقام تأكيد الكلام؛ لإزالة الشبهة، ومحو الشك، وإيناس النفوس به.

وقرينة هذا من عدم تعرف زوجه عليه؛ بدلالة سياق الكلام من قوله ﷺ حكاية عنها حين سألت أيوب عليه السلام عن نفسه: "قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ ووالله على ذلك ما رأيت أحدًا أشبه به منك إذ كان صحيحًا".

وأمثلة انفراد "قد" بالتقرير والتوكيد، وعدم اقترانها بغيرها من الوسائل الأخرى أكثر من أن تحصى ، وقلما تخلو منها قصة من القصص، وفيما ذكرته هنا دلالة وبرهان على ما لم أذكره، والله المستعان، والموفق للصواب.

الصورة الثالثة
التوكيد بنون التوكيد المتصلة بآخر الفعل

قلَّ دوران هذا النوع من الحروف المؤكدة في القصص النبوي عن بني إسرائيل؛ ولعل هذا لارتباطه في الغالب بفعل الاستقبال، أمرًا كان أم مضارعًا[(١)]، وتعلق هذا القصص بمواقف وأحداث وقعت في الزمان الماضي، وقد ذكر العلماء أن السبب في إفادتها التوكيد يرجع إلى أنها بمنزلة تكرير الفعل ثلاث مرات، إذا كانت ثقيلة، ومرتين إذا كانت خفيفة[(٢)].

وقد عاودت كثيرًا من القصص النبوي عن بني إسرائيل بالتأمل مرة بعد مرة، فلم أقف فيه إلا على عدة مواضع لهذه الوسيلة التوكيدية، لعل أبرزها وأظهرها ما جاء في قصة الرجل الذي وصى أولاده أن يحرقوه بعد موته من قوله ﷺ "كان رجل يسرف على نفسه[(٣)] لما حضره الموت قال لنبيه: إذا أنا مت فاحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني[(٤)] في الريح فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابًا ما أعذبه أحدًا..."[(٥)] الحديث. فقد اتصلت النون بآخر الفعل المضارع "ليعذبني" الواقع في جواب القسم؛ لتوكيد مضمون الخبر وتقريره،

---

(١)ينظر الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي صـ١٤٢.

(٢) ينظر الكليات للكفوي صـ٢٦٩، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون تاريخ

(٣) يسرف على نفسه معناه: بالغ وعلا في المعاصي، والسرف مجاوزة الحد. ينظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ٧٢.

(٤) يقال: أذرت الريح الشيء، إذا فرقته بهبوها. ينظر فتح الباري ٦ / ٥٢٢.

(٥) في رواية البخاري: "أن رجلًا كان قبلكم رغسه الله مالًا " وهذه الرواية هي قرينة عدها من القصص النبوي عن بني إسرائيل، ويؤيد هذا أن البخاري ذكره في كتاب أحاديث الأنبياء-باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم ٣٤٧٨ صـ٤٥٨.

وهو أن الله سوف يعذبه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين، وأن ليس ثمت عنده أدنى شائبة من شك أو تردد في تحققه؛ لإسرافه على نفسه في المعصية، وخلوه من أعمال الخير والبر.

ثم إن المقام مقام إنكار ورفض؛ بدلالة قرينة الحال؛ وذلك -أولًا- من تهديد الرجل أبناءه إن لم يعطوه مواثيقهم بفعل ما طلب منهم أن يجعل ميراثه في غيرهم، وبهذا جاءت الرواية في صحيح مسلم: "لتفعلن ما آمركم به أو لأولين ميراثي غيركم "[1].

وثانيًا: فإن ما طلب الرجل من أولاده من حرقه بعد موته، ثم طحنه وتذريته الريح مما يثير الدهشة، ويدعو إلى الاستغراب، ويجابه بالرفض وعدم القبول، لجريانه على خلاف المعهود، لا سيما وأنه وقع في أمة مسلمة موحدة، تؤمن بالله واليوم الآخر، وهي أمة بني إسرائيل، فكان في تأكيد الكلام على هذا النحو السابق نوع من تأنيس النفوس بهذا الطلب الغريب، ودفع ما قد يتبادر إليه من إنكار واعتراض، وإزالة ما يحوم حوله من شبهات.

وبدلالة قرينة السياق، وذلك من وقوع الجملة نفسها في موضع العلة والدليل المصحح لهذا الطلب الغريب، المقتضي له في منطقه المستقيم؛ بقرينة الفاء في أول الجملة.

ومن تأكيد الجملة نفسها بعدة مؤكدات، كالقسم في قوله: "فوالله" واللام الموطئة الداخلة على "إن" الشرطية في قوله: لئن قدر الله علي "وكذا اللام الداخلة في الجواب: "ليعذبني عذابًا ما أعذبه أحدًا "[2].

---

(١) ينظر صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه، حديث رقم ٢٧٥٧ صـ٧٨٤.

(٢) وهذه الجملة: "فوالله لئن قدر الله علي..." ذكر العلماء أنها لم تصدر عن الرجل على سبيل إنكار البعث،= =ولاجحدًا لقدرة الله تعالى، وإنما قالها في حال دهشته وغلبة الخوف عليه، حتى ذهب تعقله لما يقول، فلم يقلها قاصدًا لحقيقة معناها، بل في حالة كان فيها كالغافل والذاهل والناسي الذي لا يؤاخذ بما يصدر عنه، وإلا لما غفر له. ينظر فتح الباري ٦/ ٥٢٢ – ٥٢٣

ومن أبرز هذه المواضع -أيضًا- قوله ﷺ في قصة المتكلمين في المهد، وفي قصة جريح منها خاصة، وذلك على لسان المرأة البغي: "فتذاكر بنو إسرائيل جريحًا وعبادته، وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها[1] فقالت: إن شئتم لأفتتنه، فتعرضت له فلم يلتفت إليها"[2] فإن اتصال نون التوكيد المثقلة بالفعل المضارع "لأفتننه" الواقع في جواب "إن" الشرطية الجازمة خرج مخرج المبالغة في التأكيد على قدرتها على فتنة جريح، والإعلان عن غاية ثقتها بنفسها فيما تصبو إليه من إيقاعه في حبالها، فعندها من المغريات والمثيرات ما يمكنها من ذلك، ودليل هذا ما جاء في سياق الحديث من أن الناس كانوا يضربون بها المثل في الحسن والجمال: "وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها"، وتقرير أنها جادة في الأمر، عازمة عليه، ماضية فيه؛ لما علمه الناس من

(١) البغي هي المرأة الفاجرة العاهرة حرة كانت أو أمة، يقال: بغت المرأة بغاءً، إذا فجرت، وذلك لتجاوزها إلى ما ليس لها، وقوله:"يتمثل بحسنها" أي يضرب بها المثل في الحسن؛ لانفرادها به-، ينظر المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الطبعة الأولى،١٤١٢ه-دار القلم – الدار الشامية، بيروت-دمشق، بغي صـ١٣٧، وشرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ١٠٦، ولسان العرب لابن منظور-بغى-١/٣٢٢.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: " واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها" حديث رقم ٣٤٣٦ صـ٤٥٢، وفي كتاب المظالم باب إذا هدم حائطًا فليبن مثله، حديث رقم٢٤٨٢ صـ٣١٩، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب-باب تقديم بر الوالدين على التطوع في الصلاة حديث رقم ٢٥٥٠ صـ٧٣٣، وأول الحديث: "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى بن مريم، وصاحب جريح، وكان جريح رجلًا عابدًا... " الحديث واللفظ لمسلم.

حال جريح في العفة والورع، والعبادة والتقى، بدلالة سياق الكلام من قوله: "فتذاكر بنو إسرائيل جريحًا وعبادته"، فكأنها أرادت بكل هذا أن تدفع إنكار من يستبعد قدرتها على فتنة هذا الرجل العابد.

ومن أبرز مواضع التوكيد بهذا الحرف -أيضًا- قول النبي ﷺ في قصة موت نبي الله داود عليه السلام: "كان داود النبي فيه غيرة شديدة، وكان إذا خرج أغلقت الأبواب...، قال: فخرج ذات يوم، وغلقت الدار، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل الدار، والدار مغلقة؟ والله لتفتضحن[1] بداود"[2] وقوله ﷺ في قصة طواف نبي الله سليمان على مائة امرأة: "قال سليمان بن داود: لأطوفن[3] الليلة على مائة امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله"[4].

---

(١) لتفتضحن: مأخوذ من الفضيحة، وهي اسم لكل أمر سيء يشهر صاحبه بما يسوء، لسان العرب، فضح ٣٤٢٦/٥.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٩٤٣٢، جـ١٥/ صـ٢٥٤، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد، باب ذكر نبي الله داود ﷺ، حديث رقم ١٣٧٩٦،٨/ـ٢٠٦، ٢٠٧، وهو في البداية والنهاية لابن كثير، ٢٠/٢، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م، دار هجر للطباعة والنشر.

(٣) لأطوفن: طاف بالشيء وأطاف به، إذا دار حوله، وتكرر عليه، فهو طائف ومطيف، وهو هنا كناية عن الجماع. ينظر فتح الباري لابن حجر، ٤٦٠/٦.

(٤) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب من طلب الولد للجهاد، حديث رقم ٢٨١٩ صـ٣٦٨، وفي كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: "ووهبنا لداود سليمان نعم العبد" حديث ٣٤٢٤ صـ٤٠٥، وفي كتاب التوحيد، باب المشيئة والإرادة: "وما تشاءون إلا أن يشاء الله" حديث ٧٤٦٩ صـ٩٥٣، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الاستثناء، حديث ١٦٥٤ صـ٤٨٠-٤٨١.

فإن توكيد زوج نبي الله داود عليه السلام كلامها بالقسم، واللام الموطئة، والنون الثقيلة المتصلة بالفعل المضارع في قولها: "والله لتفضحن بداود" ليس من إنكار منكر، ولا من تردد شاك؛ لما كان معلومًا للجميع من حاله، وشدة غيرته، لكنها نزلتهم منزلة من ينكر ذلك ويدفعه؛ للمبالغة في الدلالة على شدة تهاونهم في الأمر، وتفريطهم في الحراسة، وتقرير عدم قيامهم بما يجب عليهم من منع هذا الرجل من دخول الدار، والحيلولة بينه وبين ذلك بحسب ظنها، وفيه دلالة على شدة غضبها، وبالغ سخطها.

ويمكن أن يكون الغرض من توكيد كلامها هو الدلالة على شدة قناعتها بما أخبرت به، والإيذان بأن هذا الأمر قد وقر بداخلها، واستقر في نفسها؛ لما علم من حاله عليه السلام وشدة غيرته، فأرادت أن تفرغ عليه من قناعتها، ليحسه السامع مقررًا مؤكدًا، كما أحسته هي، وفي هذا نداء على عظم الأمر، وشدة الخطب، وغاية اللوم.

وأما التوكيد بالنون المتصلة بالفعل المضارع، وكذلك اللام الموطئة الداخلة عليه في قوله ﷺ حكاية عن نبي الله سليمان: "لأطوفن الليلة على مائة امرأة" فللمبالغة في تقرير مضمون ما أخبر به وتحقيقه، وتشديده وتوثيقه، وبخاصة إذا كان مما تستعظمه النفوس، وتستبعده العقول، لا سيما وأن الأمر ليس قاصرًا على الطواف فحسب، بل تعداه إلى أن تأتي كل واحدة من النسوة المطوف بهن بفارس يجاهد في سبيل الله، فكان مظنة الإنكار والاستبعاد، فجاء الكلام مؤكدًا بكل هذه الوسائل؛ لدفع ما عساه أن يجابه به من ذلك، وإزالة ما يتعلق به من أسباب الغرابة.

وقرينة هذا من سياق الكلام، وذلك في قول صاحبه له وهو الملك كما جاء في بعض الروايات[1]، قل: "إن شاء الله".

ومن هذه المواضع –أيضًا– قوله ﷺ في نهاية حديثه حين جاءه الخباب بن الأرت شاكيًا ما نزل به من إيذاء وعذاب بعد أن ذكر النبي ﷺ طرفًا من قصص ثبات السابقين ممن كانوا قبلنا: "والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون"[2] حيث اتصلت النون واللام الموطئة بالفعل(ليتمن) في جواب القسم(والله)؛ وذلك للمبالغة في تقرير المعنى وتوكيده، والدلالة على تحقق المخبر به وثبوته، وأنه مما لا تحوم حوله شبهة، ولا يختلجه شك.

على أن حال الضيق بسبب شدة العذاب والأذى الذي صبه المشركون على خباب مما تقتضي تأكيد الكلام وإخراجه هذا المخرج، وذلك تثبيتًا له في هذا المقام، وبثًا للثقة والطمأنينة في نفسه، وتطييبًا لقلبه، ورفعًا للمعاناة عن كاهله.

ومن جانب آخر فإن في إخراج الكلام هذا المخرج من اجتماع كل هذه المؤكدات دلالة –في هذا الموقف المشحون بالضيق والألم– على كمال ثقة

---

(١) ينظر فتح الباري لابن حجر، ٤٦١/٦، وقيل: قرينه من الجن، وقيل: لا بل صاحب له آدمي. ينظر شرح النووي على صحيح مسلم، ١٢٠/١١.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم٣٦١٢، صـ٨٨٨–٨٨٩، وكتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، حديث رقم٦٩٤٣، صـ١٧١٩، وأحمد في مسنده، حديث رقم٢١٠٧٣، ٥٥١/٣٤، وحديث رقم٤٥،١٩١/٢٧٢١٧، وأبو داود في كتاب الجهاد، باب الأسير يكره على الكفر، حديث رقم٤،٢٨٦/٢٦٤٩، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، بدون تاريخ، وأول الحديث: "كان الرجل قبلكم يؤخذ، فيحفر له في الأرض".

النبي ﷺ بربه، واطمئنانه إلى تحقق موعوده ونصره.

ومما تجدر الإشارة إليه أن نون التوكيد الثقيلة المتصلة بآخر الفعل تقترن في كل سياقاتها من القصص النبوي عن بني إسرائيل إما مع اللام الموطئة للقسم بقلة، وإما مع القسم واللام الموطئة له بكثرة، وذلك لتتناغم دلالات الخصوصيات في بناء الكلام وتركيبه، وتتعانق على تصوير المعنى وتقريره، وتحقيقه وتشديده.

الصورة الرابعة
التوكيد بالباء الزائدة

ذكر النحويون أن الباء الزائدة تدخل في عدة أنماط تعبيرية كلها تفيد التوكيد وذلك لأن الغرض من استعمالها إنما هو الإيجاز والاختصار والاكتفاء عن الأفعال وفاعليها فإذا زيد ما هذه سبيله فهو تناه في التوكيد[1]، غير أن الثابت منها في القصص النبوي عن بني إسرائيل هو ثلاثة أنماط فقط، وهذا الحكم وليد استقراء أكثر هذا النوع من القصص في البيان النبوي، ومعاودته مرة بعد أخرى؛ فقد دخلت الباء الزائدة في الخبر المنفي، ودخلت في فاعل(كفى)، ودخلت في المفعول به، وذلك في مواضع عدة لم يتجاوز العد بها عشرًا، وهذا يجعلنا نقرر في طمأنينة تامة، ونؤكد على قلة دوران هذه الوسيلة التقريرية في القصص النبوي عامة، وفي قصص بني إسرائيل خاصة.

فقد دخلت الباء الزائدة في الخبر المنفي في موضعين اثنين، جاء أولها في قصة أصحاب الأخدود، حين وقف الغلام أمام الملك متحديًا إياه بعدم قدرته على قتله إلا إذا فعل ما يأمره الغلام به، وذلك في قوله: "إنك لست بقاتلي، حتى تفعل ما آمرك به..."[2]

وجاء ثانيهما في قصة الملك الذي فر من الحكم حين ركض في إثره صاحب المملكة الأخرى التي كان الأول قد انساب إليها، فناداه قائلًا: "إنه ليس عليك مني بأس، فأقام حتى أدركه، فقال له: من أنت؟ رحمك الله! قال: أنا فلان بن فلان صاحب ملك كذا وكذا، تفكرت في أمري، فعلمت أن ما أنا فيه

---

(١) ينظر الخصائص لابن جني٢/٢٨٤، تحقيق/ محمد علي النجار–الهيئة العامة لقصور الثقافة–القاهرة–٢٠٠٦م.

(٢) سبق تخريج هذا الحديث.

منقطع، فإنه قد شغلني عن عبادة ربي، فتركته وجئت ههنا أعبد ربي عز وجل، فقال: -أي الملك- ما أنت بأحوج إلي ما صنعنت منى، قال: ثم نزل عن دابته فسيبها[1] ثم تبعه، فكانا جميعًا يعبدان الله عز وجل..."[2] الحديث.

ودخول الباء في خبر "ليس" في قوله: "إنك لست بقاتلي" في قصة أصحاب الأخدود مما يقتضيه -إلى جانب التوكيد بـ"إن "- مقام تحدي الملك، ومطاولته، وإظهار شدة ضعفه، وتصوير غاية عجزه، وهوان أمره، وحقارة شأنه؛ لما فيه من المبالغة في تقرير عدم قدرة الملك على قتل الغلام وتوكيده، وتحقيقه وتشديده؛ لدلالته على ثقة الغلام بربه، وإدلائه بقوة موقفه، وشدة ركنه، وندائه على ظهور حجته، وسطوع برهانه، وهذا ينفي نفيًا مؤكدًا ادعاء الملك الربوبية، وافتراءه الألوهية؛ إذ كيف يعجز الرب عن قتل غلام صغير لا يمتلك من وسائل وأسباب القوة والمنعة ما يدرأ به عن نفسه، في الوقت الذي يمتلك فيه هذا الطاغية كل الوسائل والأسباب التي تمكنه من ذلك، إن هذا قدح في ربوبيته، وسخرية من ألوهيته.

إن دخول الباء في خبر "ليس" إلى جانب "إن" هو الذي يعلن في هذا المقام عن عزة الحق وشموخه في مواجهة الباطل وصلفه، فهو غير هياب ولا مضطرب، ولا متلعثم، وإنما يواجه في إباء واستعلاء وقوة واقتدار، معلنًا في تحد واضح عجز الباطل وزيفه، وأنه بلغ في الحقارة والضعف حدًا متناهيًا، بحيث لا يمكن أن يواجه غلامًا صغيرًا، وهذا لا شك يعمل عمله في تثبيت

---

(١) فسيبها: يقال سيب الناقة أو الشيء، تركه يسيب، أي يذهب ويجيء حيث شاء. ينظر لسان العرب-سيب ٣/٢١٦٦.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

المؤمنين على الحق، والربط على قلوبهم في هذا الطريق الشاق الطويل، وبث عوامل الثقة والطمأنينة في تحقيق موعود الله لهم بالنصر، وهذا هو الغرض من سوق القصة أصلًا، والغاية والهدف منها(١).

وأما دخول الباء في خبر "ما" النافية في قصة الملك الذي فر من الحكم، في قوله ﷺ: "ما أنت بأحوج إلى ما صنعت مني"؛ فلتقرير شدة حاجته، وتأكيد قوة رغبته، وعظيم افتقاره إلى أن يصنع ما صنع الملك الذي فر أولًا، وهذا كله مما يقتضيه مقام تأنيس صاحبه الذي فر منه؛ لما فيه من زيادة بث الثقة والطمأنينة في نفسه، وأنه على دربه في طريق الاقتداء به.

كما يقتضيه –من وجه آخر– مقام تثبيت الملك الطالب نفسه على طريق تخليه هو الآخر عن الملك، وتفرغه مع صاحبه للعبادة؛ لما في إفراغ الكلام في هذا القالب من حسم مادة التردد، وقطع للأمر على وجه الجزم، حتى لا يتسرب الوهن والضعف إلى نفسه، وحتى لا يتلبس بالندم والحسرة عما تخلى عنه، أو عما أقدم عليه؛ فإن التنازل عن الملك على هذا النحو الذي قصه الحديث مما يفت في العضد، ويعظم وقعه على النفس، ومما لا يكاد يتصور بحال.

أما دخول الباء الزائدة في فاعل "كفى" فقد جاء في موضعين مكررين من قصة الرجل الذي تسلف رجلًا ألف دينار، حين سأله الدائن عن الشهداء في قوله: "ائتني بالشهداء أشهدهم" فقال المدين: كفى بالله شهيدًا "وحين سأله عن الكفيل في قوله: "فائتني بالكفيل"، فقال: "كفى بالله وكيلًا"، قال: صدقت(٢).

---

(١) ينظر تفسير الكشاف للزمخشري ٤/ ٧٣٠–الطبعة الثالثة ١٩٨٧م–دار الريان للتراث–القاهرة.

(٢) البخاري في كتاب الزكاة، باب ما يستخرج من البحر، حديث ١٤٩٨ ص٢٠٣، وأحمد في مسنده، حديث رقم ٨٥٨٧، ١٤/ ٢٤٦.

وقد تكررت الجملتان موضع الشاهد في القصة نفسها على لسان المدين، حين رفع يديه إلى السماء معتذرًا إلى الله من عدم قدرته على الذهاب إلى صاحب الدين للسداد في الموعد المحدد؛ بسبب عدم وجود السفينة التي تحمله إليه حين قال: "اللهم إنك تعلم أني تسلفت فلانًا ألف دينار؛ فسألني كفيلًا، فقلت: كفى بالله وكيلًا، فرضي بك، وسألني شهيدًا فقلت: كفى بالله شهيدًا، فرضي بك"(١) وإنما دخلت الفاء في فاعل "كفى" وهو لفظ الجلالة في المواضع المذكورة؛ لتحقيق كفايته تعالى وكيلًا، وتحقيق كفايته تعالى شهيدًا، وتأكيد ذلك كله وتقريره، ودليل هذا ما ذكره العلماء من أن الفعل الماضي "كفى" وضع موضع الطلب؛ إذ الغرض من دخول الباء في الفاعل على ما ذهب إليه الزجاج هو تضمين "كفى" معنى "اكتف"(٢) واستحسن ابن هشام كلام الزجاج، واستدل له بقولهم: "اتقى الله امرؤ فعل خيرًا يثب عليه" أي: ليتق وليفعل؛ بدليل جزم "يثب"(٣) وهذا إشعار بصدق نية المتسلف، وحسن مراقبته لله، ودلالة على ثقته بربه، وحسن توكله عليه.

وأما دخول الباء في المفعول به فقد جاء في موضعين اثنين هو الآخر، أولهما من قصة الحجر الذي فر بثوب موسى عليه السلام في قوله: والله إنه بالحجر ندب، ستة، أو سبعة؛ ضرب موسى عليه السلام بالحجر(٤).

---

(١) ينظر نفس المرجعين السابقين.، الأول ص ٢٩٣، والثاني، ١٤/ ٢٤٦، ٢٤٧.

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج، ٤/ ٢١٣، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، الطبعة الأولى ١٩٨٨م،عالم الكتب، بيروت.

(٣) ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ١٠٦/١.

(٤) الندب: الأثر، والمراد به: آثار ناتجة عن ضرب الحجر. ينظر شرح النووي على صحيح مسلم١٢٦/١٥، ١٢٧.

وثانيهما من قصة يونس عليه السلام وذلك على لسان الغلام الذي أدعى أنه رأى يونس عليه السلام حين طلب منه القوم إقامة البينة على هذه الرؤية وإلا قتلوه، كما يقتضيه جزاء من يكذب عندهم:- "قال: إني لقيت يونس، وهو يقرأ عليكم السلام، فأمر به الملك أن يقتل، فقال: إن له بينة، فأرسل معه، فانتهوا إلى الشجرة والبقعة، فقال لهما الغلام: نشدتكما بالله، هل أشهدكما يونس؟ قالتا: نعم، فرجع القوم مذعورين، يقولون: تشهد لك الشجرة والأرض..."[1] الحديث.

فإن دخول الباء في المفعول به من قوله في القصة الأولى: "ضرب موسى -عليه السلام- بالحجر" أي: ضربه الحجر، فزيدت الباء في المفعول به للمبالغة في الدلالة على قوة الضرب، وشدته، وعنفوانه وقسوته، كأن الحجر نفسه صار آلة الضرب ووسيلته.

ودليل هذا من سياق الكلام من قوله: "والله إنه بالحجر ندب ستة أو سبعة؛ فإن تأثير العصاة في الحجر الصلد على هذا النحو المذكور في الحديث، حتى صار به خطوطًا ستة أو سبعة يؤكد هذا التحليل ويقرره، وهذا يكشف من وجه آخر عن شدة غضب موسى عليه السلام على الحجر الذي فر بثوبه، وينادي على بالغ حنقه وسخطه عليه، وهذا من شدة حيائه، وعظيم تستره.

ويحتمل أن يكون ضرب موسى عليه السلام الحجر إنما كان بوحي من الله -

(١) الحديث أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب فضائل يونس، حديث رقم٣١٨٦٦، ٣٣٨/٦، تحقيق: كامل يوسف الحوت، الطبعة الأولى١٤٠٩ه، مكتبة الرشد، الرياض، ونقل الحافظ ابن حجر في فتح الباري مقطعًا منه، ٤٥١/٦، ٤٥٢، وعزاه السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور إلى أحمد في الزهد ٧/ ١٢٣، دار الفكر، بدون تاريخ، بيروت.

تعالى-؛ لإظهار المعجزة؛ بأثر الضرب في الحجر[1].

وأما دخول الباء على المفعول في قوله من قصة يونس عليه السلام "نشدتكما بالله" فهو الذي يقتضيه مقام الحرص على تحقق المطلوب وهو الشهادة؛ لأنه الأبلغ في الطلب، الأقوى في تصوير شدة الرجاء وتعاظم الرغبة؛ لدلالته -أولًا- على تضمن النشدان معنى الحلف واليمين[2] وهذا فيه من تقرير مضمون الجملة وتوكيده ما لا يخفى.

ولتعلقه -ثانيًا- بالمطلوب وهو الشهادة، وشدة التصاقه به، وما يترتب عليه من حياة أو موت.

(١) ينظر شرح النووي على صحيح مسلم، ٤/ ٣٣.

(٢) ينظر المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، ٨/ ٢٩، تحقيق: د/عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.

الصورة الخامسة
التوكيد بلام الابتداء

التوكيد بلام الابتداء نادر الوقوع في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل؛ إذ لم أقف على شاهد له بعد تتبع واستقصاء إلا في موضع واحد، جاء في سياق قصة الحجر الذي فر بثوب موسى عليه السلام في قوله خاصة:- "وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه ثلاثًا، أو أربعًا، أو خمسًا، فذلك قوله: "يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا"[1] حيث دخلت اللام في "لندبًا" وهو اسم "إن" خاصة؛ لتوكيد مضمون الجملة وتقريره، وإنما كان ذلك كذلك؛ لأن دخول اللام في الكلام بمنزلة تكرير الجملة مرة واحدة[2].

والندب: هو أثر الجرح في الجسد، والمراد هنا: أثر العصا في الحجر[3] وتأثير العصا التي هي في الأصل من خشب في الحجر الصلد القاسي، وتركها به ندوبًا بعدد الضربات التي ضربها موسى إياه من العجب العجاب، ومما يثير الدهشة والاستغراب؛ إذ العادة جارية بعدم تأثير العصا في الحجارة؛ لأنها أقسى من العصا، وقد تنكسر العصاة إن ضربت بها حجرًا، ويسلم الحجر[4] ومن ثم كان دخول اللام في اسم "إن" إلى جانب القسم و"إن" في قوله في أول الجملة:- "فوالله إن" مما يقتضيه المقام؛ لتقرير مضمون الجملة وتوكيده،

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) ينظر الكليات للكفوي صـ٢٦٩.

(٣) ينظر شرح النووي على صحيح مسلم، ٤/ ٣٣.

(٤) ينظر صحيح القصص النبوي د/ عمر سليمان الأشقر صـ٩٤، الطبعة الأولى١٩٩٧م-دار النفائس-عمان-الأردن.

وإزالة كافة أوجه الغرابة والاستبعاد؛ نظرًا لجريانه على خلاف المعهود من صفات العصا والحجر، وذلك على النحو الذي سبق تفصيله، وذلك تطمينًا للقلوب، وتأنيسًا للنفوس، ودفعًا للشبهة التي قد تحوم حول هذا الخبر الغريب، ونفيًا للريب والشك الذي قد يتلبس به.

ومما تجدر الإشارة إليه، والتنبيه له أن هذه العصا ليست عادية، وإنما هي عصا من نوع مختلف؛ لأنها عصا موسى عليه السلام التي جعل الله بها من الخصائص، وأودع فيها من الأسرار ما ليس في غيرها، ومن ذلك أنها أثرت في الحجر، وأحدثت به ندوبًا بعدد الضربات التي اختلفت الروايات حول تحديدها[1] ولذلك جوز بعض العلماء أن يكون ضرب موسى عليه السلام الحجر بعصاه، إنما كان بوحي من الله – تعالى –؛ لإظهار المعجزة؛ بتأثير الضرب في الحجر[2].

(١) ينظر المرجع نفسه صـ٩٤.

(٢) ينظر شرح النووي على صحيح مسلم، ٤/ ٣٣.

الصورة السادسة
التوكيد بـ"كأن"

ذكر النحويون أن "كأن" تدور في الكلام على أربعة معانٍ، هي التقريب، والشك، والتحقيق من دون تشبيه، والتشبيه، كما ذكروا أن التشبيه هو المعنى الغالب فيها، وأنه الأكثر دورانًا في الكلام، بل إن أكثر البصريين لا يرى لها غير هذا المعنى، وتأولوا ما جاء على خلافه، وحملوه عليه(١).

ولست أرى تنافيًا بين أن تكون للتشبيه، وأن تكون للتحقيق، بل إن "كأن" لا تستعمل في التشبيه إلا حيث يقوى الشبه بين الطرفين، حتى لا يكاد الرائي أو السامع أن يشك في أن المشبه هو عين المشبه به ومن جنسه، وهذا يعني أنها تفيد قدرًا زائدًا من التقرير والتوكيد، والتحقيق والتشديد(٢) ولذلك ذهب ابن مالك إلى أنها للتشبيه المؤكد(٣).

وإنما أفادت "كأن" معنى التوكيد؛ نظرًا لتركبها من "إنَّ" المكسورة المشددة، ومن كاف التشبيه، فلما دخلت الكاف على "إن" بعد أن تحركت الكاف من موضعها فتحت همزة "إن" فصارت "كأن".

لكن الموضعين اللذين وقفت عليهما لهذه الوسيلة التقريرية في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل كان خبر "كأن" فيهما جملة فعلية، وقد ذهب

---

(١) ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ١/١٩١وما بعدها، والجنى الداني في حروف المعاني للمرادي صـ٥٧٠ وما بعدها.

(٢) ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر، صـ٢٢٩.

(٣) ينظر شرح التسهيل لابن مالك، تحقيق: د/عبد الرحمن السيد، د/محمد بدوي المختون، الطبعة الأولى، دار هجر، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، ٢/٦.

البلاغيون[1] إلى أن خبر "كأن" إذا كان جملة فعلية أو اسمًا مشتقًا كانت "كأن" للشك وهذا المعنى ينافي قضية البحث التي يعالجها، وإن تأول فريق من العلماء[2] ما خرج من خبر "كأن" هذا المخرج على التشبيه باعتبار معين، إلا أنني حين عاودت هذين الموضعين بالتأمل والنظر وجدت أن طبيعة المعنى واعتبارات السياق والمقام تأبى حمل " كأن " فيهما على الشك، وتنحو بها منحى التحقيق والتأكيد.

فالموضع الأول جاء في سياق قصة الأبرص والأقرع والأعمى، حين جاء الملك إلى الأبرص يطلب منه بعيرًا يتبلغ به في سفره؛ نظرًا لانقطاع الأسباب والحبال التي تحول بينه وبين بلوغ مقصده، وامتناع الأبرص، وتعلله بكثرة الحقوق، فقال له الملك: "كأني أعرفك ألم تك أبرص يقذرك الناس؟ فقيرًا فأعطاك الله؟[3] إذ لا يتأتى حمل "كأن" هنا على معنى الشك، بل حملها على التحقيق أوجب؛ لأنه الذي يتطابق مع مقام إرادة الابتلاء الذي كشف عنه مطلع القصة؛ لأنه الأوقع في الابتلاء، والأدخل فيه، ولولاه لم يكن للابتلاء معنى أصلًا.

كما أن سياق القصة ونسقها يوجب حمل المعنى على التحقيق؛ بدلالة الاستفهام التقريري "ألم تك أبرص يقذرك الناس" في إثر الجملة موطن الشاهد مباشرة، كأن المعنى "إني أعرفك، قد كنت أبرص يقذرك الناس" فالمعنى على تحقيق معرفة الملك به، وتأكيده إياها.

---

(١) ينظر شروح التلخيص، ٣/٣٨٥، ٣٨٦.

(٢) ينظر المرجع نفسه، ٣/٣٨٦.

(٣) يقذرك الناس: يشمأزون من رؤيتك. فتح الباري لابن حجر ٦/٥٠٢.

وبقرينة إنكار الأبرص معرفته بما ذكره الملك به أشد الإنكار من خلال القصر بـ"إنما" خاصة، في قوله:- "إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر".

وبدلالة حديث الابتلاء نفسه في أول القصة، ومجيء الملك إلى الأبرص، وسؤاله إياه عما يحب، فإنه يؤكد أنها للتحقيق والتأكيد، وليست للشك.

والموضع الثاني جاء في قصة الثلاثة المتكلمين في المهد، وبخاصة الطفل الذي كان يرتضع ثدي أمه، ومر عليهما جبار ذو مركب حسن، وشارة فارهة، فتمنت الأم أن يكون ولدها مثل هذا الجبار، وفيه، قال أبو هريرة: "فكأني أنظر إلي رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة في فيه، فجعل يمصها"(١) فإن "كأن" فيه؛ لتحقيق نظره إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاع الصبي بأصبعه... وتأكيده، بدلالة قرائن السياق من تقديم المسند إليه على خبره الفعلي في جملة "وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه" لتقرير الحكم وتوكيده، ومن إيثار صيغة المضارع: "أنظر- يحكي- يمصها" التي تفيد استحضار الصورة، ووضعها نصب العين حتى كأن السامع يرى ويشاهد، وهذا لا يكون إلا على حمل "كأن" على معنى التحقيق والتأكيد.

وبدلالة مقتضى الحال؛ فإن حملها على معنى التحقيق هو الذي يتطابق مع مقتضى حال الصحابي الجليل أبي هريرة في الضبط والإتقان، وشدة الحفظ، ويصور مدى إجلال الصحابة لرسول الله ﷺ.

وإنما أوثرت "كأن" في الموضع الأول دون غيرها؛ لدلالتها -إلى جانب ما سبق بمعونة السياق وطبيعة الموقف- على شدة استنكار الملك رد الأبرص

---

(١) البخاري، كتاب العمل في الصلاة، باب إذا دعت الأم ولدها في الصلاة حديث١٢٠٦ صـ١٦٦، ومسلم في= =كتاب البر والصلة والآداب، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها، حديث ٢٥٥٠ صـ٧٣٣.

عليه، ورفضه إعطاءه ما يتبلغ به في سفره.

وأوثرت في الموضع الثاني لدلالتها -بمعونة السياق وقرائن الحال- على تعجب ظاهر، واستغراب بالغ تملك على الصحابي الجليل أبي هريرة وجدانه؛ وذلك من حكاية النبي ﷺ وتصويره ارتضاع الصبي من خلال هذه الحركة الجسمانية الماثلة في وضع أصبعه السبابة في فيه، ومصه إياها، وهذا -أيضًا- يعضض كونها للتحقيق المؤول على التشبيه ويرجحه، والله أعلم.

الصورة السابعة
التوكيد بـ"ألا" الاستفتاحية

ذكر النحويون أن "ألا" الاستفتاحية تدخل على الجمل فتدل على تحقق ما بعدها، وقد استدلوا على ذلك بأنها لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم(١).

كما عللوا لإفادتها هذا المعنى بتركبها من الهمزة و "لا"، وقد ذكروا أن الهمزة إذا دخلت على النفي أفادت معنى التحقيق(٢).

واستعمال "ألا" في معنى التقرير والتوكيد في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل نادر الوقوع جدًا، إذ لم أقف له إلا على موضع واحد، جاء في سياق قصة العالم الذي احتال للخلاص، حين أراده الضالون من قومه أن يعتمد كتابًا بديلًا عن الكتاب المنزل من عند الله، فأوهمهم أنه رضي بذلك، بينما كان يشير إلى كتاب الله الذي علقه على عنقه في صدره، وتحت ثيابه(٣)، وفيه:- "وكان له أصحاب يغشونه، فلما حضرته الوفاة أتوه، فلما نزعوا ثيابه وجدوا القرن(٤) في جوفه الكتاب؛ فقالوا: ألا ترون إلى قوله: آمنت بهذا، ومالي لا أؤمن بهذا؟ فإنما عني بـ"هذا" هذا الكتاب الذي في القرن، فاختلف بنو إسرائيل على بضع وسبعين فرقة، خير مللهم أصحاب أبي القرن"(٥) فإن

---

(١) ينظر مغني اللبيب لابن هشام ٦٨/١.

(٢) ينظر المرجع نفسه ٦٨/١، كما ينظر كتاب الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، د/عز الدين علي السيد، صـ١١٩، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، دار اقرأ، بيروت.

(٣) ينظر صحيح القصص النبوي د/ عمر سليمان الأشقر صـ٢٨٥.

(٤) القرن: هو الجعبة من جلود تكون مشقوقة ثم تخرز. اللسان – قرن، ٥/ ٣٦١٢.

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم ٧١٨٣، ١٠/ ٧١، تحقيق: د/عبد العلي عبد الحميد حامد، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م، مكتبة الرشد، الرياض، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث رقم ٢٦٩٤، ٤٣٦/٦.

المعنى: قد رأيتم إلى قوله: "آمنت بهذا، ومالي لا أؤمن بهذا؟" وذلك على التحقيق والتثبيت، والتقرير والتأكيد؛ بدلالة قرينة الموقف، وطبيعة الحال؛ فإن المقام مقام شهود وحضور، ورؤية وعلم، فهاهم حوله، ينزعون ثيابه؛ ليجهزوه للدفن.

وبدلالة قرينة السياق من إيثار فعل الرؤية المضارع: "ألا ترون إلى هذا"؛ لاستحضار المشهد، ووضعه نصب العين، دون فعل الاستماع؛ إذ الأصل: ألا تستمعون إلى قوله: آمنت بهذا، وما لي لا أومن بهذا؟ بدلالة تعدية الفعل باللام، فإن فعل الرؤية مما يعدى بنفسه.

ومن إيثار القصر من طريق "إنما" خاصة، في قوله: "فإنما عني بـ"هذا" هذا الكتاب الذي في القرن" فإنه يعضد كون المعنى على التحقيق والتثبيت، ويشد من أزره، والله أعلم.

تلك هي أبرز وسائل التوكيد الحرفية التي اتكأ عليها البيان النبوي في تقرير معانيه وأغراضه، وتحقيق غاياته وأهدافه، وهناك وسائل أخرى يمكن أن تضاف إلى الوسائل السابقة، وهي لا تقل عنها في إفادة هذه الغاية، وذلك كدخول "من" على النكرة في سياق النفي، فتفيد عموم النفي وشموله كل أفراد النكرة وأنواعها واحدًا واحدًا، وهذا تأكيد للكلام فوق تأكيد؛ لأنه بمثابة تكرير الكلام عدة مرات، تجد هذا في قول النبي ﷺ في قصة الحجر الذي فر بثوب موسى عليه السلام: "ففر الحجر بثوبه، فجمع موسى بأثره، يقول: "ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوأة موسى، فقالوا: والله ما بموسى من بأس"[1] فإن دخول "من" على النكرة في سياق النفي في قوله:- "والله ما

(١) الحديث سبق تخريجه.

بموسى من بأس"؛ لتأكيد انتفاء العيب عن موسى عليه السلام وتقرير تنزهه عن الآدرة التي ألصقوها به في قولهم: "والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر"؛ لأنه إذا انتفى عنه جميع أفراد البأس وأجناسه واحدًا واحدًا انتفت عنه الآدرة، وهي عظم الخصيتين؛ لأنها نوع من البأس وجنس منه.

وكزيادة الياء المشددة في آخر الصفة، حسبما قرره ابن جني في الخصائص، وذلك كزيادتها في لفظة "بغى، وغوية، وخلاسى" من قوله ﷺ في قصة المرأة البغي التي سقت كلبًا:- "بينما كلب يطيف بركية قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها فاستقت له به فسقته، فغفر لها به"(١) وقوله من قصة جريح:- "وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتتنه"(٢)، وقوله في قصة الرجل الذي ارتكب الموبقات لشربه الخمر:-"اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن خلا قبلكم تعبد فعلقته امرأة غوية"(٣)، وقوله ﷺ في قصة القوم الذين أحيا الله لهم ميتًا يسألونه عن الموت:- "خرجت طائفة من بني إسرائيل، حتى أتوا مقبرة لهم من مقابرهم، فقالوا: لو صلينا ركعتين، ودعونا الله -عز وجل- أن يخرج لنا رجلًا ممن قد مات نسأله عن الموت، قال: ففعلوا، فبينما هم كذلك إذ أطلع رجل رأسه من قبر من تلك المقابر خلاسي من بين عينيه أثر السجود، فقال: يا هؤلاء ما أردتم إلي؟ فقدمت منذ مائة سنة، فما سكنت عني حرارة

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

(٣) الحديث أخرجه النسائي في سننه ٤٦/٣، حديث ٥٢٣٦، تحقيق: عبد الفتاح أبو عزة، الطبعة الثانية ١٩٨٦ م، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.

الموت، حتى كان الآن"[1] والخلاسي: هو الذي خالط سواده البياض، وذلك إذا ولد بين أبيض وسوداء، أو العكس[2]، فإن زيادة الياء المشددة في آخر الكلمات المذكور؛ للمبالغة في التأكيد على لصوق الصفة بالموصوف، وتقرير نسبتها إليه، وهذا إنما يكون من شهرة الموصوف بالصفة، ورسوخ قدمه فيها، حتى عرف بها وعرفت به.

(١) كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: د/محمد جلال شرف، صـ ٤٩ وما بعدها، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.

(٢) لسان العرب لابن منظور، خلس ١٢٢٦/٢.

المحور الثاني
التوكيد بصيغ ذات دلالة وإيحاء تقريري

تتنوع الألفاظ والصيغ ذات الدلالة والإيحاء التقريري في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل إلى صيغ تدل على الحدث المقترن بالزمن، وهي صيغ الأفعال، وإلى صيغ تدل على الحدث المجرد عن الزمن، وهي الأسماء بأبنيتها المختلفة.

وبناءً على ذلك فإنّ الدراسة في هذا المحور تتفرع إلى مبحثين اثنين، الأول: التوكيد بصيغ الزمن، والثاني: التوكيد بصيغ وأبنية الأسماء.

المبحث الأول
التوكيد بصيغ الزمن

يتكئ البيان النبوي في سياق قصص بني إسرائيل في تقرير معانيه، وتحقيق غاياته، وترسيخ أهدافه على صيغ الزمن، وذلك في خمس صور، صورة الفعل الماضي، وصورة الفعل المضارع الذي وُضِع في موضع الماضي، وصورة الفعل المضعّف العين، وصورة التكرار الصوتي في بنية الفعل، وصورة الفعل المزيد بحروف الزيادة الدالة على الطلب خاصة.

الصورة الأولى
التوكيد بصيغة الزمن الماضي

يُعَدُّ تقرير المعنى وتوكيده بإيثار صيغة الفعل الماضي من أبرز الظواهر والسمات البلاغية في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل، حيث لا تخلو من هذه السمة قصة من هذا القصص، وإن خرجت في عرض أحداثها ومواقفها مخرج الإيجاز والاقتضاب الشديد.

وهذه الظاهرة لها دلالاتها وإيحاءاتها البارزة في هذا المقام، إذ تُنبئ عن واقعية القصص النبوي، وتدل على أنّه يعرض أحداثًا، ويقص مواقف تأكد وقوعها، وتحقق حصولها وحدوثها في واقع الأمر وحقيقته، وليس هذا القصص من وحي الخيال، ولا من نسج الأفكار، وهذا يكسب القصص النبوي المزيد من المصداقية، وعُمق التأثير، ويعمل بقوة على تحقيقه أهدافه وغاياته، وترسيخ مضامينه في نفوس المستمعين.

ويكفيك أن تراجع سياق أية قصة نبوية من قصص بني إسرائيل لتقف على صِدق هذا الاستنتاج وصحته؛ إذ يتعذر استقصاء هذه الظاهرة في هذا النوع من القصص، ويصعب مناله ويطول شرحه.

وإنْ شئت برهانًا على ذلك فراجع قصة الثلاثة المتكلمين في المهد: "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى بن مريم، وصاحب جُريج..."[1] تجد أنّها ضمّت بين لابتيها أكثر من ثمانين صيغة من صيغ الزمن الماضي، وذلك على النحو الآتي:-

وكان جُريج- فاتخذ صومعة- فكان فيها- فأتته أمه- فقالت- فقال- فأقبل على صلاته- فانصرفت- فلما كان من الغد- أتته وهو يصلي- فقالت- فقال-

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث في أكثر من موضع.

فقالت- فتذاكر بنو إسرائيل- وكانت امرأة بغي- فقالت- إنْ شئتم لأفتننه- فتعرَّضت له- فأتت راعيًا- كان يأوي- فأمكنته من نفسها- فوقع عليها- فحملت- فلما ولدت- قالت- فأتوه- فاستنزلوه- وهدموا صومعته....." وهكذا إلى آخر القصة.

وراجع -أيضًا- قصة المُبتلين الثلاثة: الأبرص، والأقرع، والأعمى تجد عباب أحداثها ومواقفها يدور على صيغة الزمن الماضي، فيما يقترب من السبعين موضعًا أو يزيد، وذلك على النحو الآتي:-

أراد الله أن يبتليهم- فبعث إليهم ملكًا- فأتى الأبرص- فقال له- قال: لون حسن- قد قذرني الناس- فمسحه- فذهب عنه قذره- وأعطي لونًا حسنًا- قال: فأي المال أحب إليك؟- قال: الإبل- فأعطي ناقةً عشراء- فقال- بارك الله لك فيها....." وهكذا سائر القصة، وذلك كله لتقرير حقيقة وقوع الابتلاء، والتأكيد على أنّ سنة الله ماضية، وأنّه لم يكن لواحد من الثلاثة عذر فيما ابتلي به.

وراجع قصة الرجل الذي خرجت به قُرحة، فلم يصبر عليها فقتل نفسه، كيف دارت جُل أحداثها ومواقفها -على شِدَّة إيجازها وقصرها- على صيغ الزمان الماضي، وذلك في عشرة مواضع، على هذا النحو:- "كان رجل- ممن كان قبلكم- خرجت به قُرحة(١)- فلمَّا آذته- انتزع سهمًا من كنانته- فنكأها(٢)- حتي مات- فقال الله- عبدي بادرني بنفسه- حرمت عليه الجنة"(٣)؛

---

(١) القرحة: حبة تخرج في البدن، وكأنه كان به جرح ثم صار قرحة، ودلّت رواية البخاري" فأخذ سكينًا فحزّ بها يده" على أنّ الجرح كان في يده/ فتح الباري لابن حجر، باب ما جاء في قاتل النفس، ٣/ ٢٢٧.

(٢) نكأ القرحة، ينكؤها، نكأً، قشرها قبل أن تبرأ فدميت /اللسان، نكأ ٤٥٣٣/٦

(٣) قال النووي: يحتمل أن يكون ذلك شرع من مضى، أن أصحاب الكبائر يكفرون=

لتقرير أنها وقعت بالفعل، وتأكيد ما حوته من مواقف وأحداث ووقائع؛ تحقيقًا للهدف من القصة في النفوس؛ ليكون ذلك باعثًا للمسلم علي الصبر والجلد، وقوة التحمل، وعدم اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى.

وهكذا يتفاوت دوران صيغة الزمان الماضي قلة وكثرة في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل تبعًا لتفاوت القصص نفسه طولًا وقصرًا؛ فكلما تعددت أحداث القصة ومواقفها كان عدد صيغ الزمان الماضي المستخدمة أكثر وأوفر، كما طالعناه في قصة الثلاثة المتكلمين في المهد، وفي قصة الأبرص، والأقرع، والأعمى، وكلما قلت أحداث القصة ومواقفها، وخرجت مخرج الإيجاز والاقتضاب كان عدد الصيغ المعبر بها أقل، وذلك كما رصدناه في قصة الرجل الذي بادر ربه بنفسه؛ من جزعه، وقلة تحمله وصبره.

ثم إنك تجد التوكيد بهذه الصيغة ظاهرًا جليًا حين تقترن بحرف التحقيق "قد" وهذا في كثير من مواضعها في سياق هذا النوع من القصص النبوي، وذلك على النحو الذي أفضنا في تحليله في المحور الأول، وفي الصورة التي عُقدتْ لدراسة التوكيد بـ "قد" التحقيقية خاصة.

كما تجده أظهر ما يكون وأبين، وأدخل في هذا الباب وأوضح حين يُفتتح القصص النبوي بهذه الصيغة، وبخاصة إذا كانت من الصيغ ذات الدلالة

=بفعلها، شرح النووي على صحيح مسلم، ١٢٧/٢، والحديث أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما جاء في قاتل النفس، حديث رقم ١٣٦٤ ص١٨٥، وفي كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم ٣٤٦٣ ص٤٥٥، ومسلم في كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وأن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار، حديث ١١٣ صـ٤٢.

العميقة الموغلة في القدم، الضاربة بجذورها في الزمن السحيق، كصيغة الماضي من الكون، وذلك في مطلع كثير من القصص النبوي، لاسيما التي يدور حولها موضوع البحث خاصة؛ فقد كانت الأسبقية زمانًا لأمة بني إسرائيل على أمة النبي ﷺ.

وإن شئت دليلًا على ذلك فراجع قصة الرجل الذي قتل مائة نفس تجد أنّ الفعل المذكور جاء في مستهلها على هذا النحو:- "كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعةً وتسعين نفسًا"(١)، وكذلك قوله ﷺ في مطلع قصة أصحاب الأخدود:- "كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر"(٢)، وقوله في مطلع قصة الحجر الذي فرّ بثوب موسى عليه السلام:- "كانت بنو إسرائيل يغتسلون عُراة ينظر بعضهم إلى سوأة(٣) بعض"(٤).

وقوله في مستهل قصة المسرف على نفسه الذي أمر أولاده أن يحرقوه بعد موته:- "كان رجل يسرف على نفسه لمّا حضره الموت قال لبنيه(٥)...."، وقوله في ابتداء قصة المتألي على الله الذي أقسم أنّ الله لا يغفر لأخيه المذنب ولا يُدخله الجنّة:- "كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما

---

(١)الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب "أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم"، حديث رقم ٣٤٦٩ صـ٤٥٧، ومسلم في كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، حديث ٢٧٦٦ صـ٧٨٧.

(٢)سبق تخريج هذا الحديث.

(٣) والسوأة هي العورة، وسميت بذلك؛ لأنه يسوء صاحبها كشفها. شرح النووي على صحيح مسلم، باب جواز الاغتسال عريانا في الخلوة، ٣٢/٤.

(٤) سبق تخريج هذا الحديث.

(٥) سبق تخريج هذا الحديث

يذنب"[1]، وقوله في مطلع قصة المرأتين اللتين عدا الذئب بابن إحداهما:- "كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما..."[2]، وقوله في قصة المرأة التي اتخذت رجلين من خشب:- "كانت امرأة من بني إسرائيل قصيرة تمشي مع امرأتين طويلتين...."[3].

وهكذا شأن كثير من القصص النبوي عن بني إسرائيل، تجد أنّ مطلعه جاء على هذا النحو من الابتداء بهذه الصيغة الموغلة في الدلالة على القدم، والتي كان لها – إلى جانب دلالة التحقيق والتأكيد، والتقرير والتثبيت- دور بارز لا يُغفل في إثارة عُنصر التشويق، وإلهاب المشاعر، وتحفيز الوجدان نحو تتبع الأحداث إلى نهايتها، وذلك لدلالتها على وقوع الحدث وحصوله في الزمن السحيق، وهي أم الأفعال، إذ كل فعل قد حصل فيه معنى "كان"، فقولنا "ضرب"، معناه:" كان ضرب"؛ وهكذا.[4]

على أنّ ثمّت صيغًا ماضوية أُخرى غير الصيغة المذكورة، جاءت في

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي حديث رقم٤٩٠١، ٢٦٢/٧، وأخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم ٨٢٧٥، ٢٦٧/٨.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى " ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب" حديث ٣٢٧ ص ٥٠، وفي كتاب الفرائض باب إذا ادعت المرأة ابنًا، حديث ٦٧٦٩، ص ٨٦٨، ومسلم في كتاب الأقضية، باب بيان اختلاف المجتهدين، حديث ١٧٢٠ ص ٥٠٥

(٣)الحديث أخرجه مسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب استعمال المسك، وأنه أطيب الطيب، وكراهة رد الريحان والطيب، حديث ٢٢٥٢ص ٦٥٦

(٤)ينظر الكتاب لسيبويه ١٨٤/٤، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي- القاهرة ١٩٨٨م، ومفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني (كان)، صـ ٧٣٠، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، الطبعة الثالثة ٢٠٠٢م، دار القلم-دمشق، الدار الشامية-بيروت.

مُستهل القصص النبوي عن بني إسرائيل، وهي لا تقل في تحقيق هذه الغاية التي يدور عليها البحث من التقرير والتوكيد عن صيغة الماضي من الكون، وإنما جاءت في مطلع هذا القصص دون الفعل المذكور لسر ونكتة؛ هي توفير العناية نحوها ابتداء، وإثارة الاهتمام بها من أول وهلة؛ إذ تُمثل اللفظة المحورية التي تبنى عليها الأحداث في سياق القصة، وتجسد المعنى المحوري الذي تدور عليه الأحداث والمواقف من بداية القصة حتى نهايتها، وهذا من عجائب القصص النبوي وفرائده التي لا توجد في غيره من القصص البشري.

وليس أدل على ذلك من قول النبي ﷺ في مُستهل قصة النبي الذي حُبِستْ له الشمس، حتى فتح الله عليه:- "غزا نبي من الأنبياء- صلوات الله وسلامه عليهم- فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة، وهو يريد أن يبني بها..."(١)، فإنّ مشاهد القصة وأحداثها من أولها إلى آخرها جاءت مُترتبة على لفظة "غزا" التي وقعت في مطلع القصة، ومبنية عليها، كما أنّ الغزو والجهاد في سبيل الله يُمثلان المعنى المحوري الذي تدور حوله أحداث القصة ومواقفها.

وقوله ﷺ في مستهل قصة لطم موسى عليه السلام ملك الموت:- "جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال له: أجِب ربك، قال: فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت ففقأها"(٢)، فإنّ كل الأحداث والمواقف التي اشتملت عليها القصة من لطم موسى عليه السلام عين ملك الموت وفقئه إياها، ورجوع الملك إلى الله – تعالى- يشكو موسى عليه السلام ورد الله عين ملك الموت إليه، وأمره بالرجوع إلى

(١) سبق تخريج هذا الحديث

(٢) سبق تخريج هذا الحديث

موسى عليه السلام وإبلاغه ما أمره به أن يبلغه كانت قد بُنِيت كلها على مجيء ملك الموت إلى موسى عليه السلام الذي بدأت به القصة الكريمة.

وكذا قوله ﷺ في قصة طواف نبي الله سليمان عليه السلام على مائة امرأة:- "قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على مائة امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله"(١)، حيث تنبسق أحداث القصة كلها من هذا القول الذي صدر عن سليمان عليه السلام وتدور عليه، كما أنّ مادة القول هي اللفظة المحورية في هذه القصة؛ بدلالة تكررها في سياقها خمس مرات، وعلى أمثلة مختلفة، على هذا النحو: "قال سليمان-فقال له صاحبه- قل إن شاء الله- لو قال: إن شاء الله".

وقوله ﷺ في قصة النبي الذي أمر بإحراق قرية النمل:- "قرصت نملة نبيًا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأُحرِقتْ، فأوحى الله-تعالى- إليه "أفي أنْ قرصتك نملة أهلكت أُمّة من الأمم تُسبِح؟!!"(٢)، حيث بنيت أحداث القصة كلها من أمر هذا النبي بإحراق قرية النمل، وعتاب الله -تعالى- إيّاه على ذلك على الفعل "قرصت" الذي جاء في مطلع القصة المشهورة، وهكذا سائر القصص التي أُخرجت هذا المخرج، وهذا - كما قلت- من عجائب القصص النبوي وفرائده، وسماته وخصائصه التي لا توجد في غيره من القصص البشري.

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يُقتلن في الحرم، حديث ٣٣١٩ صـ٤٣١، ومسلم في كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، حديث ٢٢٤١ صـ٦٥٣، ٦٥٤.

الصورة الثانية
التوكيد بصيغة المضارع التي وضعت موضع الماضي

تقرير المعنى وتوكيده من خلال وضع صيغة المضارع في موضع صيغة الماضي لا يرد في القصص النبوي عن بني إسرائيل على نحو من الكثرة والشيوع كما كان الشأن في التوكيد بصيغة الزمن الماضي، بل هو قليل الدوران جدًا بالقياس إليه، ويجيء في سياقات ومقامات تقتضي هذا التحول والعدول بقوة.

وتتناسل خصيصة التقرير والتوكيد في وضع المضارع موضع الماضي من دلالة صيغة المضارع على تكرار الحدث، وتجدد حصوله مرة بعد مرة، وفي التكرار تحقيق وتأكيد.

ومن دلالتها على استحضار الصورة والمشهد، ووضعه أمام الأعين، حتى كأنّ السامع يرى ويشاهد، وذلك بناءً على ما هو معلوم ومقرر في الطباع من أنّ الخبر ليس كالمعاينة.

ومن توفر عنصر المفاجأة الذي يأخذ بضبعي المتلقي، ويطلق عنه ربقة السهو والغفلة، ويوقظه ويسترعي انتباهه لما يُقَص عليه، وهذا من شأنه أن يُقرر المعنى ويؤكده.

ودليل هذا من قول النبي ﷺ في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، حكاية عن الأول الذي كان بارًّا بوالديه:- "اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق[1] قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طلب الشجر فلم أرح عليهما

(١) الغبوق: الشرب بالعشي وخص بعضهم به اللبن المشروب في ذلك الوقت، وقيل: هو ما أمسى عند القوم من شرابهم فشربوه/ اللسان، غبق، ٥/٣٢١٠.

حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما، وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما، حتى برق الفجر، والصبية يتضاغون[1] عند قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما"[2]، فقد وضعت صيغة المضارع في قوله:- "أنتظر استيقاظهما"، وقوله:- "والصبية يتضاغون عند قدمي موضع الماضي؛ إذ الأصل: منتظر استيقاظهما، حال تضاغي الصبية عند قدمي، والتضاغي: هو الصياح من شدة الجوع، وإنما عدل عن هذا الأصل إلى ما جاء عليه النسق في البيان النبوي؛ تصويرًا له بصورة الحاضر الماثل قبالة العينين؛ تأكيدًا على عظيم بره بوالديه، وشدة إحسانه إليهما، وكمال وفائه بحقهما؛ ليكون ذلك أدعى لقبول دعائه، وأعون له على تحقيق رجائه بين يدي مطلوبه، وأقوى في إظهار الذل والضراعة بين يدي ربه؛ لقيامه مقام الدليل والبرهان على كل ذلك.

ثُم إن المقام وطبيعة الموقف مما يقتضي هذا التحول؛ فإنّ وقوف الرجل عند والديه، منتظرًا استيقاظهما، على هذه الحال من شدة تضاغي الصبية وصياحهم من شدة الجوع مما يثير الدهشة ويدعو إلى الاستغراب؛ لمُجافاته لطبيعة الفطرة الإنسانية في مثل هذه المواقف التي تذيب الحجر، وتصهر

---

(١) يتضاغون: أي يتباكون ويتصايحون من شدة الجوع، يقال: رأيت صبية يتضاغون، إذا تباكوا، اللسان، ضغا، ٢٥٩٣/٤.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئًا لغيره بغير إذنه فرضي، حديث ٢٢١٥ صـ٢٨٤، وفي كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرًا فترك الأجير أجره فعمل فيه المستأجر فزاد، حديث ٢٢٧٢ صـ٢٩١، وفي كتاب الحرث والمزارعة، باب إذا زرع بمال قوم بغير إذنهم، وكان في ذلك صلاح لهم، حديث ٢٣٣٣ صـ٣٠٠، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، حديث ٢٧٤٣ صـ٧٧٩.

الفولاذ، وتمور فيها عاطفة الأبوة الحانية مورًا، وتضطرب لها مشاعر الرحمة اضطرابًا، وذلك من ضعف الطفولة وبراءتها، وبكاء الأطفال وصياحهم من شِدَّة الجوع، لاسيما وهم فلذة كبده، وقُرة عينه، وقد كان في نوم الوالدين مندوحة له، وإعذار فيما كابده وتجشمه.

وقوله ﷺ في قصة رؤية نبي الله عيسى عليه السلام رجلاً يسرق:- "رأى عيسى بن مريم رجلاً يسرق، فقال له عيسى: سرقت؟ قال: كلا، والذي لا إله إلا هو، قال عيسى: آمنت بالله، وكذّبت نفسي"(١)، فإنّ وصف النكرة بجملة "يسرق"، ووقوع صيغة المضارع في موقع صيغة الماضي، بقرينة قول عيسى –عليه السلام– "سرقت؟" بصيغة الماضي، وعلى طريقة الاستفهام الإنكاري التوبيخي، المحذوف الأداة؛ للتأكيد على وقوع السرقة، وتقرير أنّ أمرها ظاهر معلوم، كأن الواقعة برُمتها تحدث ثمت الآن أمام أعين النظار، وهم يسمعون ويشاهدون، وكل ذلك للدلالة على شناعة الجُرم الذي اقترفه الرجل وقباحته، لاسيما وقد وقع بين يدي نبي الله عيسى عليه السلام وأمام ناظريه، ومن ثَم كان نفي الرجل التهمة عن نفسه قاطعًا، وإنكاره قول عيسى عليه السلام بالغًا، وذلك من خلال القسم، والقصر على طريق النفي والاستثناء الذي يُستخدم في الأمر غير المعلوم الذي ينكره المخاطب، أو لما ينزل هذه المنزلة، وذلك في مقابلته ظهور الأمر وشدة وضوحه عند نبي الله عيسى –عليه السلام.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: "واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها" حديث ٣٤٤٤ صـ٤٥٣، ومسلم في كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى–عليه السلام–، حديث ٢٣٦٨ صـ٦٨٢.

وكذلك قوله ﷺ في قصة المتكلمين في المهد، وفي قصة جُريج خاصة:- "وكانت امرأة بغي يتمثل بحُسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننه، فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأتت راعيًا كان يأوي إلى صومعته، فأمكنته من نفسها، فوقع عليها، فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه، فاستنزلوه، وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه.....فلما انصرف أتى الصبي، فطعن في بطنه، وقال يا غلام! مَنْ أبوك؟ قال: فلان الراعي، فأقبلوا على جريج يُقبلونه، ويتمسحون به"(١)، وكذلك قوله في قصة الطفل الرضيع الذي كلّم أمّه من القصة ذاتها:- "ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع.....، فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبّابة في فيه فجعل يمُصها"(٢)، وقوله في قصة نبي الله يحيى -عليه السلام- وهو يبلغ بني إسرائيل الكلمات الخمس التي أمره الله أن يبلغهم إيّاها:- "وآمركم بالصدقة، وإن مثل ذلك، كمثل رجل أسره العدو، وقاموا إليه فأوثقوا يده إلى عُنقه، فقال: هل لكم أن أفدي نفسي منكم؟ قال فجعل يُعطيهم القليل والكثير ليفك نفسه منهم"(٣)، وقوله في قصة موسى والخضر-عليهما السلام-:- "فانطلقا يمشيان على الساحل"(٤)، وقوله في

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في سننه باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة، حديث رقم ٢٨٦٣، ١٤٨/٥، وأحمد في مسنده حديث رقم ١٧١٧٠، ٢٨/ ٤٠٥، وابن حبان في صحيحه، باب ذكر تشبيه المصطفى ﷺعيسى ابن مريم بعروة بن مسعود، رقم الحديث ٦٢٣٣، ١٤/ ١٢٤، ١٢٥.

(٤)الحديث أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب ما ذكر في ذهاب موسى ﷺ في البحر إلى الخضر، حديث ٧٤ صـ٣٤، وباب الخروج في طلب العلم، حديث ٧٨ صـ٣٥، وفي كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، حديث ٣٢٧٨ صـ٤٢٧، وفي كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، حديث ٣٤٠١ صـ٤٤٥، ومسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام، حديث ٢٣٨٠ صـ٦٨٥.

قصة أصحاب الأخدود:- "فجاء -أي الغلام- يمشي إلى الملك"[1]، وغير ذلك من الأمثلة كثير، حيث تجد صيغة المضارع في كل هذه الأمثلة قد وضعت في موضع صيغة الماضي؛ إذ الأصل في قوله من قصة جُريج: "فجعلوا يضربونه- فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به"، أن يقال: "فضربوه، فقبلوه وتمسحوا به"، وكذا قوله من قصة الطفل الرضيع الذي كلّم أمه في القصة نفسها: "فجعل يرتضع- فجعل يمصها" الأصل فيه أن يقال: "فارتضع- فمصها"، لكنه عدل في كل ذلك عن صيغة الماضي إلى صيغة المضارع؛ لتصوير المشهد واستحضار الحدث حيًّا نابضًا من الزمان الغابر، كأنه ماثل بين يدي المتلقي، شاخص أمام ناظريه، حتى كأنك ترى القوم وهم ينهالون ضربًا على جريج، ثُم ترى المشهد ينقلب فجأة، وعلى غير المتوقع، فتراهم وهم يقبلونه ويتمسحون به، وكأنك -أيضًا- ترى الطفل الرضيع وهو يلتقم ثدي أمه في حركة تلقائية سريعة ويرتضع، وتشاهد النبي ﷺ وهو يضع أصبعه السبابة في فيه يمُصها، في مشهد مُعبر، وصورة مجسدة لارتضاع الصبي؛ لتتعانق هذه الوسيلة التقريرية مع غيرها من الوسائل الأخرى في سياق الكلام لتأكيد المعنى وتحقيقه، وتصوير الغرض العام من القصة وترسيخه، وهو بيان قدرة الله -تعالى- المطلقة وتجاوزها حدود الزمان والمكان، وتقرير كرامات الأولياء، وغير ذلك من الغايات والأهداف التي ترمي إليها القصة النبوية في هذا المقام.

والأصل في قول نبي الله يحيى عليه السلام من قصته التي أُمر فيها بتبليغ ما أوحى إليه من الكلمات الخمس: "فجعل يعطيهم القليل والكثير ليفك نفسه منهم"،

(١)الحديث سبق تخريجه.

وفي قول النبي ﷺ من قصة أصحاب الأخدود:- "فجاء الغلام يمشي إلى الملك. أن يقال: فأعطاهم القليل والكثير- فرجف بهم الجبل، فسقطوا، ومشى إلى الملك. أو: وجاء ماشيًا إلى الملك.

وإنما عدل إلى صيغة المضارع في موضع الماضي؛ لاستحضار المشهد، وتصويره نابضًا بالحياة والحركة، على مرأى من العين والمسمع؛ تجسيدًا- في الأول؛ لكثرة العطاء ووفرته، ودلالة على شدة الحرص، وتشميرًا عن ساعد الجد في فكاك نفسه، وتحرير رقبته، وأن الإنسان لا يضن في الإبقاء على حياته بالكثير أو بالقليل، ولا يلوي في ذلك على شيء.

وتأكيدًا -في الثاني- على نجاة الغلام بقدرة الله وتقريره، رغم ضعف الأسباب والملابسات المحيطة بحسب الظاهر، وهذا التقرير والتأكيد مما يقتضيه مقام إعلاء مبدأ الثبات على الحق وبث الثقة والطمأنينة في قلوب أهله، وتعزيز موقفهم وصمودهم في مواجهة الظالمين والطغاة، والتهوين في الوقت ذاته -من كيد الظالمين وشأنهم، مهما أظهروا من وسائل البطش، وقوة التنكيل، وترسيخ عقيدة الاعتصام بالله واللجوء إليه، وحسن التوكل عليه في نفوس أهل الحق والإيمان، حتى يتحقق النصر، ويقع التمكين في النهاية، وذلك على النحو الذي جسدته أحداث هذه القصة في نهايتها.

الصورة الثالثة
التوكيد بتضعيف عين الفعل

تتولد خصيصة التقرير والتوكيد وتتناسل من هذه الظاهرة التعبيرية من دلالة تضعيف العين –من وجه– على الكثرة[١]، ودلالتها –من وجه آخر– على القوة والإحكام، وكلاهما مما يستلزم التقرير والتوكيد، والتحقيق والتشديد.

ومع تعدد مواضع هذه الوسيلة في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل، وتحققها في صيغتي الماضي والمضارع إلا أنها ليست على نحو من الكثرة التي يمكن أن تمثل ظاهرة من ظواهر التعبير النبوي في سياق هذا النوع من القصص.

ومن أبرز مواضع هذه الوسيلة التقريرية، وأشدها ظهورًا في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل قوله ﷺ في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، فانحدرت على بابه صخرة من أعلى الجبل فسدته: "وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراء، وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد، ترك الذي له وذهب، فثمّرت أجره، حتى كثرت منه الأموال"[٢]، فدلالة تضعيف عين الفعل "ثمّر" في قوله: "فثمّرت أجره" على التكثير الذي يقتضي تقرير المعنى وتوكيده، من شدة الحرص، ودوام التعهد، وغاية الحفظ والرعاية لهذا الأجر البسيط الذي كان من فرقًا من أرز أو ذرة كما جاءت به إحدى روايات الحديث[٣] في غاية الظهور والوضوح؛ بقرينة سياق القصة من قوله: "حتى

---

(١)ينظر الخصائص لابن جني ٣/٢٦٤ وما بعدها.

(٢) الحديث سبق تخريجه ــ

(٣) البخاري، كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئًا لغيره بغير إذنه فرضي، حديث ٢٢١٥صـ٢٨٤، وفي كتاب الحرث والمزارعة، باب إذا زرع بمال قوم بغير إذنهم، وكان في ذلك صلاح لهم، حديث ٢٣٣٣صـ٣٠٠.

كثرت منه الأموال"، وقوله للطالب بعد ذلك: "كل ما ترى من أجرك، من الإبل، والبقر، والغنم، والرقيق".

ثم إن المقام مما يقتضي هذا التقرير والتوكيد، فتثمير الرجل هذا المال القليل لغير نفسه، على هذا النحو، ومن دون موجب يجري على غير المعهود من سنن البشر وطرائقهم، ومقتضى حالهم من حب المال، وشدة الحرص على كنزه، ومن ثم كانت حاجة المقام إلى التحقيق أقوى، واحتياجه إلى التوكيد أشد.

كما أن هذا التقرير والتأكيد هو الذي يتناغم مع مقتضي حال هذا الرجل من الإلحاح في الطلب، وإظهار غاية الذل والانكسار في الدعاء، والخضوع والضراعة فيه؛ ليكون ذلك كالتمهيد والتوطئة بين يدي مطلوبه؛ ليكون أرجى لقبول الدعاء، وتحقيق الرجاء.

ومن أبرز مواضعه –أيضًا– قول النبي ﷺ في قصة الأبرص، والأقرع، والأعمى، على لسان الملك خاصة: "رجل مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال بعيرًا أتبلغ[1] به في سفري"[2]، فإن تضعيف عين الفعل "أتبلّغ"، وزيادة الهمزة والتاء في أوله للتأكيد على شدة حاجته، والدلالة على عظيم رغبته؛ ليكون ذلك في الابتلاء الذي هو مقام القصة ومقتضاها أوقع، وفي الإعذار أبلغ، وفي إقامة الحجة على الأبرص أوثق.

ومن أبرز هذه المواضع –أيضًا– قوله ﷺ في قصة موسى والخضر: "قال: فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان إذ تضرّب الحوت، وموسى

(١) من البلغة، وهي الكفاية، والمعنى: أتوصل به إلى مرادي، فتح الباري ٦/ ٥٠٢.

(٢) سبق تخريج هذا الحديث

نائم، فقال فتاه: لا أوقظه، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره، وتضرّب الحوت، حتى دخل البحر"(١)، وقوله ﷺ من قصة النبي الذي أحرق قرية النمل، فعاتبه الله –تعالى– في ذلك: "فأوحى الله –تعالى– إليه: أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح؟"(٢)، فإن تضعيف عين الفعل "تضرّب" –بشد الراء، ومعناه تحرك واضطرب– في قصة موسى والخضر؛ للتأكيد على دبيب الحياة في الحوت، وعودة الروح إليه؛ لدلالته على كثرة الحركة، وشدة الاضطراب، وقد جاء هذا التقرير والتأكيد مطابقًا للمقام ومقتضى الحال؛ فقد جعلت عودة الحياة إلى الحوت، ودبيب الروح فيه علامة على وجود العبد الصالح، وأمارة على التقاء موسى عليه السلام به، وذلك على النحو الذي كشف عنه سياق القصة الكريمة.

أما تضعيف عين الفعل "يسبّح" في قصة النبي الذي أمر بإحراق قرية النمل فللتأكيد على كثرة التسبيح، وحصوله حالًا بعد حال، ومرة بعد مرة، حسبما تنبئ عنه صيغة المضارع، ليكون ذلك أبلغ في المعاتبة، وأدخل في اللوم، حتى لا يعود ذلكم النبي إلى هذه الفعلة مرة أخرى، والله أعلم.

ومن هذه المواضع –أيضًا– قوله ﷺ في قصة الذين دخلوا القرية من بني إسرائيل يزحفون على أدبارهم: "قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجدًا، وقولوا: حطة، يغفر لكم خطاياكم، فبدلوا، فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة"(٣)، وقوله ﷺ في قصة وفاة نبي الله داود عليه السلام:"كان داود

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب فلما بلغ مجمع بينهما نسي حوتهما، حديث ٤٧٢٦صـ٦٢٧.

(٢) الحديث سبق تخريجه

(٣) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، حديث ٣٤٠٣صـ٤٤٦، وفي كتاب التفسير، تفسير سورة البقرة، باب:"وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدًا" حديث ٤٤٧٩صـ٥٨٥، ومسلم في كتاب التفسير، حديث ٣٠١٥صـ٨٥٤.

النبي فيه غيرة شديدة...، قال: فخرج ذات يوم، وغلقت الدار..."(١)، وقوله في قصة العالم الذي وعظته امرأة: "إنه كان في بني إسرائيل رجل فقيه... وكانت له امرأة، وكان بها معجبًا، ولها محبًا، فماتت فوجد عليها وجدًا شديدًا، ولقى عليها أسفًا، حتى خلا في بيت وغلق على نفسه، واحتجب من الناس"(٢)، وكذا قوله ﷺ في قصة الرجل الذي ارتكب الموبقات؛ بشربه الخمر: "اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن خلا قبلكم تعبّد، فعلقته امرأة غوية"(٣)، وقوله في قصة جريج من قصة الثلاثة المتكلمين في المهد، حكاية عن البغي: "إن شئتم لأفتننه، فتعرضت له، فلم يلتفت إليها"(٤)، فإن تضعيف عين الفعل في القصص السابقة هو الذي ينسجم -بدلالته على الكثرة والقوة التي تستلزم التقرير والتوكيد- مع مضامين هذا القصص، ويحقق -إلى جانب الوسائل الأخرى- غاياته وأهدافه، ويلبي حاجة المعنى ويفي بالغرض المقصود.

فتضعيف عين الفعل "بدل" في قوله: "فبدلوا" من القصة الأولى هو الذي يتوافق -بدلالته على الكثرة والقوة التي تستلزم-كما سبق-التقرير والتوكيد- مع طبائع بني إسرائيل الملتوية، ويصور نفسياتهم المتمردة التي لا تحب الاستقامة، ولا تذعن للأمر الإلهي، وتحتال دومًا لتحريفه، والتنصل منه؛ ليأخذ المسلم حذره، ويضع هذه الحقائق نصب عينيه، وهو يتعامل مع هذا الصنف

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) الحديث أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجنائز، باب جامع الحسبة في المصيبة، حديث ٤٣، صـ ٢٣٧، خرج أحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٥م، وهو في جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير، حديث ٤٦٣٤، ٦/ ٤٣٨، تحقيق/ عبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الأولى ١٩٧٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) الحديث أخرجه النسائي في سننه، حديث رقم ٥٢٣٦ صـ٣/٤٦.

(٤) الحديث سبق تخريجه.

من البشر، حتى لا ينخدع، وحتى لا يؤخذ على غرة، ولا يؤتى من قبل مأمنه.

أما تضعيف عين الفعل "غلق" في قوله من قصة وفاة نبي الله داود عليه السلام: "وغلقت الدار" ، وفي قوله من قصة العالم الذي وعظته امرأة: "وغلق على نفسه" ففيه تقرير للمعنى المراد في كل من القصتين وتوكيده؛ لاقتضاء المقام ذلك؛ فإنه في الأولى مقام رد وإبطال لما افتراه اليهود، وما اختلقوه من أكاذيب في شأن نبي الله داود عليه السلام حيث زعموا أنه عليه السلام لما حضرته الوفاة أصابت جسده برودة شديدة، فجاءه من حوله بفتاة جميلة تضطجع في حضنه لتدفئه(١)، وتضعيف العين من الفعل على هذا النحو المذكور فيه رد بليغ، ومجابهة شديدة، وتأكيد قوي على براءة ساحته عليه السلام مما نسلوه إليه، وقذفوه به؛ لدلالته على شدة غيرته –عليه السلام، وعدم تراخيه أو تساهله في صون حرماته، فضلًا عن حرمات الآخرين، وهذا هو المعنى المحوري الذي تدور عليه أحداث القصة.

والمقام في الثانية مقام ضيق وكرب، بسبب حزن العالم على فقد امرأته، وتضعيف العين من الفعل المذكور هو الذي يصور–إلى جانب الوسائل الأخرى– شدة الحزن، ويعكس عظم الفجيعة، وثقل وقع المصاب، حتى اعتزل هذا العالم الناس، وذلك على النحو الذي كشف عنه سياق القصة الكريمة.

وإنما كان في تضعيف عين الفعل من القصتين السابقتين من الوكادة ما ليس في عدمه؛ لدلالة التضعيف على إحكام الغلق وقوته، وتوفر العناية عليه، والاهتمام به.

---

(١) ينظر صحيح القصص النبوي. د/ عمر سليمان الأشقر صـ١٤١.

وأما تضعيف عين الفعل "تعبد" في قوله ﷺ من قصة الرجل الذي ارتكب الموبقات؛ بشربه الخمر: "إنه كان رجل ممن خلا قبلكم تعبد"، وعين الفعل "تعرض" في قوله من قصة جريج العابد: "فتعرضت له فلم يلتفت إليها"، فللدلالة في القصة الأولى على كثرة عبادة هذا الرجل، وكمال تعبده، ليكون الزجر عن شرب الخمر أبلغ، والتحذير من تعاطيها أوقع وآكد؛ لإنبائه عن عظم أثرها، وشدة تأثيرها في عقول معاقريها، وإن كان من المتبتلين المنقطعين للعبادة.

ولدلالته في قصة جريج على أن هذه المرأة البغي قد بالغت في إغراء جريج وإغوائه، وألحت في عرض نفسها عليه وأكثرت، وأظهرت مفاتنها له على نحو فاضح مكشوف، لكنه لم يلتفت إليها، ولم يأبه لها، وهذا ينطق بشدة ورعه وكمال تقواه، وينبئ عن تمام عفته وطهارة ذيله، ومن ثم نجاه الله منها ومنهم، وأجرى على يديه الكرامة، وأنطق له الطفل الرضيع ليشهد ببراءته وإحصان فرجه.

الصورة الرابعة
التوكيد بالتكرار الصوتي في بنية الفعل

المقصود بالتكرار الصوتي هو تكرار أحد حروف الفعل أو أكثر، وهذا إنما يكون من تكرار الحدث وكثرته(١)، وقد سبق أن ذكرت في الصورة السابقة أن الوكادة من لوازم الكثرة ومن مستتبعاتها، كما أن خاصة التكرار وسمته البارز هو التقرير والتوكيد.

وقد عاودت القصص النبوي عن بني إسرائيل بالبحث والتنقيب مرة بعد مرة؛ للوقوف على شواهد لهذه الوسيلة التقريرية فلم أتمكن من الوقوف لها إلا على موضع واحد، جاء في سياق قصة الرجل الذي خسف به الأرض من كبره وخيلائه، وذلك قوله ﷺ: "بينما رجل ممن كان قبلكم يمشي قد أعجبته جمته(٢) وبراده؛ إذ خسف به الأرض، فهو يتجلجل في الأرض حتى تقوم الساعة"(٣)، حيث كرر صوت الجيم واللام في الفعل المضارع "يتجلجل"؛ لكثرة المعنى، وتكرار الحدث، أي: كثرة الجلجلة، وتكرارها.

---

(١)ينظر الخصائص لابن جنى ٢٦٧/٣.

(٢)الجمة: مجتمع الشعر إذا تدلى من الرأس إلى المنكبين، وإلى أكثر من ذلك، وأما الذي لا يتجاوز الأذنين فهو الوفرة، ينظر فتح الباري لابن حجر، ٧/ ٢٢٤.

(٣)الحديث أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء، حديث٥٧٨٩صـ٧٦٥، ومسلم في كتاب اللباس والزينة، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه، حديث٢٠٨٨صـ٦١٥، والحديث إخبار عمن كان قبل هذه الأمة، ويؤيده ذكر البخاري إياه في بعض رواياته في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل / ينظر شرح النووي على صحيح مسلم، ١٤/ ٦٤.

والكلمة مصورة بجرسها لمعناها، فإن الجلجلة حركة مع صوت، يقول ابن فارس: التجلجل: أن يسوخ في الأرض، مع اضطراب شديد، ويندفع من شق إلى شق، فالمعنى: يتجلجل في الأرض، أي: ينزل فيها مضطربًا متدافعًا(١).

فتكرار الحركة وتتابعها مأخوذ من تكرار صوت الجيم واللام، ومن إيثار صيغة الفعل المضارع خاصة، والاضطراب والتدافع مأخوذ من صوت الجيم مكررًا؛ فإن فيها جلجلة واضطرابًا(٢).

ولا شك في أن تقرير المعنى وتوكيده من تكرار أصوات الكلمة على النحو الذي سبق تفصيله، والذي يفيد كثرة المعنى وتكرار الحدث مما يقتضيه مقام التحذير من العجب والكبر، والترهيب من عاقبة الغرور والخيلاء الذي سيقت له القصة الكريمة؛ لأنه الأبلغ ردعًا، الأقوى زجرًا، والآكد تخويفًا.

(١)ينظر فتح الباري ٢٦١/١٠، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني، ٢١/ ٢٩٨.

(٢) ينظر أصوات اللغة العربية. د/محمد حسن حسن جبل صـ١٨٣، الطبعة الثالثة ١٩٩٣م.

الصورة الخامسة
التوكيد بزيادة الأحرف الدالة على الطلب في بنية الفعل

الأحرف الدالة على الطلب هي الألف [الهمزة]، والسين، والتاء في أول الفعل، ماضيًا كان أم مضارعًا، أم أمرًا، وتحذف الألف، إذا كان الفعل مضارعًا مسندًا لغير المتكلم،وتنوب عنها ألف المضارعة، إذا كان الفعل المضارع مسندًا لضمير المتكلم خاصة.

وإنما كان التوكيد من خصائص زيادة هذه الأحرف في بنية الفعل، على النحو المذكور؛ لقيامها مقام الطلب بقوة، وإفادتها شدة حرص الطالب واهتمامه بتحقق الأمر المطلوب وحصوله، وهذا كله كائن من دلالتها على مباشرة الطالب مطلوبه بنفسه، وقيامه على الأمر بشخصه(١).

وتقرير المعنى وتوكيده من خلال زيادة هذه الأحرف قليل الدوران في القصص النبوي عن بني إسرائيل، وقد وقفت له على عدة مواضع فقط، جاءت في ثنايا سياقات قصصية متنوعة، كقوله ﷺ في قصة جريج العابد: "فلما ولدت –أي البغي– قالت: هو من جريج، فأتوه، فاستنزلوه، وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه"(٢)، وكقوله ﷺ في قصة الرجل الذي تسلف رجلًا ألف دينار: "اللهم إنك تعلم أني تسلفت فلانًا ألف دينار، فسألني كفيلًا، فقلت: كفى بالله وكيلًا، فرضي بك، وسألني شهيدًا، فقلت: كفى بالله شهيدًا، فرضي بك، وإني جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أجد، وإني أستودعكها، فرمي بها

(١) ينظر شرح المفصل لابن يعيش ١٦١/٧، مكتبة المتنبي، القاهرة، بدون تاريخ.
(٢) الحديث سبق تخريجه

إلى البحر، حتى ولجت فيه"[١]، وكقوله ﷺ في قصة النبي الذي أعجب بقومه، فخيره الله بين إحدى ثلاث يختارها لهم: "فأوحى الله إليه أن اختر لقومك إحدى ثلاث: إما نسلط عليهم عدوًا من غيرهم، أو الجوع، أو الموت، فاستشار قومه في ذلك، فقالوا: أنت نبي الله فكل ذلك إليك"[٢]، وقوله ﷺ في قصة المرأة التي وعظت عالمًا: "وإن امرأة سمعت به، فجاءته، فقالت: إن لي إليه حاجة أستفتيته فيها ليس يجزيني إلا مشافهته"، وقوله فيها –أيضًا–: "فقال له قائل: إن ههنا امرأة أرادت أن تستفتيك"، وكذا قوله: "جئت أستفتيك في أمر... قالت: إني استعرت من جارة لي حليًا"[٣].

فدخول الألف والسين والتاء في قوله: "فاستنزلوه" من قصة جريج؛ لتقرير إنزال القوم إياه، وتأكيد أنهم كانوا جادين في الأمر، طالبين له؛ لأن هذا التأكيد هو الذي يتطابق مع حال القوم في شدة الغضب، ونهاية السخط والحنق على جريج؛ لدلالته على أنهم قاموا بالأمر بأنفسهم، وندائه على أن الإنزال لم يكن عاديًا، وإنما كان بعنف وقوة، وعن حرص وطلب، وعلى رغم من جريج.

أما دخولها في قوله "أستودعكها" من قصة الرجل الذي تسلف رجلًا آخر ألف دينار فهو الذي يتطابق مع مقتضى حال هذا الرجل في شدة الحرص على سداد دينه، وأداء أمانته، والوفاء بوعده الذي قطعه على نفسه، وأشهد عليه ربه، وقرينة هذا من سياق الكلام، في قوله: "اللهم إنك تعلم أني تسلفت فلانًا ألف دينار"، فهو دعاء وتضرع، ومن قوله: "وإني جهدت أن أجد مركبًا

---

(١) الحديث سبق تخريجه

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في سننه، باب تفسير القرآن، سورة البروج، حديث رقم ٣٣٤٠، ٥/ ٤٣٧، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة حديث رقم ٢٤٥٩، ٥/ ٥٨٨

(٣) الحديث سبق تخريجه

أبعث إليه الذي له فلم أجد"، حيث قدم في كل اعتذاره المفصح بالعجز لأسباب خارجة عن إرادته بين يدي مطلوبه؛ لدلالة التأكيد بهذه الأحرف على تعاظم الرغبة، وقوة الرجاء في تحقق مطلوبه وحصوله، وقرينة هذا من إيثار صيغة المضارع خاصة دون صيغة الطلب الصريح؛ فإن صيغة المضارع "أستودعكها" تفيد –إلى جانب ما فيها من حسن تأدب وتلطف في الطلب– أن المطلوب يحصل، والرجاء يتحقق، والله أعلم.

وأما دخول هذه الأحرف الثلاثة في الفعل الماضي من الاستشارة في قوله: "فاستشار قومه" من قصة النبي الذي أعجب بقومه ففيها تأكيد على طلب هذا النبي من قومه المشورة بقوة، ودلالة على ضرورة إبداء الرأي، وتقديم النصيحة بحرص؛ لخطورة الأمر وشدته، وعظم الابتلاء وقسوته؛ إذ يتعلق بمصير القوم، وعاقبة أمرهم ومآله، وهو الخيرات الثلاث التي أمر الله هذا النبي أن يختار واحدة منها لقومه.

وهكذا الأمر في قصة المرأة التي وعظت عالمًا، حيث دخلت هذه الأحرف في الفعل المضارع من الاستفتاء ثلاث مرات، على هذا النحو: "أستفتيه –تستفتيك – أستفتيك"، وفي الفعل الماضي من الاستعارة مرة واحدة: "إني استعرت من جارة لي حليًا"، وذلك لتقرير المعنى وتوكيده؛ لدلالتها على أنها جادة في طلب الفتيا، شديدة الحرص على سماع حكمه، وأنها عاكفة على لزوم بابه، حتى يتحقق مقصودها، ولا شك في أن هذا التقرير والتوكيد مما يقتضيه مقام النصح والإرشاد، والوعظ والتذكير؛ لدلالة كل هذه المعاني على تمحض النصيحة، وخلوصها، وحرص الناصح على المنصوح.

المبحث الثاني
التوكيد بصيغ الأسماء

تقرير المعنى وتوكيده بإيثار التعبير بالصيغ الاسمية خاصة يدور في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل في الغالب على الزيادة في مبنى الكلمة؛ إما بإيثار وزن من أمثلة المبالغة خاصة، وإما بزيادة حرف أو أكثر في بنية الكلمة، وإما بتضعيف عين الكلمة، وإما بتكرار بعض أصواتها، وإما بالعدول من صيغة إلى صيغة أخرى، فيتحصل من مجموع ذلك خمس صور، هي التي تتمحور حولها الدراسة في هذا المبحث بمشيئة الله تعالى.

الصورة الأولى
التوكيد بأمثلة المبالغة

أمثلة المبالغة على تنوعها وتعددها تعمل على وكادة المعنى، وتقرير مضمونه، نظرًا لإفادتها المبالغة، ودلالتها على الكثرة المنبسقة من زيادة مبناها(١)، ومن المعلوم المقرر لدى العلماء: أن زيادة المبنى إنما تكون من قوة المعنى، ومن كثرته المقتضية للتقرير والتوكيد(٢).

واتكاء البيان النبوي عمومًا، والقصص النبوي عن بني إسرائيل خصوصًا على هذه الوسيلة التعبيرية في تقرير معانيه وتحقيق غاياته وأهدافه يجئ متناغمًا ومتساوقًا مع عناصر السياق وعوامله، متطابقًا مع قرائن الأحوال ومقتضياتها، وذلك على الوجه الذي سيأتي تفصيله وبيانه في دراسة المواضع وتحليلها.

وأكثر أبنية المبالغة دورانًا واستعمالًا في هذا النوع من القصص هو مثال: "فعيل"؛ فقد جاء في مواضع عدة، ومن جذور لغوية مختلفة، كقوله – صلى الله عيه وسلم– من قصة أصحاب الأخدود: "وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة..."(٣) الحديث، وقوله ﷺ في قصة موسى والخضر عليهما السلام: "قام موسى خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل، أي الناس أعلم؟، فقال: أنا، فعتب الله

---

(١) ينظر شرح المفصل لابن يعيش ٧٠/٦ وما بعدها–مكتبة المتنبي–القاهرة، بدون تاريخ، وشذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام صـ٣٩٢، تحقيق: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، سوريا، بدون تاريخ.

(٢) ينظر الخصائص لابن جني ٢٦٦/٣ وما بعدها.

(٣) الحديث سبق تخريجه.

عليه؛ إذ لم يرد العلم إليه"[١]، وقوله ﷺ في قصة المرأة التي اتخذت رجلين من خشب: "كانت امرأة من بني إسرائيل قصيرة تمشي مع امرأتين طويلتين، فاتخذت رجلين من خشب"[٢]، وقوله في قصة الرجل الذي تسلف رجلًا آخر ألف دينار: "كفى بالله شهيدًا"، حين قال له الرجل المقرض: "ائتني بالشهداء أشهدهم"، وقوله: "كفى بالله وكيلًا" حين قال له المقرض –أيضًا–: "فائتني بالكفيل"[٣]، وكذا قوله ﷺ في قصة بناء نبي الله سليمان عليه السلام بيت المقدس، وسؤاله ربه خلالًا ثلاث: "وسأل الله حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه[٤] إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه"[٥].

فإن إيثار التعبير بمثال "فعيل" على اختلاف صيغه في كل المواضع

---

(١) الحديث سبق تخريجه

(٢) الحديث سبق تخريجه

(٣) الحديث سبق تخريجه

(٤)النهز: الدفع، يقال نهزت الرجل أنهزه، إذا دفعته، ونهز رأسه، إذا حركه، يريد أنه من خرج إلى المسجد، ولم ينو بخروجه إلا الصلاة، لسان العرب، مادة نهز، ٥/ ٤٢١.

(٥) الحديث أخرجه النسائي في سننه، كتاب المساجد، فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه، حديث رقم ٦٩٣، ٣٤/٢، وابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس، حديث رقم ١٤٠٨، ٤٥٢/١، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ، وأحمد في مسنده، حديث رقم ٦٦٤٣، ١٩٨/٦: ٢٠٢، وابن حبان في صحيحه كتاب الصلاة، باب المساجد، حديث رقم ١٦٣٣، ٥١١/٤، ٥١٢، وكتاب التاريخ، باب من صفته ﷺ وأخباره، حديث رقم ٦٤٢٠، ٣٣٠/١٤، ٣٣١، والحاكم في مستدركه، كتاب الإيمان، حديث معمر، رقم ٨٣، ٨٤/١، وكتاب التفسير، تفسير سورة ص، حديث رقم ٣٦٢٤، ٤٧١/٢، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.

المذكورة إنما هو للمبالغة في تقرير المعنى وتوكيده، وتحقيق المقام وتشديده؛ أما في قصة أصحاب الأخدود فإن إيثار "جليس" في قوله: "فسمع جليس للملك كان قد عمي" إنما أفاد هذا المعنى من دلالة هذا البناء على كثرة مجالسة هذا الرجل للملك، وإيحائه بطول ملازمته إياه، وعدم انفكاكه عن صحبته؛ فقد كان من خواصه، ومن صفوة مجلسه؛ وليس "جليس" –هنا– بمعنى المجالس الذي لا مبالغة فيه، كما ذهب إليه ابن الحاجب(١)؛ فإن عوامل السياق وقرائن الأحوال تأباه؛ بدلالة دخول لام الاختصاص على لفظة الملك في قوله: "فسمع جليس للملك".

وبدلالة علم الملك به، واطلاعه على جميع شئونه وأحواله، المدلول عليه من قوله في سياق القصة نفسها: "فأتى الملك، فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟".

وبدلالة مقتضى حال هذا الأعمى في الغنى والثراء، المشار إليه بقوله: "فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ههنالك أجمع إن أنت شفيتني".

كما تأباه طبيعة المقام الذي جاء في تحدي هذا الملك الطاغية، وإظهار مدى زيفه، وكذبه في إدعائه الربوبية؛ لما في ترجيح حمل الكلمة وإلحاقها بأبنية المبالغة من زيادة تقرير وتأكيد على عجز هذا الملك، وتصوير شدة ضعفه، وأن ادعاءه ما ليس له من الربوبية لا يقوم على أساس؛ لعدم قدرته وتمكنه من أن يشفي خاصة جلسائه، مع طول الملازمة، وكثرة المجالسة.

---

(١) ينظر الكافية في النحو بشرح الرضي٢/٢٠٢.

وأما في قصة موسى والخضر –عليهما السلام– فقد جاء التعبير بلفظ "خطيبًا"، على وزن "فعيل"، من أبنية الزيادة، في قوله: "قام موسى خطيبًا في بني إسرائيل"؛ للمبالغة في تمكنه –عليه السلام– من هذا الفن، والتأكيد على كثرة تمرسه فيه، حتى صار له سجية وطبعًا، وله فيه على القلوب سطوة ووقعًا، ودليل هذا من قرينة السياق، وذلك في قوله ﷺ في إحدى روايات الحديث: "موسى رسول الله عليه السلام، قال: ذكَّر الناس يومًا، حتى إذا فاضت العيون، ورقت القلوب ولى، فأدركه رجل، فقال: أي رسول الله هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا"، فإنه ظاهر الدلالة في هذا المعنى، والله أعلم.

وأما صيغتا المبالغة من القصر والطول في قوله ﷺ من قصة المرأة التي اتخذت رجلين من خشب: "كانت امرأة من بني إسرائيل قصيرة، تمشي مع امرأتين طويلتين" فللمبالغة في الدلالة على فرط قصر القصيرة، وطول المرأتين الطويلتين، والتأكيد على أن الطول والقصر فيهن كان بيناً ظاهرًا، وتحقيق هذا المعنى من وقوع المطابقة بين الطول والقصر في سياق الكلام، والتي تعكس البون الشاسع، والهوة السحيقة بين الوصفين.

ومن اتخاذ المرأة القصيرة رجلين من خشب؛ لتخفي بهما فرط قصرها، وقد انطالت هذه الخدعة على الناس فلم يعرفوها، كما ثبت في الحديث، وحصل بها من الفتنة والإغواء ما حذر النبي ﷺ من الوقوع في مثله؛ ليتقرر في النفوس ما أراده النبي ﷺ ورمى إليه من التحذير من فتنة النساء، ومن تشبه الفقراء بالأغنياء الذي كان سببًا في دخول الهلاك والفساد على بني إسرائيل، وهكذا الشأن في سائر المواضع الأخرى، تجد دلالة وزن المبالغة "فعيل" في هذه الأمثلة على التقرير والتوكيد راسخة، وتناغمها مع السياق والمقام ظاهرًا.

أما وزن "فعّال" فجاء في موضعين اثنين من القصص النبوي عن بني إسرائيل، ومن قصة الثلاثة المتكلمين في المهد، وفي قصة الطفل الرضيع الذي ترك ثدي أمه، وراجعها في دعائها خاصة، وذلك قول أبي هريرة: "فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى ارتضاعه بأصبعه السبابة في فيه فجعل يمصها"، وقوله ﷺ على لسان الطفل الرضيع: "إن ذلك الرجل كان جبارًا، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله"(١)، وذلك للمبالغة في تقرير المعنى وتوكيده، وتحقيقه وتشديده؛ لدلالة البناء في كل من لفظتي "السبابة – وجبارًا" على الكثرة والثبوت، وطول الملازمة، فما سميت الأصبع التي تلي الإبهام إلا من كثرة اقترانها بهذا الوصف، وطول ملازمتها إياه.

وهذه التسمية إنما هي باعتبار العرف الشائع بين الناس حيال هذا المسمى، وإلا فحاشاه ﷺ عن مثل هذا؛ لأنه مما يتنزه عنه أفاضل الناس، فضلًا عن رسول رب الناس.

ومجئ لفظة "جبارًا" على زنة هذا المثال إنما هو من اقتضاء المقام ذلك؛ فإن مقام القصة مقام إنكار: إنكار الطفل الرضيع دعاء أمه له بأن يكون مثل صاحب المركب الفاره والشارة الحسنة، وإنكار الأم مراجعة طفلها إياها في دعائها له؛ بدلالة قوله ﷺ في سياق القصة: "فهنالك تراجعًا الحديث" فثمت رد ورفض، وشد وجذب، وعدم تسليم كل واحد من الأم وطفلها للآخر بما دعا به؛ إذ يجعل إيثار التعبير بوزن المبالغة من الكلمة المذكورة لإنكار الطفل

(١) الحديث سبق تخريجه، وفي الحديث دلالة على أن البشر طبعوا على إيثار الأولاد على الأنفس بالخير؛ لطلب المرأة الخير لابنها، ودفع الشر عنه، ولم تذكر نفسها / فتح الباري لابن حجر، ٦/ ٤٨٤.

على أمه، ومراجعته إياها في دعائها وجهًا، وعليها دليلًا وبرهانًا، وينفي الشبهة عنها؛ لما فيه من المبالغة في التأكيد على غاية عتو هذا الرجل وتجبره، والدلالة على نهاية ظلمه وبغيه، وأنه ذو قدم راسخة في هذا الوصف، وهذا كله من دلالة البناء على الكثرة والثبوت، وإيحائه بطول الملازمة، وقرينة هذا من إيثار صيغة الماضي من الكون في الجملة موضع الشاهد: "إن ذلك الرجل كان جبارًا "، والضاربة بجذورها في عمق الزمن السحيق.

ولا شك في أن هذا كله مما يصب في خدمة الغرض العام من القصة، ويدور في إطار تحقيق هدفها الشامل، وهو تصوير كمال القدرة الربانية، وتجاوزها حدود السنن المعهودة زمانًا ومكانًا، حيث أنطق الطفل الرضيع في غير أوان نطقه.

فإذا تجاوزت معي الوزن السابق إلى مثال "فعول" من أمثلة المبالغة وجدته جاء بصيغة واحدة، في عدة مواضع من قصة عجوز بني إسرائيل خاصة، وذلك في قول النبي ﷺ للأعرابي: "أعجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل؟"، وفي قول أصحابه: "يا رسول الله ! وما عجوز بني إسرائيل؟"، وكذا في قوله ﷺ من القصة نفسها: "قالوا –أي علماء بني إسرائيل– ما تدري أين قبر يوسف إلا عجوز بني إسرائيل"(١)

فعجوز على وزن فعول، قصد من وراء التعبير به المبالغة في الدلالة على كبر سن هذه المرأة المذكورة في الحديث، والتأكيد على فرط هرمها

(١) الحديث أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، تفسير سورة الشعراء، حديث رقم٣٥٢٣، ٢/ ٤٣٩، وكتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ذكر يوسف بن يعقوب صلوات الله عليهما، حديث رقم٤٠٨٨، ٢/ ٦٢٤.

وشيخوختها، وأنها قد عرفت بهذا الوصف، واشتهرت به، وصارت علمًا ورأسًا فيه، حتى أضحت هي المقصودة به حين إطلاقه؛ فإن العجوز هي الشيخة الهرمة، أو المرأة الكبيرة المسنة.(١)

وفي إعادة ذكر تلك المرأة بهذا الوصف وتكراره مزيد تقرير وتأكيد على انحطاط همة الأعرابي، وقصر نظره، حيث لم يتمن على رسول الله ﷺ ما تمنته هذه العجوز على موسى –عليه السلام– رغم كبر سنها، وتقدم عمرها، وضعف قواها.

وهكذا الشأن في مثال "فعِل" بكسر العين، جاء هو الآخر في موضع واحد من القصص النبوي عن بني إسرائيل، وذلك قوله ﷺ في قصة الكلمات الخمس التي أمر الله نبيه يحيى –عليه السلام– أن يعمل بهن، ويأمر بني إسرائيل ليعملوا بهن –أيضًا–: "وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله، بذهب أو ورق، قال: هذه داري، وهذا عملي، فاعمل وأد إلى، فجعل يعمل ويؤدي إلى غير سيده"(٢)، فالورق من أبنية المبالغة، وهو الدراهم الفضية(٣)، وإنما أوثر التعبير به في مقابلة الذهب دون لفظ الفضة؛ للدلالة على كثرتها، والتأكيد على صفائها وخلوصها، وهذا مما يتطابق مع واقع الحال، فقد كانت الدراهم الفضية أكثر تداولًا بين الناس في تعاملاتهم من الدنانير الذهبية، وفي هذا إيحاء بالغ بلؤم هذا العبد، وخسة طبعه، وتأكيد ظاهر على غاية نكرانه، وهكذا حال العبد المشرك مع خالقه المتفضل عليه بكافة النعم، وصنوف المنن.

---

(١) ينظر لسان العرب–عجز ٤/٢٨١٩.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

(٣) ينظر لسان العرب، مادة ورق، ١٠/ ٣٧٥.

وحين نأتي في ختام هذه الصورة إلى وزن "مفعال" بكسر الميم، وسكون الفاء نجد أنه قد برز في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل في لباس لفظة واحدة جاءت في عدة معارض، وهي كلمة "منشار"، وذلك في قوله ﷺ من قصة أصحاب الأخدود: "فجئ بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق[1] رأسه فشقه، حتى وقع شقاه، ثم جئ بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه، حتى وقع شقاه"[2]، وقوله ﷺ في قصة ذكر طرف من ابتلاءات من كان قبلنا من الأمم: "كان الرجل قبلكم يؤخذ، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين، ما يصده ذلك عن دينه".

فإن إيثار آلة النشر على وزن هذا المثال هو الأقوى في تصوير عظم الابتلاء، وتجسيد شدة الكرب، وهول الموقف، وكبر الفتنة في الدين التي تعرض لها أهل الحق ممن كانوا قبلنا، ومع ذلك لم يهنوا، ولم يتراجعوا عن شيء من الحق الذي آمنوا به، ولم يتهاونوا فيه، وإنما واجهوا أهل الباطل في قوة وصلابة، وعزة وشموخ؛ لما في هذا المثال من المبالغة في تأكيد شدة القطع وقوته، والدلالة على أن هذا الوصف لازم وثابت له، ولا ينفك عنه بحال، وهذا –لا شك– يعمل عمله في مقام تثبيت أهل الحق والإيمان من هذه الأمة؛ لما فيه من الربط على قلوبهم، والشد من عزائمهم في مواجهة هذا الشدائد والفتن التي يتعرضون لها على أيدي الطغاة من حين لآخر.

---

(١) مفرق الرأس، بفتح الراء وكسرها: وسط الرأس، وهو الذي يفرق فيه الشعر، اللسان، فرق ٣٣٩٩/٥.

(٢)الحديث سبق تخريجه.

الصورة الثانية
التوكيد بزيادة مبنى الكلمة

من المعلوم أن الزيادة في بنية الكلمة إنما تكون من كثرة المعنى وقوته(١).

وهذا النوع من الزيادة والمقصود بالدراسة –هنا– ليس له صورة واحدة مطردة، وإنما تتعدد صور الزيادة وتتنوع بحسب المزيد، وبحسب موقعه؛ لأن مرد هذه الزيادة هو السماع عن العرب، وما أثر عنهم في لسانهم، ومن ثم أفردت له صورة مستقلة.

وقد جاء هذا النوع من الزيادة في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل على أنماط مختلفة، وفي لباس عدة أوزان، كبناء "فعلاء" بضم الفاء، وفتح العين، وزيادة الألف والهمزة في آخره، وهو من أبنية الكثرة(٢)، ككلمة "عشراء" في قوله ﷺ من قصة الأبرص، والأقرع، والأعمى: "فأتى الأبرص... قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل، فأعطى ناقة عشراء، فقال: بارك الله لك فيها" وإنما زيدت الألف والهمزة في آخر "عشراء" مبالغة في التأكيد على ظهور حملها، والدلالة على أنها مضى لحملها وقت طويل، حتى كادت أن تضع؛ فإن "العشراء" هي الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر، وهي من أنفس المال وأثمنه، وقيل: هي التي مضى لحملها ثمانية أشهر، والأول أولى؛ لمكان الزيادة في اللفظ، قال ابن منظور: "العشراء: هي الناقة

---

(١) ينظر الخصائص لابن جنى ٢٦٨/٣.

(٢) ينظر ضياء السالك إلى أوضح المسالك، تأليف: محمد عبدالعزيز النجار٢٠٥/٤، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

التي مضى لحملها عشرة أشهر، وقيل: ثمانية، والأول أولى؛ لمكان اللفظ"(١).

ومن ذلك بناء "فُعْلان" من أبنية الكثرة(٢)-أيضًا-، بزيادة الألف والنون في آخره، كـ"عريانا" في قوله ﷺ من قصة الحجر الذي فر بثوب موسى عليه السلام: "وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله، وأبرأه الله مما يقولون"(٣) فإن زيادة الألف والنون في آخر "عريانًا" للمبالغة والتأكيد على تجرد موسى - عليه السلام- من كافة أنواع اللباس، الشعار منها والدثار، وتقرير ظهور عورته ظهورًا كاملًا أمام بني إسرائيل؛ إذ هو الأظهر في نفي التهمة عنه، الأوفق بمقام تبرئته -عليه السلام- مما ألحقوه به من العيب والآفة في جسده، حسبما جاء في صدر القصة من قولهم:- "ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص، وإما أدرة، وإما آفة "؛ لدلالته على انتقاء الحجب دون نظرهم إليه، وزوال كافة الموانع دون اطلاعهم على سلامته وطهارته من جميع أنواع العيب التي نسبوها إليه، وقرينة هذا ما جاء في سياق القصة بعد ذلك من قوله: في إحدى الروايات:- "حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوأة موسى، فقالوا: والله ما بموسى من بأس"، وقوله في الرواية

---

(١) لسان العرب لابن منظور، عشر ٤/٢٩٥٤.

(٢) ينظر ضياء السالك إلى أوضح المسالك ٤/صـ ٢٠٠-٢٠٤.

(٣) الحديث سبق تخريجه، وقد جاءت هذه الكلمة -أيضًا-في قوله ﷺ في قصة اغتسال أيوب -عليه السلام-"بينما أيوب يغتسل عريانًا خر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثي في ثوبه....."الحديث، أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله-تعالى-: "وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين"، حديث٣٣٩١صـ٤٤٣، والنسائي في سننه، كتاب الغسل والتيمم، باب الاستتار عند الاغتسال، حديث رقم ٤٠٩، ١/ ٢٠٠.

التي ذكرتها أولًا:"فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون ".

ومن ذلك –أيضًا– بناء "فُعُول" بضم الفاء والعين، من أبنية الكثرة، وذلك كلمة "غُلُول" في قوله ﷺ من قصة النبي الذي حبست عليه الشمس، حتى فتح الله له: "فجمع الغنائم، فجاءت – يعني النار – لتأكلها، فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غلولًا، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فلتبايعني قبيلتك، فلزقت يد رجل أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلول"[1] فإنما أوثر "الغلول" وهو الخيانة في المغنم خاصة[2]؛ بزيادة الواو وتكرار صوت اللام؛ لتحقيق أمر السرقة، وتأكيد وقوعها، وتقرير ظهورها ظهورًا بينًا لا يخفى.

كما أن في تسمية هذا النوع من السرقة دون غيره "غلولًا" بإيثار هذا المثال الدال على الكثرة والتأكيد تناغمًا وتوافقًا مع المقام الذي جاء في تصوير خطر الغلول، وبيان أثره في عدم قبول الأعمال؛ لدلالته على أن السرقة من الغنيمة خاصة هي من أعظم أنواع الخيانة، وأشنع صور السرقة، وأنها بلغت في الفظاعة حدًا صارت به جنسًا مستقلًا؛ بقرينة تسميتها غلولًا، ثم تعريف الغلول تعريف الجنس في قوله: "فيكم الغلول" في موضعين من القصة.

وبقرينة ما جاء في سياق القصة من عدم قبول جهاد القوم كلهم، كما ينبئ عنه امتناع النار عن أكل الغنائم والتهامها في قوله: "فجاءت –يعني النار– لتأكلها فلم تطعمها" كما جعل أكلها إياها بعد ما رد الثلاثة ما غلوه علامة على القبول، وذلك على الوجه الذي ثبت في نهاية القصة الكريمة.

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) ينظر فتح الباري لابن حجر، ١٣/ ١٦٦.

الصورة الثالثة
التوكيد بتضعيف عين الكلمة لله

لا يختلف التقرير والتوكيد بتضعيف عين الكلمة في الأسماء عنه في الأفعال، من حيث إفادته معنى الكثرة والقوة، إلا أنه في الأسماء أقل دورانًا منه في الأفعال، ولعل ذلك يرجع إلى طبيعة الفعل نفسه، من حيث يمثل الزمن جزءًا أصيلًا من معناه، وطبيعة الزمن تقتضي الحركة والتتابع التي يتولد عنها -بلا ريب- معنى الكثرة، بخلاف الأسماء فإن دلالتها على الثبوت والدوام قد يكون عائقًا دون تحقق هذه الدلالة في كثير من المواضع.

ومن أبرز المواضع التي ضعفت فيها عين الاسم لهذا المعنى، قوله ﷺ في سياق قصة الذين دخلوا بيت المقدس من بني إسرائيل يزحفون على أدبارهم: "قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجدًا، وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم "فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة "[1] فإن تضعيف العين من "سجدًا" الذي جاء على وزن بناء من أبنية الكثرة فيه تأكيد الأمر بالدخول على هذه الهيئة، وزيادة تقريرها، وأن يكون الخرور بقوة، ومن دون تردد أو تلكؤ، وعلى نحو من التضرع التام، والتذلل الخالي من الكبر والاستعلاء، لما في التضعيف من دلالة على الكثرة المقتضية للمبالغة والتوكيد.

وإنما خوطبوا بالأبلغ الآكد؛ لأنه الذي يتطابق مع مقتضى حالهم، ويتوافق مع طبائعهم الملتوية التي ما تفتأ تتحايل على أوامر الله، ولا تنصاع لتعاليمه، وقرينة هذا من سياق القصة نفسها، فقد جاء ختامها مصورًا لهذه الطبائع المتمردة التي واجهت أمر الله بالاستعلاء والاستهزاء: "فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة".

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

ومن هذه المواضع -أيضًا- قوله ﷺ في سياق قصة موسى والخضر -عليهما السلام-: "فلما انتهيا إلى الصخرة إذا رجل مسجّى بثوب، فسلم موسى، فقال الخضر: أني بأرضك سلام؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم"(١) فاسم المفعول "مسجى" جاء مضعف العين، وهي الجيم منه؛ لتأكيد سبوغ الثوب ووفوره، وتقرير شموله الجسد كله بالتغطية والستر وتحقيقه؛ لما في التضعيف من دلالة على الكثرة المقتضية للمبالغة والتأكيد، وبرهان هذا المعنى من سياق الكلام، فقد جاء في رواية أخرى: "إذا رجل مسجى عليه بثوب"(٢)؛ بزيادة حرف الاستعلاء الذي يقرر المعنى السابق ويؤكده.

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر حديث رقم ٢٣٨٠، ٤/١٨٥٠.

الصورة الرابعة
التوكيد بالتكرار الصوتي

سبق أن بينت مفهوم التكرار الصوتي في المبحث المختص بإفادة صيغ الزمن معني التقرير والتوكيد، وهو لا يختلف في مفهومه –هنا– عنه في مفهومه هناك.

وقد جاء –هنا– على نحو من القلة والندرة كما كان الحال أيضا– في سابقه هناك، إذ لم يخرج في صورة الاسم في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل إلا في بعض المواضع، كالذي تجده في قصة أصحاب الاخدود، في قول النبي ﷺ حكاية عن الملك: "فدفعه –أي الملك– إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور، وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه، وإلا فاقذفوه"(١)، فإن تكرار صوت القاف والراء في لفظه" قرقور"؛ لتأكيد عظم السفينة، وضخامتها، وتقرير فرط طولها وامتدادها؛ إذا القرقور: هو السفينة العظيمة، أو الطويلة(٢)، وليس المراد به السفينة الصغيرة حسبما ذهب إليه بعضهم(٣)؛ فإن هذا مما يتنافى مع مقتضى حال الملوك في العظمة والكبرياء، كما يتنافى مع طبيعة المقام الذي خرج مخرج التحدي والمطاولة؛ فإن اختيار الملك سفينة عظيمة على هذا النحو الذي تصوره الكلمة هو الأقوى في التحدي؛ لدلالته على قوة الملك واقتدار السلطان؛ وهذا مقصود إليه في هذا

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري بن الأثير (ت: ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى– محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية–بيروت، ١٣٩٩هـ–١٩٧٩م، ٤/ ٤٨، وينظر لسان العرب، ماة قرر، ٥/ ٩٠.

(٣) ينظر شرح النووي على مسلم، ١٨/ ١٣٣.

المقام من قبل الملك وأعوانه؛ بعثا للخوف، وإثارة للرهبة في قلب الغلام، وقلوب من حوله من الناس، حتى لا يتسرب الإيمان بالله رب الغلام إلى قلوبهم.

وبرهان هذا التحليل من امتداد النفس نوعا من الامتداد بصوت الواو في الكلمة موضع البحث وإشباعه، ومن تكرار صوت القاف والراء منها، فإنه من كثرة المعنى ووفرة الدلالة.

ومن سياق القصة نفسها، وذلك من قوله خاصة: "فدفعه إلى نفر من أصحابه"، والنفر: الجماعة من العشرة إلى الثلاثين(١)، وهذا العدد مما يستلزم كبر السفينة نوعا من الكبر.

وكذلك من قوله –أيضًا–: "وتوسطوا به البحر" فإن توسط البحر لا يتأتى إلا باستخدام السفن الكبيرة؛ إذ هي التي لها القدرة على خوض عباب الماء، ولجات اليم العميقة.

وكالذي تجده في قول النبي ﷺ من القصة ذاتها، وذلك في إحدى رواياتها: "فقيل للملك: أجزعت أن خالفك ثلاثة؟ فهذا العالم كلهم قد خالفوك، فخذ أخدودا، ثم ألقى فيها الحطب والنار"(٢)، فقد اجتمع إلى نصب كلمة "أخدودا"على شبه المصدرية في توكيد المعنى وتقريره تكرار صوت الدال في أجزاء الكلمة، وزيادة الواو، وامتداد النفس بصوتها وإشباعه؛ إذ هو المطابق لمقتضى حال الملك الكافر في القوة والتمكن، وكثرة الآلات والوسائل، وشدّة البطش والغضب، وقوة الغيظ والحنق من إيمان الناس بالله رب الغلام، وكفرهم بربوبيته.

---

(١) ينظر لسان العرب لابن منظور، نفر،٦/٤٤٩٨.

(٢) سنن الترمذي، كتاب التفسير، تفسير سورة البروج، ٥/ ٤٣٧: ٤٣٩.

كما يتطابق –من وجه آخر– مع مقتضى حال المؤمنين في الكثرة والثبات على الحق والإيمان، ويتوافق مع مقام القصة والغرض من سوقها، وهو تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب، وصبرهم وثباتهم؛ لدلالة الزيادة في مبنى الكلمة بالواو وتكرار صوت الدال على الكثرة التي تستلزم إلى جانب النصب على شبه المصدرية التقرير والتوكيد، وفي هذا إيحاء قوي بطول الأخدود وامتداده، ونداء على شدّة ضيقه، ويؤيد هذا أنّ الأخدود: هو الشق المستطيل الغامض في الأرض، وهذا لا يكون إلا من ضيقه وعُمقه، ودليل هذا ما ورد من أنّ طول الأخدود كان أربعين ذراعًا في اثنى عشر(١).

وشبيه بتكرار لام الكلمة في الموضع السابق قوله ﷺ في قصة النبي الذي حُبست عليه الشمس، حتى فتح الله عليه: "فقال: إنّ فيكم غلولا – فقال: فيكم الغلول" حيث تكرر صوت اللام في كلمة "غلول" التي وردت في القصة ثلاث مرات، مع زيادة الواو بينهما، وامتداد النفس بصوت مدّها، وقد سبق تحليل هذه الكلمة في الصورة الثانية من هذا المبحث، فيمكن مراجعتها في موضعها هناك لمن أراد ذلك.

ومن هذه المواضع –أيضا– ما تجده من قول النبي ﷺ في قصة موسى والخضر –عليهما السلام– حين سأل موسى –عليه السلام– عن أعلم أهل الأرض فأجاب بنسبة ذلك إلى نفسه، ولم يرد العلم في ذلك إلى الله –تعالى–، فعتب الله عليه، وأوحى إليه: "إن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك"(٢)

---

(١) ينظر المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، خد ص٢٧٥، والكشاف للزمخشري ٣٧٠/٤، ٣٧١.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

حيث كرر صوت الميم في كلمة "مجمع" الدالة على المكان في الجملة السابقة؛ لتصوير موضع اجتماع الماءين –العذب والمالح [1]، وتأكيد التقائهما فيه على وجه الدقة والتمام، والظهور والوضوح، وعلى نحو فارق مميز؛ فإن الميم من الحروف الشفوية التي تجتمع الشفتان عند النطق بها، وتلتقيان على نحو من الغلق والإحكام، وهذا تعيين دقيق للمكان، وتحديد فاصل له، يزيل اللبس عنه، ويرفع الغبش والغموض من حوله.

وتعيين المكان وتصويره على هذا النحو الدقيق من تكرار صوت الميم، مما يقتضيه المقام، وينادى عليه؛ لأن فيه زيادة تقرير وتأكيد على قلة علم موسى –عليه السلام– وضعفه، وأنه لا يكون إلا من تعليم الله إياه، وإخباره به، ومن ثم كان عليه أن يرد العلم إلى الله حين سأل عن أعلم أهل الأرض.

(١) ينظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القاضى وكِفَايةُ الرَّاضى على تفسير البيضاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (ت: ١٠٦٩هـ)، دار صادر – بيروت، ٦/ ١١٥.

الصورة الخامسة
التوكيد بالعدول عن صيغة إلى صيغة أخرى

العدول باللفظ عن معتاد حاله، والخروج به عن أصل مثاله، وإن كان من أقوى وسائل التقرير والتوكيد، لما فيه من المبالغة في المعنى، والدلالة على الكثرة[1] إلا أنه نادر الوقوع في القصص النبوي عن بني إسرائيل؛ ودليل هذا أني لم أقف له في سياقات هذا النوع من القصص إلا على موضعين اثنين؛ جاء أولهما في سياق قصة الكلمات الخمس التي أمر الله نبيه يحيي -عليه السلام- أن يعمل بها، وأن يبلغها بني إسرائيل ليعلموا بها، وذلك في قوله ﷺ: "وآمركم بذكر الله كثيرا، وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا في أثره، حتى أتى إلى حصن حصين فأحرز نفسه فيه"[2] فإن العدول عن صيغة اسم الفاعل "مسرعين" إلى صيغة اسم المصدر "سراعا" النائب عن مصدره؛ للمبالغة في الدلالة على فرط السرعة، ونهاية العدو، والتأكيد على شدة طلب العدو له، وتصوير حرصه على دركه، واللحاق به، وقرينة هذا من وقوع اللفظة المعدولة في موقع الحال، ومن مجيئها على وزن " فعال"بزيادة الألف الدالة على المفاعلة.

ولا شك في أن العدول بالكلمة عن أصل مبناها على النحو الموضح سلفا، وما وراء ذلك من إيحاءات ومعان لمما تقتضيه مقامات النصح والإرشاد، والوعظ والتذكير؛ لأنها تتطلب مزيدا من التقرير والتوكيد، والتحقيق والتشديد حتى يؤتي النصح أكله، ويثمر ثمرته؛ لدلالة كل ذلك على حرص الناصح على منصوحه، وندائه على أهمية الأمر الموجه إليه، والمؤكد عليه، وهو -

---

(١) ينظر الخصائص لابن جني ٣/٢٦٧ – ٢٦٨.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

هنا- ذكر الله -تعالى- وماله من أثر قوي في حفظ الإنسان، وتحصينه من غوائل الشيطان وعواديه.

وأما عن الموضع الثاني فقد جاء في قصة الأبرص، والأقرع، والأعمى، وذلك في قوله ﷺ حكاية عن الأبرص: "إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر" في رده على الملك حين ذكره بسابق عهده من البرص والفقر: "كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيرا فأعطاك الله؟" فإن أصل الكلام قبل العدل: إنما ورثت هذا المال عن آبائي وأجدادي كبيرا عن كبير(١).

وإنما عدل عن الأصل إلى ما جاء عليه نسق الحديث؛ لاقتضاء المقام ذلك، إذ هو في رد الأبرص قول الملك فيه، وادعاءه سابق معرفته به، وإخراج الكلام هذا المخرج هو الأبلغ في الرد، الأقوى في النفي؛ لدلالة العدول على عراقة الأبرص في العز والشرف، وامتداد جذوره في المكانة والسؤدد؛ وقد تعانق مع العدول في تقرير الرد وتوكيده إخراج الكلام مخرج القصر بإنما، وما وراءه من دلالة على ظهور الأمر ووضوحه.

(١) ينظر لسان العرب ـــ كبر-٥/٣٨٠٨

المحور الثالث
التوكيد بأساليب التناسب

يختص هذا المحور بدراسة الأساليب التي تفيد التوكيد أصالة، حيث يمثل هذا العنصر جزءا من طبيعة دلالتها الرئيسة، ومكونا من مكونات بنيتها التي لا تنفك عنها أبدا، وهذه الأساليب كثيرة ومتنوعة، ومن أبواب مختلفة، وسوف يتناول البحث منها–هنا– ما يقرب من أحد عشر أسلوبا، هي صور الدراسة في هذا المحور إن شاء الله تعالى.

الصورة الأولى

التوكيد بأسلوب القصر[1]

القصر على اختلاف طرقه، وتعدد أساليبه من أقوى وسائل التقرير والتوكيد في الكلام العربي عموما، وفي القصص النبوي عن بني إسرائيل خصوصا؛ لأن جملة القصر -كما ذكر العلماء[2]-في قوة جملتين: إحداهما مثبتة، والأخرى منفية؛ فهو يقوم على إثبات المعنى لشيء واحد، ونفيه عما عداه، ومن هنا يتولد التقرير والتوكيد.

وتتعدد طرق القصر، وتتنوع أساليبه تبعًا لتنوع وتعدد وسيلة القصر وأداته؛ فقد يكون القصر بطريق النفي والاستثناء، وقد يكون بطريق "إنما" وهذان هما أشهر طرق القصر عموما، وأكثرها دورانا في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل خصوصا، وقد يكون بطريق العطف، وقد يكون بطريقة التقديم، وقد يكون بتعريف الطرفين، وهذه الثلاثة الأخيرة على قلة، ومن ثم فإن مجال البحث والدراسة في هذه الصورة سوف يتناول هذه الطرق الخمسة المذكورة خاصة؛ إذ هي التي وردت في سياق هذا النوع من القصص النبوي.

---

(١) القصر هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص، مفتاح العلوم السكاكي، صـ ١٣٩، المكتبة العلمية الجديدة، بيروت، بدون تاريخ، والايضاح للخطيب القزويني، صـ ٧١، دار الجبل، بيروت، بدون تاريخ.

(٢) ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر صـ ٣٢٨، وشروح التلخيص ١٦٦/٣، كما ينظر كتاب نظرات في أسلوب الانشاء، والقصر د. محمد إبراهيم عبد العزيز شادي صـ ١٠٥، طبعة ١٩٩١م

أولاً: "التوكيد بطريق القصر بالنفي والاستثناء"

القصر بطريق النفي والاستثناء من أقوى الوسائل وأدخلها في باب تقرير المعاني وتوكيدها؛ لأنه يستخدم في الأمر غير المعلوم الذي يجهله المخاطب وينكره، أو لما ينزل هذه المنزلة[1] وذلك حين يكون المقصود قصر الصفة على الموصوف، أو الموصوف على الصفة، قصرا حقيقيًا أو إضافيا، أو غير ذلك من أقسام القصر باعتباراته الأخرى.

والذي يتأمل هذه الوسيلة التقريرية يجد أن تنوع مواقعها هو أظهر سماتها في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل؛ فقد تستهل به القصة النبوية، وذلك –خاصة– في القصص التي تتضمن أحداثا غريبة، وأمورا عجيبة، تجري على خلاف العادة، وتمضي على غير السنن المعهود، وذلك كما في قصة الثلاثة المتكلمين في المهد، في قول النبي ﷺ في مطلع القصة: "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى بن مريم، وصاحب جريج... وبينا صبي.."[2]الحديث.

فلما كان تكلم الصبيان في المهد من الأمور الموغلة في الغرابة المثيرة لغاية الدهشة والتعجب؛ نظرا لجريانها على خلاف المعهود؛ إذ لم يعهد الناس صبيا رضيعا يتكلم، لذا جاء التوكيد بأسلوب القصر في مطلع القصة خاصة، وبطريق النفي والاستثناء الذي يعد أقوى طرق القصر، وأكثرها شيوعا واستعمالا؛ لأنه يجئ في الأمر غير المعلوم الذي يجهله المخاطب وينكره، أو لما ينزل هذه المنزلة متناغما مع المقام، ومتطابقا مع مقتضى الحال؛ فإن الأخبار العجيبة، والأمور المستغربة التي تجري على خلاف العادة تستوجب

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني صـ٣٣٢

(٢) سبق تخريج هذا الحديث.

مزيد تقرير وتوكيد؛ لتأنيس النفوس بها، وإزالة الشبهة عنها، ودفع الشك والريبة من حولها، وبهذا يكون التوكيد بهذه الوسيلة قد جاء متساوقا مع الغرض العام من القصة، وهو تصوير كمال طلاقة القدرة الربانية.

وقد يأتي التوكيد بهذه الوسيلة في ثنايا القصص النبوي عن بني إسرائيل، في وسطه أو في آخره، وهذا هو أكثر أحوالها دورانا، ومواضعه كثيرة، منها: قول النبي ﷺ في قصة الكفل؛ على لسان المرأة حين سألها الكفل عن سبب ارتعادها وبكائها، لما أرادها عن نفسها، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته: "فلما أرادها على نفسها ارتعدت وبكت! فقال: ما يبكيك؟ فقالت: لأن هذا عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة"(١) وقريب من هذا قول النبي ﷺ على لسان المرأة لابن عمها، حين قعد منها مقعد الرجل من امرأته، في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار: "اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه"(٢)حيث قصرت الأولى دافعها إلى ارتكاب الفاحشة على الحاجة، قصر صفة على موصوف، وقصرت الثانية فض الخاتم على كونه بالحق، قصر صفة على موصوف –أيضاً– وجاء النفى والاستثناء طريقا للقصر فيهما؛ للمبالغة في الدلالة على شدة كراهتهما هذا الأمر المنكر الشنيع، والتأكيد على غاية امتعاضهما منه، وأنه مما تأباه فطرتهما وطبيعتهما، وتنكره نفساهما؛ لجريانه على غير المعهود من عفتهما وطهارتهما، وكأنهما بتقرير كلامهما على هذا النحو وتوكيده تريدان أن تحركا في الرجلين نوازع الإنسانية، وتستثيرا فيهما مشاعر الخوف والمراقبة؛ لعلهما أن يستفيقا من غفلتهما، ويتململ ضميرهما

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) الحديث سبق تخريجه، والمعنى: لا يحل لك أن تقربني إلا بتزويج صحيح، وفض الخاتم، كناية عن كسره، والخاتم الفرج، كنت به عن عذريتها، ينظر فتح الباري لابن حجر ٦/٥٠٩

فيتركاهما، وقد كان لهما ما أرادتا، فقام الرجلان عنهما، وأقسم الأول على التوبة فمات من ليلته فغفر له، وترك الثاني لابنة عمه الذهب الذي أعطاها إياه.

ومنها قول النبي ﷺ في قصة الأبرص، والأقرع، والأعمى، على لسان الملك مخاطبا الأبرص: "رجل مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك"(١) فقد قصر الملك صفة التبلغ إلى موطنه على الله – تعالى –، ثم على الأبرص، قصر صفة على موصوف، قصرا حقيقيًا تحقيقيًا بحسب الظاهر؛ وذلك للتأكيد على شدة حاجته، والدلالة على عظم رغبته، والمبالغة في دفع ما عساه أن يقع في نفس الأبرص من تكذيبه؛ وعدم تصديقه إياه فيما أخبربه من حاله؛ ليكون هذا في الابتلاء أوقع، وفي الامتحان أدخل وأصعب؛ وليكون للملك معذره فيما يقدم عليه بعد من أمر، وحجة وبرهانا فيه.

ومن هذه المواضع –أيضًا– قوله ﷺ في قصة موسى والخضر –عليهما السلام– وعلى لسان الخضر خاصة: "يا موسى! ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في هذا البحر" (٢)، وقوله في قصة الكلمات الخمس التي أوحاها الله إلى يحيى بن زكريا–عليهما السلام– وأمره إياه أن يعمل بها، وأن يأمر بني إسرائيل ليعلموا بها: " كذلك العبد لا يحرز نفسه من

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني اسرائيل، حديث ٣٤٦٤،صـ ٤٥٥، ومسلم في كتاب الزهد والرقاق في أوله، حديث ٢٩٦٤ صـ ٨٤١.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الإيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيا في الأيمان، حديث ٦٦٧٢ صـ ٨٥٧، وفي كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى– عليهما السلام–، حديث ٣٤٠١ صـ ٤٤٥،ومسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر، حديث ٢٣٨٠ صـ ٦٨٥.

الشيطان إلا بذكر الله تعالى"[1] وكذلك قوله ﷺ في قصة طواف نبي الله سليمان على مائة امرأة في ليلة، كلهن تأتي لفارس يجاهد في سبيل الله:" فطاف عليهن فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق إنسان"[2]، وقوله ﷺ في قصة تصوير ابتلاءات من كان قبلنا: "والله ليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون[3] وقوله ﷺ في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، فانحدرت صخرة من أعلى الجبل على باب الغار فسدته" فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم"[4] وغير ذلك من المواضع التي كانت وسيلة التوكيد فيها هي القصر بالنفي والاستثناء؛ لاقتضاء المقام ذلك؛ بمعونة القرائن؛ ففي قصة موسى والخضر –عليهما السلام– قصر مقدار ما

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، حديث ٦٦٣٩صـ٨٥٤، ومسلم في كتاب الأيمان، باب الاستثناء، حديث١٦٥٤صـ٤٨٠، وذكر غير واحد من المفسرين أن الشق المذكور هو الجسد الذي ألقي على كرسيه، وقيل: إن المراد بالجسد المذكور شيطان، وهو المعتمد، ينظر تفسير الكشاف الزمخشري ٩٤/٤، الطبعه الثالثة ١٩٨٧م، دار الريان للتراث والبيضاوي٥/ ٢٩_٣٠ ط الأولى ١٩٩٨م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) الحديث أخرجه البخاري، في كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، حديث ٦٩٤٣ صـ٨٨٩، وأبو داود في كتاب الجهاد، باب في الأسير يكره على الكفر ٤٧/٣ حديث ٢٦٤٩، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية_ صيدا_ بيروت.

(٤) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، حديث ٣٤٦٥ صـ ٤٥٦، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، حديث ٢٧٤٣ صـ ٧٧٩

نقص علمه –أي الخضر– وعلم موسى عليه السلام من علم الله على مثل ومقدار ما نقص العصفور الذي وقع على حرف السفينة التي ركبوها، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، ولا شك في أن موسى عليه السلام لا ينكر هذا ولا يجهله، ولكن الخضر نزله منزلة المنكر؛ حين آثر طريق النفي والاستثناء؛ لما سيبدو عليه من أمارات الإنكار، وعدم القبول؛ لما سيقف عليه بعد ويراه من أحداث عجيبة، وأمور منكرة غريبة –بحسب الظاهر–على يد الخضر –عليه السلام– فكأن الخضر أراد باستخدام الأبلغ الآكد أن يمهد لتلك الأحداث التي سيقابلها موسى –عليه السلام– بالإنكار والرفض، وأن يوطن نفسه ويهيئها لقبولها، وقرينة هذا من سياق الكلام، فقد قال له –أولا: "يا موسى! إني على علم من علم الله –تعالى– علمنيه، لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله –تعالى– علمكه الله لا أعلمه" فإنه ظاهر الدلالة في تأييد هذا المعنى الذي نحا إليه البحث في التحليل.

ومن مقتضى الحال –أيضا–؛ وذلك لما علم من حال موسى عليه السلام بحكم الجبلة من سرعة الغضب، وعدم الصبر على رؤية هذه الوقائع التي تبدو في ظاهرها مخالفة لما جاءت به الشريعة، وهذا ما كشف عنه نسق القصة في أحداثها ومواقفها بعد ذلك.

وكذلك كان القصر باستخدام النفي والاستثناء في قصة نبي الله يحيى –عليه السلام– هو وسيلة التقرير والتوكيد، لحث النبي الكريم قومه على ذكر الله –تعالى–، وترغيبهم فيه بقوة، حيث قصر ما يحفظ به العبد نفسه من الشيطان على ذكر الله –تعالى– وذلك لما علم من مقتضى حال بني إسرائيل في العتو والتمرد، وكثرة المراء والجدل، وشدة الاختلاف على أنبيائهم، فنبهوا على أهمية الذكر، وعظيم أثره بالأبلغ الآكد؛ دفعا لكل ذلك، وحسما للأمر، وبتا في القضية، ورجاء في امتثال الأمر والتزامه، والشروع في تنفيذه.

وبرهان هذا من كثرة وسائل التقرير والتوكيد في نسق القصة الكريمة؛

وذلك من إخراج الكلام مخرج الإخبار والتمثيل، ومن التقييد بالنعت في موضعين؛ في قوله:"وآمركم بذكر الله كثيرا"، وقوله: "حتى أتى على حصن حصين"، وكذا من التقييد بالحال في قوله: "طلبه العدو سراعا"، ومن حرف التوكيد "إن" في قوله: "وإن مثل ذلك كمثل رجل" وانتهاء بالقصر، وذلك على الوجه الذي سبق بيانه.

وكذلك الشأن –أيضا– في قصة طواف نبي الله سليمان على مائة امرأة، حيث جاء توكيد المعني بالقصر على طريق النفي والاستثناء في قوله: "فلم تحمل منهن إلا امرأة"؛ ليكون –أولا– في مقابلة توكيد نبي الله سليمان كلامه بأقوى المؤكدات، وأدخلها في الباب؛ ابتداءً بالقسم الذي وطأت له اللام، ومرورا بنون التوكيد الثقيلة المتصلة بالفعل "أطوفن" وانتهاء بإخراج قوله: "كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله" مخرج العموم والخبر؛ للدلالة على سرعة التلبس بالفعل؛ كأنهن كلهن قد تلبسن بالإتيان بفارس يجاهد في سبيل الله، وهذا من ثقة النبي الكريم بنفسه، وشدة تعلقه بحصول مطلوبه.

ولما قد يتبادر إلى النفس –ثانيا–؛ بسبب اشتمال كلام النبي الكريم على كل هذه المؤكدات، وبسبب تعلق قسمه بهذا العدد الكبير من نوع شك وتردد، أو إنكار ورفض لأن تكون التي حملت من كل هذا العدد امرأة واحدة، وكذلك الشأن في سائر المواضع المذكورة؛ يمكن أن تقاس في التحليل والتوجيه على ما سبق ذكره، والله أعلم.

ثانياً: التوكيد عن طريق القصر بـ"إنما"

وقد جاء ذلك في عدة مواضع، لعل من أبرزها ما جاء في قول النبي ﷺ من قصة المبتلين الثلاثة، حكاية عن الأبرص لما ذكره الملك بسابق برصه وفقره "إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر"[1] وإنما أوثرت "إنما" في القصر دون النفي والاستثناء، مع أن ما ادعاه الأبرص من كون ما هو فيه من غني وثراء، وعز وفخار إنما هو عن وراثة ومجد تليد مما ينكره الملك ويدفعه؛ بدلالة سياق الكلام من قوله: "كأني أعرفك، ألم تك أبرص فعافاك الله؟ فقيراً فأغناك الله؟ فإن كلا من "كأن" والاستفهام خرج مخرج التحقيق؛ لأنها الأقوى في تقرير معناه، الأدخل في توكيد عزه وثرائه، وتحقيق مجده التليد، الأبلغ في الرد على الملك ومجابهته، ودفع كلامه السابق بقوة؛ لدلالتها على أن وراثة الأبرص المجد والثراء كابرًا عن كابر مما لا يشك فيه شاك، ولا ينكره منكر، وقد صار –لشهرته في ذلك وذيوع صيته– ظاهرا معلوما، لا يخفي على أحد، وهذا من الكذب والبهتان الصريح.

ومن أبرز مواضعه –أيضا– قول النبي ﷺ في القصة نفسها، وذلك على لسان الملك مخاطبا الأعمى "أمسك عليك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك" أي: امتحنتم، أي عاملكم الله العالم بجميع الأمور معاملة المبتلى المختبر، ليترتب على عملكم أثره، إذ الجزاء إنما جعله الله مترتبا على ما يبدو في عالم الشهادة، لا ما سبق في علمه[2] فقد قصر صفة الابتلاء على الثلاثة وهذا من قصر القلب باعتبار الحال المدلول عليها من

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لمحمد بن علي بن محمد بن علان البكري الصديقي الشافعي١/٢٤٦_ الطبعة الرابعة ٢٠٠٤م، دار المعرفة للطباعة والنشر_ بيروت.

نسق القصة وسياقها؛ وذلك ظاهر في كيفية رد كل من الثلاثة على سؤال الملك وطلبه.

وإنما أوثرت "إنما" في القصر دون غيرها؛ للدلالة على أن حديث الابتلاء من الظهور بمكان؛ فقد كان محور القصة الذي تدور عليه أحداثها ومواقفها، ودليل هذا من قول النبي ﷺ في أول القصة: "إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى، أراد الله أن يبتليهم" وفي هذا تعريض –من جانب– بذم الأبرص والأقرع بالغباء والبلاهة، وعدم الذكاء والفطنة، وتعريض –من جانب آخر– بمدح الأعمى والثناء عليه.

ومن هذه المواضع –أيضاً– قول النبي ﷺ في قصة المرأتين اللتين ذهب الذئب بابن إحداهما، وتحاكمتا إلى داود –عليه السلام– "كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك"(١) وكذلك قوله ﷺ في قصة الرجل الذي اشترى من رجل عقارا فوجد فيه جرة ذهب: "اشترى رجل من رجل عقاراً(٢)، فوجد الذي اشترى العقار في عقاره جرة(٣) فيها ذهب، فقال له الذي اشترى العقار: خذ ذهبك، إنما اشتريت منك الأرض، ولم أشتر الذهب، وقال الذي له

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث.

(٢) العقار: الأرض وما يتصل بها، وحقيقة العقار: الأصل، سمي بذلك من العقر بضم العين وفتحها وهو = =الأصل ومنه عقار بالضم والفتح، والعقار في اللغة المنزل والضيعة، وخصه بعضهم بالنخل، ويقال للمتاع النفيس الذي للمنزل عقار –أيضا–، ينظر شرح النووي على صحيح مسلم١٩/١٢، وفتح الباري لابن حجر٥١٨/٦_٥١٩.

(٣) الجرة: قلة مملوءة ذهبا، إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم للقاضي عياض، تحقيق د/ يحيي إسماعيل، الطبعة الأولى ١٩٩٨م_ دار الوفاء_ مصر٥٨٢/٥.

الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها[1]. وكذا قوله ﷺ من قصة أصحاب الأخدود، حكاية عن الغلام في موضعين من القصة: "إنما يشفي الله تعالى"[2] وذلك في الرد على الملك، وعلى جليسه الأعمى حين اعتقد كل منهما أن هذا الغلام يشفي من الأدواء والأمراض.

أما استخدام "إنما" طريقًا للقصر في كلام كل من المرأتين اللتين ذهب الذئب بابن إحداهما: "إنما ذهب بابنك" مع أن المقام مقام إنكار؛ فكل واحدة منهما تأبى أن يكون الذئب قد ذهب بابنها خاصة دون الأخرى، وقرينة هذا من رد كل واحدة منهما الأمر إلى صاحبتها، ومن تحاكمهما معا إلى نبي الله داود –عليه السلام– وذلك على نحو ما جاء في نسق القصة وسياقها؛ لأن "إنما" هي الأقوى في تدعيم موقف كل واحدة منهما تجاه الأخرى، وتعضيد حجتها، الأبلغ في دحض كل واحدة منهما ادعاء الأخرى أن الذئب ذهب بابن صاحبتها دونها؛ لدلالة "إنما" على أن ذهاب الذئب بابن صاحبتها ظاهر معلوم، لا يخفى على أحد، ولا يتأتى إنكاره بحال، فنزل المنكر المجهول منزلة غير المنكر المعلوم؛ لمزيد من التقرير والتأكيد، والتحقيق والتشديد، وكذلك يجري القصر بـ"إنما" على هذا السنن في التوجيه والتحليل في قصة الرجل الذي اشترى من رجل عقارا فوجد فيها جرة ذهب.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، حديث ٣٤٧٢ صـ٤٥٧، ومسلم في كتاب الأقضية، باب استحباب إصلاح الحاكم بين الخصمين، حديث ١٧٢١، صـ٥٠٥.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

وأما قول الغلام في قصة أصحاب الأخدود " إنما يشفي الله تعالى" في موضعين، فالقصر فيهما قصر قلب؛ لاعتقاد كل من الملك وجليسه عكس الحكم الذي يعتقده الغلام؛ وقرينة هذا من قول جليس الملك للغلام في سياق القصة:" فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني"، وقول الملك للغلام:" أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل كذا وكذا"، وإنما أوثرت" إنما" في هذا المعنى دون غيرها؛ لأنها الأوفق بمقام الدعوة إلى الله – تعالى– بالحكمة والموعظة الحسنة، لما فيها من تلطف في الدعوة، ولين في الحديث، وترفق في الإثبات؛ لما إنها تستخدم في الأمر الظاهر المعلوم الذي لا يجهل، أو لما ينزل هذه المنزلة، وكأن الغلام بذلك يحيل الملك وجليسه إلى ظاهر علمهما، وسابق أمرهما، حتى كأنهما أعرف بذلك منه، وأكثر دراية وخبرا، وقد أتى هذا التلطف أكله وأثمر ثمرته في نفس الجليس؛ لسلامة فطرته، وحسن طويته، ولم يفلح مع الملك؛ لسوء طويته، وانطماس بصيرته، وغلبة اعتبارات الملك والسلطان على فكره.

ثالثًا: التوكيد عن طريق القصر بالعطف

ندر التوكيد بالقصر من طريق العطف في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل، وقد فليت كثيرا من هذا القصص فلم أقف لذلك إلا على موضع واحد، كانت أداة القصر فيه هي " لكن" خاصة، وقد جاء ذلك في قوله ﷺ من قصة المرأة الغوية التي علقت عابدا من عباد بني إسرائيل:" إنه كان رجل ممن خلا قبلكم تعبد، فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها، فقالت له: إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فطفقت كلما دخل بابا أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، عندها غلام، وباطية[1] خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع على، أو تشرب من هذه الخمر كأسا، أو تقتل هذا الغلام"[2] فقد قصرت هذه المرأة دعوة العابد إليها على واحدة من ثلاث: إما الوقوع عليها، والفجور بها، وإما أن يشرب كأسا من الخمر، وإما أن يقتل الغلام الذي عندها، ونفتها عن الشهادة، وذلك في قولها:" إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع على.." وإخراج الكلام مخرج القصر على طريق العطف خصوصا هو الذي يتطابق مع مقتضى حال هذه المرأة في شدة العهر، وقمة التبجح، وانعدام الحياء، وذهاب العفة؛ للنص فيه على المثبت والمنفي معا، وهذا يعني أن هدفها واضح، ومقصدها ظاهر، وأمرها مكشوف،

---

(١) الباطية إناء، قيل: هو معرب، وهو الناجود، وقيل: هي من الزجاج عظيمة، تملأ من الشراب، وتوضع بين الشرب يغرفون منها، ينظر المحكم والمحيط الأعظم في اللغة لابن سيدة ٣٤٠/٧ د/ عبد الحميد هنداوي، ط الأولى ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية-بيروت، وتهذيب اللغة للأزهري ٣٥٣/١٠، تحقيق: محمد عوض مرعب، الطبعة الأولى ٢٠٠١م_ دار إحياء التراث العربي_ بيروت

(٢) الحديث سبق تخريجه.

لا مواربة فيه، ولا استخفاء.

وتعدد المقصور عليه الواقع بعد" لكن" فيه دلالة على أن مقصد هذه المرأة هو تلويث سمعة هذا العابد بأية طريقة كانت؛ ليذهب عنه صفاؤه، ويغوص مرة أخرى في حمئة الرذيلة، ولو كان مقصدها هو طلب الفاحشة من عشقها إياه، وغرامها به، لاقتصرت في الطلب عليه وحده(١)، والله أعلم.

وفي الحديث مبالغة أيما مبالغة في تقرير إثم شرب الخمر وتوكيده، وتحقيق خطرها وتشديده، بتصوير ما يترتب على شربها من شرور ومفاسد، وذلك أن هذا العابد اختار أن يشرب كأسًا من الخمر؛ ظنًا منه أنها أهون الشرور، فلما شربها، ولعبت بعقله قتل الغلام، ووقع على المرأة.

(١) ينظر صحيح القصص النبوي، د/ عمر سليمان الأشقر صـ ٣٥٢، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، دار النفائس، عمان، الأردن.

رابعًا: التوكيد على طريق القصر بالتقديم

يعد التقديم من وسائل التقرير والتوكيد سواء أكان الغرض منه هو القصر، أم كان الغرض منه مجرد العناية والاهتمام بالمقدم، وذلك للأسباب التي سبق ذكرها في مطلع الحديث عن القصر باعتباره إحدى هذه الوسائل، أو لأسباب أخرى سوف يكشف عنها البحث في حينها.

وقد جاء التقديم في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل بصورتيه السابقتين في كثير من المواضع التي نكتفي منها بإيراد بعض النماذج التي تتخذ دليلًا على غيرها، وشاهد صدق على قضية البحث التي يعالجها.

فمن التقديم للقصر قوله ﷺ في قصة لطم موسى-عليه السلام - ملك الموت، وفقئه عينه:"ارجع إلى عبدي، فقل: الحياة تريد؟"(١) وقوله ﷺ في قصة النبي الذي حبست عليه الشمس:"فجاءت -يعني النار- لتأكلها فلم تطعمها، فقال:إن فيكم غلولًا، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال:فيكم الغلول، فلتبايعني قبيلتك فلزقت يد رجل أو ثلاثة بيده، فقال:فيكم الغلول"(٢) وكذا قوله في قصة الرجل الذي قتل مائة نفس: "كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا"(٣)، وقوله ﷺ في قصة النبي الذي

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب من أحب الدفن في الأرض المقدسة ونحوها، حديث ١٣٣٩ صـ١٨١، وفي كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى _عليه السلام _وذكره بعد، حديث ٣٤٠٧صـ٤٤٧، ومسلم في كتاب الفضائل، باب فضل موسى عليه السلام _٢٣٧٢ ص٦٨٣.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، حديث ٣٤٧٠ ص٤٥٧، ومسلم في كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل حديث ٢٧٦٦ ص ٧٨٦

أعجب بقومه:" اللهم بك أقاتل، وبك أصاول[1]، ولا حول ولا قوة إلا بـــالله"[2] فإن الغرض من تقديم ما حقه التأخير في المواضع السابقة هو القصر؛ فتقديم المفعول" الحياة" على الفعل "تريد" في قصة لطم موسى–عليه الســـلام –ملـــك الموت لقصر صفة الإرادة وحصرها في الحياة، وكذلك تقديم المجرور "فيكم" الذي وقع في موقع الخبر على المسند إليه "الغلول" في موضعين مـــن قصـــة النبي الذي حبست عليه الشمس، حتى فتح الله له؛ لقصر صفة الغلول علـــيهم، وكذلك الشأن في سائر المواضع الأخرى المذكورة، تجد الغرض من التقـــديم في جميع هذه المواضع هو القصر، والقصر فيه ضرب من المبالغة في تقرير المعنى وتوكيده، وتحقيقه وتشديده؛ لأنه إذا انحصرت إرادة موســـى –عليـــه السلام – في الحياة، ولم تتعداها إلى غيرها، وانحصـــر الغلـــول فـــيهم دون غيرهم كان في هذا تأكيد على وقوع الفعل ممن وقع منه وثبوته له.

وقد يكون القصر من تقديم المسند إليه ووقوعه بعد النفي خاصة، وذلـــك في موضع واحد، هو قول النبي ﷺ من قصة المرأة التي دخلت النار في هرة حبستها:" دخلت امرأة النار في هرة حبستها، لا هي أطعمتها، ولا ســـقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض"[3] فتقديم المسند إليه وهـــو

---

(١) صال على قرنه صولاً وصيالًا وصؤولًا وصولانًا وصيالًا وصالة: سطا، وفي حديث الدعاء" بك أصول"، وفي رواية: "أصاول "أي أسطو وأقهر /اللسان، صول ٤/٢٥٢٨.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة البروج٥/٤٣٧، حديث ٣٣٤٠، وذكره الألباني في السلسلة الصـــحيحة ٥/٥٨٨، حـــديث ٢٤٥٩، الطبعـــة الأولى ١٩٩٥م، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.

(٣) الهرة:أنثى السنور، والهر الذكر /فتح الباري لابن حجر)(خشاش الأرض:هوامهـــا= =وحشراتها، الواحدة خشاشة، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير الجزري، ٢/٩٠

ضمير المؤنثة الغائبة "هي" ووقوعه بعد النفي، في قوله:"لا هي أطعمتها – ولا هي تركتها "لنفي الإطعام والترك عن الفاعل المذكور خاصة، وهذا ضرب من التقرير والتأكيد؛ ليكون ذلك كالدليل والبرهان على استحقاق هذه المرأة العذاب، ودخول النار، وهذا كله يضرب على تأكيد الغرض العام من القصة وتقريره، وهو التحذير من إيذاء الحيوان، والتخويف من عاقبة تعذيبه وحبسه.

وقد يكون الغرض من التقديم هو مجرد تقوية الحكم وتوكيده، والعناية والاهتمام بالمقدم، وليس القصر، وذلك كما في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المثبت، أو المنفي، وإن كان المنفي نادر الوقوع في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل.

وأمثلة التقديم لهذا الغرض أكثر من أن تحصى! حيث تجد من ذلك قول النبي ﷺ في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، وذلك على لسان الأول:"فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما، حتى برق الفجر، والصبية يتضاغون عند قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما"(١)؛ فتقديم المسند إليه "والصبية" على الخبر الفعلي المثبت، وهو جملة يتضاغون عند قدمي "لتقرير الحكم وتوكيده؛ لاقتضاء المقام إياه، وذلك على النحو الذي سبق تفصيله وتحليله في

تحقيق/ محمد صلاح عويضة، الطبعة الأولى١٩٩٧م، دار الكتب العلمية – بيروت، والحديث أخرجه البخاري في كتاب المساقاة، باب فضل سقى الماء! حديث ٢٣٦٥ ص ٣٠٤، وفي كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، حديث ٣٣١٨ صـ٤٣١، ومسلم في كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة، حديث ٢٢٤٢ صـ ٦٥٤، وفي كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم تعذيب الهرة ونحوها من الحيوان الذي لا يؤذي، حديث ٢٢٤٢_٢٦١٩ صـ ٧٤٩

(١) الحديث سبق تخريجه.

موضع سابق، وقرينة هذا من وقوع الجملة موضع الشاهد في موقع الحال.

كما تجد من ذلك – وهو في غاية الظهور والوضوح – قول النبي ﷺ في قصة المختال الذي خسف به الأرض: " فهو يتجلجل في الأرض حتى تقوم الساعة"(١)، فالغرض من تقديم ضمير الغائب "فهو" على الخبر الفعلي المثبت وهو جملة " يتجلجل" هو تقوية الحكم وتوكيده، وتحقيقه وتشديده، إذ في تقديمه على هذا النحو نوع من الإعلام به، والتوطئة له، والتمهيد إليه، فإذا جاء الخبر بعد هذه التوطئة، وهذا الإعلام دخل على القلب دخول المأنوس به، المطمئن إليه، وهذا أدعى لثبوته، وانتفاء الشبهة عنه.

هذا إلى جانب ما في التقديم من خصيصة تكرار الإسناد، وذلك على الوجه الذي قرره السكاكي في مفتاح العلوم(٢) والخطيب القزويني في الإيضاح(٣).

وقد زاد المعنى قوة ووكادة، وصعودًا ونماءً إيثار صيغة المضارع في القصتين: " يتضاغون– يتجلجل"؛ لاستحضار المشهد، والدلالة على تجدد الحدث وتكراره، وأن التصايح من شدة الجوع وحرارته هو ديدن الصبية الذي لا ينفكون عنه مرة بعد مرة، وأن السواخ في الأرض هو دأب الرجل المختال الذي لا ينفك عنه حالًا بعد حال.

وأما التوكيد بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المنفي فلم أقف له إلا

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) ينظر مفتاح العلوم للسكاكي صـ١٠٦، المكتبة العلمية الجديدة، بيروت، بدون تاريخ.

(٣) ينظر الإيضاح للخطيب القزويني صـ ٣٥، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.

على موضع واحد، جاء في قول النبي ﷺ من قصة المرأة التي وعظت عالمًا:- "وقد ذهب الناس، وهي لا تفارق الباب "[1] وهو لا يخرج في غرضه ومقصده عن الغرض من التقديم في سياق الإثبات، فقد أرادوا المبالغة في الدلالة على شدة إلحاح هذه المرأة في الطلب؛ وتقرير لزومها باب العالم، وتوكيد عدم مفارقتها إياه، حتى تشافهه وجهًا لوجه، ولا شك في أن هذا كله ما يقتضيه مقام بيان حرص الناصح على المنصوح، لدلالته على تمحض النصيحة وخلوصها، وهذا أدعى للاستجابة، وأرجى للقبول، وقد كان لها ما أرادت، وتحقق لها ما أملت.

(١) الحديث أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجنائز، باب جامع الحسبة في المصيبة، حديث ٤٣، ١ /٢٣٧، رقم أحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي-دار إحياء التراث العربي- بيروت ١٩٨٥م.

خامسًا: التوكيد عن طريق القصر بتعريف الطرفين بلام الجنس

قد يفيد تعريف المسند إليه، أو المسند، أو هما معًا باللام معنى القصر، بشرط أن تكون هذه اللام للجنس، فتفيد حينئذ – كمال ذلك الجنس في ذلك الشيء[1].

وتقرير مضمون الكلام وتوكيده من طريق إيثار هذا الأسلوب نادر الوقوع في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل، وقد تمكنت بعد فلي ومراجعة من الوقوف عليه في موضع واحد، جاء في سياق قصة أيوب – عليه السلام – خاصة، وذلك في قول النبي ﷺ حكاية عن زوجه:" فاستبطأته، فلقيته ينتظر، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك ! هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ؟ ووالله على ذلك ما رأيت أحدًا أشبه به منك إذ كان صحيحًا "[2]فإن الألف واللام من كلمة " المبتلى" الواقعة موقع المسند في قوله: " هذا المبتلى" لقصر صفة الابتلاء على أيوب عليه السلام؛ لدلالة اللام فيها على الجنسية المقتضية من وجه عموم الحكم واستغراقه أفراد الجنس واحدًا واحدًا.

والمقتضية – من وجه آخر – كمال صفة الابتلاء أو جنسه في أيوب – عليه السلام – حتى كأنه – عليه السلام – من عظم البلاء وشدته، وغاية

---

(١) ينظر فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح للشربيني ٣/ ٢١٧–مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، كما ينظر حاشية الشيخ زادة ١/ ٤٥–دار صادر–بيروت–بدون.

(٢) الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٧٤–الناشر: السعادة–بجوار محافظة مصر ١٩٧٤م، وابن حبان في صحيحه–كتاب الجنائز وما يتعلق بها مقدمًا أو مؤخرًا، باب ما جاء في الصبر وثواب الأمراض والأعراض ٧/ ١٥٧، حديث ٢٨٩٨.

قسوته، وطول أمده ومدته صار هو كل مبتلى، كأنه لا مبتلى غيره، وهذا مبناه على الادعاء والمبالغة، فهو من القصر المجازي باعتبار الحقيقة والواقع.

ولا شك في أن إخراج الكلام هذا المخرج مما يقتضيه مقام امتداح أيوب – عليه السلام – وحسن الثناء عليه، والدعوة إلى جميل التأسي به؛ لأنه أبلغ في المدح وآكد، وأقوى وأكثر؛ لدلالته على عظيم صبره، وقوة جلده، وكمال رضاه، وتمام تسليمه بأمر الله تعالى.

الصورة الثانية
التوكيد بأسلوب القسم

يكمن الغرض العام والمقصد الأساس لأسلوب القسم في توكيد ما يقسم عليه من نفي أو إثبات، وذلك لإزالة الشك عن المخاطب، وتمكين المعنى المراد تمكينه في نفس السامع(١)؛ لذا يعمد إليه البيان النبوي، ويتكئ عليه كثيرًا في تفخيم أمر من أمور الدين وتعظيمه، أو الحث عليه، أو التنفير من أمر محذور؛ إذ هو من أقوى المؤكدات، وأكثرها دلالة على أهمية الأمر المقسم عليه.

وإذا تأملنا القصص النبوي عن بني إسرائيل خاصة وجدنا القسم يمثل فيه أحد أهم الركائز والدعائم الأساسية التي يعول عليها في تحقيق أهداف هذا القصص، وترسيخ مضامينه في نفوس ووجدان السامعين، وهو فيه لا يأتي على طريقة واحدة، ولا يكتسي لباسًا واحدًا، بل تتعدد معارضه، وتتنوع صيغه، وتتفاوت من حيث القوة بتفاوت الدواعي والمثيرات التي تقتضي صيغة دون أخرى، لكن أكثرها دورانًا واستعمالًا في هذه السياقات هي صيغة "والله"؛ فقد جاءت فيما يزيد على سبعة عشر موضعًا، حيث تجد هذا في قصة الأبرص، والأقرع، والأعمى، في قوله ﷺ على لسان الأعمى: " فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله ما أجهدك اليوم بشيء أخذته لله- عزَّ وجل - وتجد هذا في قوله ﷺ في قصة لطم موسى عليه السلام ملك الموت، حين جاء يستأذنه في قبض روحه: "والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر " وفي قوله ﷺ في قصة فرار الحجر بثوب موسى عليه السلام: "فقالوا - أي: بنو

(١) ينظر شرح المفصل لابن يعيش ٩/ ٩٣.

إسرائيل –: " والله ما بموسى من بأس "، وفي قوله في القصة نفسها: " والله إنه بالحجر ندب ستة أو سبعة؛ ضرب موسى عليه السلام بالحجر" وكذا في قوله في قصة الرجل الذي تسلف رجلًا ألف دينار: "ثم قدم الذي أسلفه، فأتى بالألف دينار، وقال: والله ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه ".

كما تجد هذا في قصة الذي أمر أولاده بحرقه بعد موته: "فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابًا ما أعذبه أحدًا " وقوله في قصة المتألي على الله أن يغفر لعبد من عباده: " والله لا يغفر الله لك ! أو لا يدخلك الجنة " وفي قوله ﷺ في قصة تصوير طرف من ابتلاءات من كان قبلنا: "والله ليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه " إلى غير ذلك من مواضع هذه الصيغة، حيث تجد الغرض الأساسي من القسم في كل منها هو تقرير المعنى وتوكيده، وتحقيق مضمون الكلام وتشديده، وأن المتكلم حري بمعناه، شديد العناية والاهتمام بخبره، مع مجئ كل واحد منها متناغمًا في سياقه، ومتطابقًا مع مقامه.

وإن شئت الدليل على ذلك فخذ قسم الأعمى – أولًا – "فوالله ما أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عز وجل " أي: لا أشق عليك برد شيء تأخذه أو تطلبه من مالي، أو لا أحمدك على ترك شيء تحتاج إليه من مالي[1]، والجهد: المشقة، يقال: جهدت رأيي، وأجهدته: أتعبته بالفكر[2].

---

(١) ينظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٨/ ١٠٠، وفتح الباري لابن حجر ٦/ ٥٠٣

(٢) ينظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٨/ ١٠٠، ومقاييس اللغة لابن فارس، جهد ١/ ٤٨٦

ذلك أنك إذا تأملت القسم في موقعه وجدته ضربة لازم؛ فإن قول الأعمى للسائل: "فخذ ما شئت ودع ما شئت " مما يثير الدهشة، ويدعو إلى الاستغراب، ويبعث في النفس بوادر الشك والتردد أو الإنكار؛ لخروجه على خلاف مقتضى السنن المعهود من حب الإنسان المال بحكم جبلته البشرية المفطورة على الضن به، والحرص على كنزه، هذا فضلًا عن أن تتصرف فيه بنفسها على خلاف ما يوافق طبعها وهواها؛ بله أن تترك للغرباء حرية التصرف فيه بالأخذ والترك كيفما يعن لهم، وذلك على النحو الذي جاء في الحديث، لا سيما إذا كان السائل ابن سبيل يتكفف الناس، وهو غير معروف، فجاءت جملة القسم كالدليل والبرهان على إمكان الطلب السابق "فخذ ما شئت ودع ما شئت " الذي خرج عن حقيقة معناه، وتقرير صدقه؛ فإن الباعث الذي حمل الأعمى على ذلك هو كون المأخوذ والمتروك لله، وابتغاء مرضاته.

وخذ قول النبي ﷺ في قصة لطم موسى عين ملك الموت: "والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر"[1]، فإن معرفة النبي ﷺ بموضع قبر موسى عليه السلام على هذا النحو من التعيين والتحديد الدقيق، مع بعد الأمد بينه وبين موسى عليه السلام لمما يقتضي هذا التقرير والتأكيد؛ فجاء القسم لدفع ما قد يحوم حول هذا الخبر من شبهة شك أو تردد أو إنكار، مع تنزيه مقام أصحاب النبي ﷺ عن أن تختلج في صدورهم أدنى خالجة من ذلك.

---

(١) الكثيب الأحمر: هو الرمل المجتمع، وهو موضع على مشارف الأرض المقدسة قيل بأريحاء. ينظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٥ / ١٢٨، وفتح الباري لابن حجر ٦/ ٤٤٢، والحديث سبق تخريجه.

وفتش في قول النبي ﷺ في قصة فرار الحجر بثوب موسى – عليه السلام–: " فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه، ثلاثًا، أو أربعًا، أو خمسًا "[1] فإنما أخرج الكلام مخرج القسم؛ لأن تأثير العصاة بالحجر الصلد القاسي، على هذا النحو المذكور في الحديث لمن الغرابة بمكان؛ لجريانه على خلاف المعهود من أمرها؛ فإن العصاة لا تؤثر في الحجر الصلد القاسي، ولا تترك فيه ندوبًا، أي: علامات، بل قد يكون الحجر هو فاعل التأثير فيها بالكسر، فجاء القسم لدفع هذه الغرابة، وإزالة هذا الاستشكال وتأكيد ما لعصا موسى – عليه السلام – من سمات وخصائص ليست في غيرها من العصى.

وتجد المقام في قصة الرجل الذي تسلف رجلًا آخر ألف دينار يقتضي التوكيد بالقسم في قوله: "والله ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك "[2] فإنه في الاعتذار بسبب التأخير، ومقامات الاعتذار تتطلب تقرير الكلام وتوكيده؛ لدلالته على صدق المعتذر فيما يعتذر به من عذر وأن التأخير عن السداد في الموعد المضروب كان لأمر خارج عن إرادته، وليس عن مماطلة وإخلاف، وأنه بذل الوسع والطاقة حتى يتسنى له الوفاء والأداء، وقس على ذلك سائر المواضع مما كانت فيه صيغة «والله» هي وسيلة القسم.

وكما كانت صيغة «والله» هي وسيلة التوكيد بالقسم فيما سبق فإن البيان النبوي في قصص بني إسرائيل قد آثر صيغًا أخرى في التوكيد بالقسم، كصيغة: "أسألك بالذي كذا" في قصة الأبرص والأقرع والأعمى، وذلك على لسان الملك في خطاب الثلاثة:" أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال بعيرا أتبلغ به في سفري– أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة

---

(١) الحديث سبق تخريجه

(٢) الحديث سبق تخريجه

أتبلغ بها في سفري"[١] وكصيغة:" والذي لا إله إلا هو" في قصة رؤية نبي الله عيسى سارقا يسرق:" فقال له عيسى: سرقت؟ قال: كلا، والذي لا إله إلا هو"[٢] وكصيغة:" والذي نفس محمد بيده" في قصة طواف نبي الله سليمان على مائة امرأة في ليلة"" والذي نفس محمد بيده ! لو قال: إن شاء الله لم يحنث وكان دركا لحاجته"[٣] وكصيغة:" بلي وعزتك" في قصة أيوب- عليه السلام- :" فناداه ربه تبارك وتعالى: يا أيوب ! ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك، ولكن لا غنى بي عن بركتك"[٤]

وكصيغة:" نشدتكما بالله " في قصة يونس عليه السلام وذلك على لسان الغلام الذي رأى يونس:" فانتهوا إلى الشجرة والبقعة، فقال لهما الغلام: نشدتكما بالله! هل أشهدكما يونس؟ قالتا نعم: نعم"[٥]

ومما لا شك فيه أنك إذا تأملت هذه الصيغ من مواضيعها وجدت كل واحدة منها قد جاءت منسجمة في سياقها تمام الانسجام، وعلى نحو تتحقق به مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

---

(١) الحديث سبق تخريجه

(٢) الحديث سبق تخريجه

(٣) الحديث سبق تخريجه

(٤) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: " وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين" ص ٤٤٣، حديث ٣٣٩١ والنسائي في سننه كتاب الغسل والتيمم، باب الاستتار عند الاغتسال ٢٠٠/١حديث ٤٠٩،وأحمد في سنده ٢١٤/٨،حديث ٨١٤٤

(٥) الحديث أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه كتاب الفضائل، ما ذكر فيما فضل به يونس بن متى عليه السلام ٣٣٨/٦ حديث ٣١٨٦٦، تحقيق: كمال يوسف الحوت/ الطبعة الأولى ١٤٠٩، مكتبة الرشد، الرياض

فالصيغة الأولى في قول الملك للمبتلين الثلاثة:" أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن- أسألك بالذي رد عليك بصرك" هي الآكد في الطلب، الأقوى في درك الملك حاجته، وبلوغ المرام من مطلوبه؛ لتمام موافقتها للمقام، وكمال مطابقتها لمقتضى الحال؛ لأن فيها تذكيرا لكل واحد من الثلاثة بسابق حاله، ومتبدي أمره، وتنبيها على عظيم فضل الله، وسابغ نعمته عليهم، وهذا أنفى للعذر عن كل واحد من الثلاثة، وأدعى إلى إقامة الحجة عليه.

والصيغة الثانية التي جاءت على لسان السارق: " كلا والذي لا إله إلا هو" فيها من القوة والوكادة ما ليس في غيرها؛ ليتعانق القسم مع القصر بالنفي والاستثناء خاصة، وهذا يجعل هذه الصيغة أوفق بمقام الإنكار، وأكثر تلاؤما معه، لأنها جاءت في تكذيب السارق رؤية عيسى عليه السلام إياه، وهو يسرق، والسارق يعلم ذلك يقينا، فأراد أن يرفع عن نفسه التهمة، ويكذب عيسى في رؤيته إياه متلبسًا بالسرقة بأبلغ أساليب الدفع والإنكار، والتقرير والتوكيد؛ ليأتي الرد متناغمًا مع مقتضى حال عيسى -عليه السلام -ومقتضى حال السارق نفسه، ومن ثم قال عيسى:"آمنت بالله وكذبت عيني".

أما الصيغة الثالثة التي جاءت في قصة طواف نبي الله سليمان على مائة امرأة في ليلة:. "والذي نفس محمد بيده! لو قال:إن شاء الله لم يحنث" فهي أقوى صيغ القسم، وأدخلها في التحقيق، وذلك حسبما ثبت في الحديث من أنه ﷺ كان إذا اجتهد في اليمين وبالغ فيه قال:"والذي نفس محمد بيده"، أو "والذي نفس أبي القاسم بيده"، وإنما أوثرت في هذا المقام؛ لما يتعلق بمدخولها من الغرابة الشديدة، وما يثيره من التعجب البالغ من أنه لو قال:إن شاء الله لم يحنث في قسمه، وتحقق له ما أقسم عليه؛ لخروجه عن مقتضى طاقة الرجال في هذا الأمر، لاسيما مع هذا العدد المذكور من النساء، وفي ليلة واحدة، فتطلب المقام هذا التحقيق الزائد؛ لنفي الشبهة ودفعها، وإزالة كافة أوجه

الاستغراب، وأسباب التعجب التي قد تحوم حول هذا الخبر، وعلى هذا الـــنهج في التحليل يمكن قياس الموضعين الآخرين.

على أنه مما ينبغي التنبه له، وتجدر الإشارة إليه أنّ القسم يأتي في كثير من سياقاته مقترنًا باللام الموطئة له، أو مقترنًا ببعض أحرف التوكيد الأخرى كـــ"إنّ" وغيرها، أو بهما معًا، وقد يحذف القسم ويكتفي عنه باللام الموطئة له، وقد سبق أن فصلت القول في كل هذه الأحوال، وحللتها تحليلًا وافيًا في محور التوكيد بالحروف.

الصورة الثالثة
التوكيد بأسلوبي التذييل وكمال الاتصال

يتقارب التذييل[1] وكمال الاتصال[2] من صور الفصل خاصة، حين تنزل الجملة الثانية في هذا الأخير منزلة التوكيد من الجملة الأولى توكيدًا لفظيًا كان أم معنويًا، حيث تعقب في كل منهما جملة بجملة أخرى لا محل لها من الإعراب، تشتمل على معناها، حتى كأن الجملة الثانية تكرار وإعادة للجملة الأولى ولذلك يقول عبد القاهر في تحليل سر الفصل في قوله: "لا ريب فيه" في إثر قوله: "ذلك الكتاب" بأنه "بيان وتحقيق وتوكيد لقوله: "ذلك الكتاب" وزيادة تثبيت له، وبمنزلة أن تقول: "هو ذلك الكتاب، هو ذلك الكتاب" فتعيده مرة ثانية لتثبته"[3]

وقد اتكأ البيان النبوي في قصص بني إسرائيل في كثير من سياقاته على هذين الأسلوبين، وعلى نحو لافت، إلا أن اتكاءه على التذييل كان أكثر وأظهر، حتى إنك قلما تجد قصة منه تخلو من موضع للتذييل، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى عمومية التذييل، واتساع دائرته؛ حيث يقع في الجملتين المنفصلتين والمتعاطفتين، وتتعدد مواقعه، فيمون في وسط الكلام وفي آخره، وكمال الاتصال لا يقع إلا في الجمل المنفصلة التي لا ترتبط فيما بينها بحرف من حروف العطف.

---

(١) التذييل:هو تعقيب الجملة بجملة أخرى لا محل لها من الإعراب تشتمل على معنى الجملة الأولى؛ لغرض التقرير والتأكيد / ينظر الإيضاح للخطيب ص ١١٤

(٢) كمال الاتصال:هو أن يكون بين الجملتين اتحاد تام، وذلك بأن تكون الجملة الثانية توكيدًا للأولى، أو بيانًا لها، أو بدلًا منها. /ينظر شروح التلخيص ٣/٣٠.وما بعدها.

(٣) دلائل الإعجاز صـ٢٢٧.

والذي يراجع مواضع التذييل في هذا النوع من القصص بالتأمل يجد أن أكثرها من النوع الذي لا يجري مجرى المثل؛ نظرًا لارتباطه الشديد بالكلام السابق عليه، وعدم إمكان استقلاليته عنه بالإفادة، ويندر أن يكون من النوع الذي يجري مجرى المثل، وهو في كلا النوعين لا يقع في ختم الكلام إلا قليلًا.

ولست-هنا- بصدد استقصاء كل مواضع التذييل في هذا القصص، فقد سبق أن ذكرت أنه قلّما تخلو منه قصة، ولكني بصدد الوقوف مع بعض هذه المواضع تفصيلًا وتحليلًا؛ لتكون كالدليل والبرهان على ما تركت منها، ولعلها أن تكون ضوءًا خافتًا يحاول الاهتداء به من أراد أن يخصه بدراسة مستقلة في البيان النبوي.

فمن مواضعه قوله ﷺ في قصة الثلاثة المبتلين، على لسان الملك لهم جميعًا: "رجل مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك"[1] فإن جملة: "فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك" جاءت في موقعها تذييلًا مقررًا ومؤكداً لمضمون جملة:"قد انقطعت بي الحبال في سفري"؛ لأن معنييهما واحد، والحبال هي الأسباب التي يقطعها في طلب الرزق، أو العقبات، والمراد أن السبل كلها قد سدت في وجهه، وانقطعت كل الأسباب دون بلوغه غايته إلا تعلقه بالله، ثم بالمسئول.[2]

وإخراج الكلام هذا المخرج من تعقيب الجملة بجملة أخرى على وجه التذييل المقرر والمؤكد لها مما يقتضيه مقام الضيق بسبب شدة الحاجة؛ لأنه الأبلغ في تصوير السائل حاجته، وعرض مطلوبه، الأدعى إلى حصول مبتغاه

(١) الحديث سبق تخريجه

(٢) ينظر فتح الباري لابن حجر ٥٠٢/٦

من ترقيق قلب المسئول عليه؛ لدلالته على عظيم فقره، وشدّة عوزه؛ لتتعانق كل هذه الوسائل في مقام الابتلاء على إقامة الحجة على الثلاثة، ونفي الشبهة، وقطع العذر عنهم.

ومن مواضعه -أيضًا -قول النبي ﷺ في قصة الرجل الذي اشترى من رجل عقارًا فوجد فيه جرة فيها ذهب:"خذ ذهبك، إنما اشتريت منك الأرض، ولم أشترِ الذهب"(١)، فقد وقعت جملة "ولم أشترِ الذهب" موقع التذييل المقرر والمؤكد لجملة "إنما اشتريت منك الأرض"؛ لأنهما في معنى واحد، وهذا التذييل هو الذي يتعانق على إبراز الغاية والهدف من سوق القصة، وتصوير مقامها الذي جاء في الإعلاء من مبدأ أو قيمة الأمانة في التعامل بين الناس بيعًا وشراءً، والترغيب في تحري الحلال الخالص، واجتناب الشبهات، وإبراز ما يجب أن يتحلى به البائع والمشتري من أخلاق النبل والمروءة، والعفة والأمانة؛ لدلالة هذا التذييل على شدة استمساك المشتري بموقفه، وندائه على عدم أحقيته في الذهب الذي وجده في الأرض، رغم بريقه الذي يخطف الأبصار، ويأسر القلوب، وتطيش منه العقول.

ومن هذه المواضع -أيضا- قوله ﷺ في قصة أيوب عليه السلام: "فاستبطأته، فلقيته ينتظر، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان"(٢)، فإنّ وقوع جملة:-" وهو على أحسن ما كان "موقع التذييل المقرر والمؤكد لجملة" قد أذهب الله ما به من البلاء " اقتضاه ما قد يتلبس بهذا الخبر من نوع غرابة، وما يثيره من تعجب، وما قد تحوم حوله من شبهة؛ بسبب تبدل الحال من النقيض إلى النقيض، على نحو مفاجئ، وغير متوقع؛ فقد ذهب

---

(١) الحديث سبق تخريجه

(٢) الحديث سبق تخريجه.

أيوب – عليه السلام – لقضاء حاجته، وهو في شدّة البلاء والمرض، فأذهب الله عنه بلاءه ومرضه وهو في مكان قضاء حاجته، وزوجه تنتظر، وقرينة هذا من التباس الأمر عليها؛ بدلالة قوله في سياق القصة: "قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟، ووالله على ذلك ما رأيت أحدًا أشبه به منك إذ كان صحيحًا"، ففي التذييل مبالغة في الدلالة على أنه قد عوفي معافاة تامة، وتأكيد على ذهاب بلائه بالكلية، وأنه قد رجع إلى أفضل من الحال التي كان عليها قبل أن يبتلى.

ومن هذه المواضع أيضا قوله ﷺ في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، حكاية عن الثاني:"فلما قعدت بين رجليها قالت: اتقِ الله ولا تفُض الخاتم إلا بحقه"(١)، فقول المرأة لابن عمها الذي اشترط عليها مقابل إعطائها المال أن تمكنه من نفسها، فقبلت تحت وطأة الحاجة:– "ولا تفض الخاتم إلا بحقه" خرج مخرج التذييل المقرر والمؤكد لمضمون الأمر بالتقوى في قوله في الجملة السابقة:–" اتق الله "؛ لأنه عينه، ومن لوازمه، وهو من التذييل الذي يمكن أن يجري مجرى المثل؛ لإمكان استقلاليته بالإفادة.، فيمكن أن يقال في المواضع النظيرة أو المقاربة:" لا تفض الخاتم إلا بحقه".

وإخراج الكلام هذا المخرج هو الذي يقتضيه المقام الذي جاء في الوعظ والتذكير المشوب بزجر قوي، وأمثال هذه المقامات تتطلب مزيدًا من التقرير والتوكيد، والتحقيق والتشديد، حتى يقع الوعظ والتذكير موقعه، ويثمر ثمرته في نفس المخاطب به، ودليل هذا أن الجملة التذييلية خرجت هي الأخرى مخرج القصر بالنفي والاستثناء الذي هو أقوى طرق القصر، وأكثرها وكادة و إثباتا.

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

وهو الذي يتطابق –من وجه – مع مقتضى حال هذه المرأة في العفة والطهارة؛ لدلالته على شدة امتعاضها مما أكرهت عليه؛ بسبب الحاجة، وغاية بغضها له، وخوفها من عاقبته، وقرينة هذا من توالي المؤكدات وتعاقبها في نسق القصة الكريمة.

كما يتطابق من وجه آخر مع مقتضى حال هذا الرجل الذي تملكه سعار الشهوة، وركبته نفسه، وأعماه شيطانه فأراد ابنة عمه عن نفسها في مقابل حفنة من المال؛ لأنه يعمل بقوة على استجاشة مشاعره، وإثارة داعي التقوى والمراقبة في نفسه، وقد كان لهذا كله أعظم الأثر في نفسه، فوقع في روعه موقع الإصابة والتمكن، فقام عنها وهي أحب الناس إليه، وترك لها الذي أعطاها من المال، كما نص عليه الحديث بعد ذلك؛ لتتعانق كل هذه الوسائل على تأكيد إخلاصه فيما صنع، وتصوير صدق نيته؛ ليكون ذلك أدعى إلى قبول دعائه، واستجابة رجائه، وتتحقق لهم النجاة من الكرب الذي وقعوا فيه.

وأما كمال الاتصال لوقوع الجملة الثانية بمنزلة التوكيد من الجملة الأولى فإنك تجد من مواضعه في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل قوله ﷺ من قصة الحجر الذي فرّ بثوب موسى–عليه السلام – في مطلع القصة:"كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوأة بعض. "[1]، وقوله في قصة البقرة التي كلمت راكبها:" إنا لم نخلق لهذا إنما خلقنا للحرث "[2] ﷺ في قصة أصحاب الأخدود، وذلك على لسان الغلام للملك وجليسه:"إني لا أشفي أحدًا إنما يشفي الله "[3]، حيث فصلت في قصة الحجر جملة: "ينظر بعضهم إلى

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

(٣) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقاق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام ص٨٤٩ حديث ٣٠٠٥

سوأة بعض" عن جملة "كانوا بني إسرائيل يغتسلون عراة" وفصلت في قصة البقرة: "إنما خلقنا للحرث" عن جملة "إنا لم نخلق لهذا"، وفصلت في قصة أصحاب الأخدود جملة "إنما يشفي الله" عن جملة:-" إني لا أشفي أحدًا "لكمال الاتصال بينها، حيث نزلت الجملة الثانية في القصص الثلاث منزلة التوكيد المعنوي من الجملة الأولى فيها؛ لأن مضمون الجملة الثانية في كل منها، وإن لم يكن هو نفسه مضمون الجملة الأولى إلا أنه يقرره ويؤكده؛ لاقتضائه واستلزامه إياه؛ فإن نظر بعض بني إسرائيل إلى سوأة بعض في قصة الحجر لا يكون إلا من اغتسالهم عراة، وتجردهم من كافة الثياب، وهذا استهجان لفعلهم، وتقبيح له، وتنفير منه، وتأكيد على أن الأجدر بالمروءة، الأوفق بالحياء – وإن كان ما فعلوه مباحًا في شرعهم(١) – أن يغتسل كل منهم وحده، كما كان يفعل موسى عليه السلام.

وتأكيد نسبة خلق البقرة للحرث في قصة البقرة التي كلمت صاحبها، وكذا إثبات نسبة الشفاء إلى الله – تعالى- في قصة أصحاب الأخدود، يستلزم نفي نسبة البقرة إلى الركوب، ونفي نسبة الشفاء إلى الغلام، فمضمون الجملة الثانية في كل منهما وإن لم يكن هو نفسه مضمون الجملة الأولى إلا أنه جاء مقررًا ومؤكدًا له؛ لاستلزامه إياه، والمقام يقتضي هذا التقرير والتوكيد؛ لاعتقاد المخاطب في كل منهما خلاف ما أثبته المتكلم وعكسه:اعتقاد الراكب أن البقرة خلقت للركوب، واعتقاد الملك والجليس نسبة الشفاء إلى الغلام، وقرينته –هنا – من إخراج الجملتين المفصولتين مخرج القصر، وكون "إنما" هي طريق القصر خاصة.

---

(١) ينظر فتح الباري لابن حجر ٣٨٦/١.

كما تجد من مواضعه –أيضا –قول النبي ﷺ في قصة أصحاب الأخدود: "أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك"[1]،وكذا قوله ﷺ في قصة أيوب –عليه السلام –:"إن نبي الله أيوب كان في بلائه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلان من إخوانه، كانا من أخص إخوانه" [2]، حيث نزلت الجملة الثانية في كل منهما منزلة التوكيد اللفظي من الجملة الأولى؛ فنزل قوله في الموضع الأول: "قد والله نزل بك حذرك" منزلة التوكيد اللفظي من قوله:" أرأيت ما كنت تحذر" فإن مضمونهما واحد وألفاظهما متقاربة، ومن ثم فصل بينهما، وكذلك الشأن في الموضع الثاني؛ نزل قوله:"كانا من أخص إخوانه" منزلة التوكيد اللفظي من قوله: "فرفضه القريب والبعيد إلا رجلان من إخوانه"، ولا شك في أن المقام يقتضي هذا التقرير والتوكيد؛ لأنه الأدخل في الموضع الأول في لوم الملك وتأنيبه، الأقوى في تعنيفه ومعاتبته؛ لدلالته على بالغ استياء الملأ مما أقدم عليه الملك وانزعاجهم الشديد منه؛ بقرينة قوله ﷺ في سياق القصة بعده:"قد آمن الناس" وقوله ﷺ في رواية أخرى:"فقيل للملك أجزعت أن خالفك ثلاثة؟ فهذا العالم كلهم قد خالفوك."[3]

ولأنه في قصة أيوب هو الأبلغ في تصوير قوة الرابطة، وشدّة اللحمة، وعمق الوشيجة التي كانت تجمع بين الرجلين وبين أيوب –عليه السلام –الآكد في الدلالة على اطلاعهما على خاصة أمره، ومعرفتهما بأدق أحواله؛ ليكون هذا –من وجه–كالدليل والبرهان على سبب صلتهما له، ووجه عدم انقطاعهما أو تخليهما عن الوقوف إلى جانبه، وعلى فرط نكارة تلك المقولة التي صدرت

---

(١) الحديث سبق تخريجه

(٢) الحديث سبق تخريجه

(٣) سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البروج ٥/٢٩٤،حديث ٣٣٤٠

بعد عن أحدهما من وجه آخر، وبلوغها في الشناعة والفظاعة حدًا لا يـــدرك، ودليل هذا أن الآخر لم يصبر –لشدة قباحتها – على كتمانها، فأخبر بها أيوب –عليه السلام –.

الصورة الرابعة
التوكيد بإخراج الكلام مخرج التعليل

يعد إخراج الجملة مخرج العلة من سابقتها من أقوى وسائل التقرير والتوكيد عمومًا، ويمثل لمسة من لمسات المنهج التربوي الحكيم في القصص النبوي خصوصًا، تعقب -غالبًا -الأمر الشاق الثقيل، أو تتقدم عليه قليلًا، بل ذكر العلماء أنه أقوى من التأكيد بالتكرار المجرد(١).

ومرد ذلك إلى أن علة الشيء تنبه العقل إلى حكمة الشيء وسببه، وتمثل البرهان الساطع على صحته، والدليل الدامغ المقتضي له في منطقه المستقيم، فيبعث ذلك النفس بحكم ما أثمر فيها من فرط الامتناع بالحكم على الإقبال على الامتثال بهمة ونشاط(٢).

ووقوع الجملة في موقع العلة من الكلام السابق عليها لا يطرد كثيرًا في القصص النبوي عن بني إسرائيل، بحيث يرقى إلى أن يمثل ظاهرة أسلوبية في سياقاته، وإنما جاء في مواضع ليست بالقليلة، والسبب في ذلك أن القصص النبوي عمومًا يحمل في طياته من وسائل الإقناع والتأثير، والتنبيه واللفت ما يبعث النفس على الإقبال بهمة نشاط.

وإخراج الكلام مخرج التعليل يأتي في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل على صورتين: الأولى وهي الغالبة: أن تتأخر العلة، ويتقدم المعلول، والثانية وهي قليلة أن تتقدم العلة ويتأخر المعلول. أما الصورة الأولى فقد جاءت فيما يزيد على خمسة عشر موضعًا، لعل أبرزها ما جاء في قصة

---

(١) ينظر الكليات للكفوي صـ٢٦٨.

(٢) ينظر التعليل في القرآن الكريم. دراسة وتفسير ص ٣٧٩، د/ محمد سالم، الطبعة الأولى، مطبوعات أولاد عثمان.

الرجل الذي قتل مائة نفس، على لسان العالم مخاطباً إياه:"انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله – تعالى – فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء"(١)، فإنّ أمر العالم إياه بالانطلاق إلى أرض بعيدة غريبة عن أرضه التي نشأ فيها، ونما وترعرع عليها، وقضى معظم سنين عمره في شعابها! ثم نهيه عن الرجوع إليها مرة أخرى مما يثقل وقعه على النفس، ويعظم أثره في القلب، فأتبع كل من الأمر والنهي ببيان حكمته، والنص على علته، فأتبع الأمر بالانطلاق إلى أرض كذا وكذا بقوله: "فإن بها أناسًا يعبدون الله –تعالى –فاعبد الله معهم"، وأتبع النهي عن الرجوع إلى أرضه مرة أخرى بقوله: "فإنها أرض سوء"؛ تهويناً للأمر على النفس، وتخفيفاً من وقعه في القلب، وحثًا على امتثاله والالتزام به، لا سيما وقد أراد هذا القاتل التوبة، وعزم على الخلاص من ذنبه، والتطهر من رجسه، وتقريرًا وتوكيدًا للحكم؛ لقيام العلة المذكورة في كل مقام الدليل على صحة الأمر والنهي، والبرهان المقتضي لكل منهما في منطقه المستقيم، وهذا أدعى إلى الإقناع به، ونفي الشبهة عنه، وإزالة الشك والتردد من حوله.

ومن أبرز هذه المواضع –أيضا– قوله ﷺ في قصة أصحاب الأخدود، وعلى لسان الطفل الرضيع الذي كلم أمه التي تقاعست عن أن تقذف بنفسها في النار من أجله: "يا أماه! اصبري؛ فإنك على الحق"(٢)،فإن اتباع الأمر

(١) البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار ص ٤٥٧،حديث ٣٤٧٠،ومسلم في كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل ص ٧٨٦،حديث ٢٧٦٦.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في كتاب التفسير، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام ص ٨٤٩_٨٥٠،حديث ٣٠٠٥

بالصبر في قول الغلام مخاطبًا أمه:"يا أماه! اصبري" بيان علته، والكشف عن حكمته في قوله:"فإنك على الحق" مما يقتضيه مقام تثبيتها في هذا الموقف الرهيب العصيب الذي تبلى فيه السرائر، وتزل فيه الأقدام، ويتسم بالضيق والكرب؛ لما فيه من تهوين هذا الأمر الشاق الثقيل على نفسها، وتأنيس قلبها، وإقناعها بالصبر، وحثها على الثبات على الحق؛ لقيام العلة مقام الدليل على صحة الأمر، والبرهان على سلامة الحكم.

ومن هذه المواضع –أيضا– قوله ﷺ في قصة الرجل الذي أمر أولاده بإحراقه بعد موته:"كان رجل يسرف على نفسه لما حضره الموت قال لبنيه:إذا أنا مت فاحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر الله على ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا"(١)، حيث أمر الرجل أولاده أن يحرقوه بعد موته، ثم يطحنوه، ثم يذروه في الريح، وهذا مما يثير الدهشة، ويدعو إلى الاستغراب، ويدفع إلى أشد الاستنكار، ويشق على أولاده أن يفعلوا ذلك بأبيهم غاية المشقة، لا سيما وقد وقع هذا في أمة مسلمة تؤمن بالله واليوم الآخر، وهم بنو إسرائيل، وذلك حسبما ينطق به كلام الرجل نفسه، وتأكيد هذا ما جاء في إحدى روايات الحديث من أنه تهدد أولاده إن لم يعطوه مواثيقهم بما طلب منهم أن يوصي بميراثه لغيرهم:"لتفعلن ما آمركم به أو لأولين ميراثي غيركم"(٢)، فجاء قوله: "فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا"؛ ليكشف عن علة هذا الطلب الغريب، ويميط اللثام عن سببه، وهو عظم خوف هذا الرجل من عذاب الله؛ بسبب إسرافه على نفسه، وهذا أدعى إلى تقرير الأمر وتوكيده، وتهوينه وتخفيفه، وإيناس أولاده به، وإقناعهم بتجشم أعبائه وأثقاله.

---

(١) الحديث سبق تخريجه

(٢) الحديث سبق تخريجه

ومن هذه المواضع –أيضا– قوله ﷺ في قصة الرجل العابد الذي أحبته امرأة غوية[1]: "اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث" وقوله من القصة نفسها، وهو من التكرار؛ لطول الفاصل؛ زيادة في التقرير والتوكيد:"فاجتنبوا الخمر فإنها والله لا يجتمع الإيمان و إدمان الخمر إلا ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه" فإن الغرض من تقفية الأمر باجتناب الخمر في الموضعين بعلته وسببه المصحح والمقتضي له في منطقه المستقيم، من كون الخمر في الأول هي أم الخبائث، وأصل المفاسد والشرور، ومن انتفاء اجتماعها –في الثاني– مع الإيمان في قلب إلا ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه هو تقرير الحكم وتوكيده!، وتحقيقه وتثبيته، وهذا هو الأوفق في مقام التحذير من معاقرة الخمر، وتصوير مدى خطورة إدمانها وشدّة تأثيره؛ لأنه الأكثر تهيئة للنفس لاستقبال الحكم، وأبعث على الالتزام به، وذلك بحكم ما أثمر فيها من فرط الامتناع بالحكم على الإقبال على الامتثال بهمة ونشاط، لا سيما وقد اجتمع التكرار إلى التعليل في نسق الكلام، والذي يدل –هو الآخر –على أهمية الأمر وخطورته، وما علم من مقتضى حال العرب من شدة حبهم للخمر، وكثرة تعاطيهم إياها؛ ولذلك جاء تحرمها على عدة مراحل، وعلى هذا يمكن قياس سائر مواضع هذا النوع من المؤكدات الذي جاء في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل، كقوله في قصة المتكلمين في المهد:"إن ذلك الرجل كان جبّارًا، فقلت اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه الأمة يقولون لها زنيت.... ولم تزن...."[2]، وكذا قوله في قصة الأبرص والأقرع والأعمى، على لسان الملك

(١) الحديث سبق تخريجه

(٢) الحديث سبق تخريجه

للأعمى خاصة:"أمسك مالك فإنما ابتليتم"[1]، وقوله في قصة الرجل الذي اشترى من رجل عقارًا:" خذ ذهبك؛ إنما اشتريت منك الأرض ولم أشتر منك الذهب "[2]، وقوله في قصة المرأتين اللتين عدا الذئب بابن إحداهما:" لا تفعل يرحمك الله –هو ابنها –"[3]، وغير ذلك مما تجاوز البحث عن ذكره؛ نظرًا لضيق المقام، حيث تجد في تعقيب الحكم بعلته وسببه المصحح له في كل هذه المواضع تقريرًا وتأكيدًا، وبعثًا للنفس على قبول الحكم والتزامه؛ لما ذكر من أسباب.

وأما الصورة الثانية، وهي تقدم العلة على المعلول في نسق الكلام وبنائه فذلك قليل نادر؛ لجريانه على خلاف الأصل؛ إذ المعول عليه عند الأصوليين أن يتقدم المعلول على علته، وأن العلة إنما تدور على المعلول وجودًا وعدمًا؛ فإذا وجد المعلول وجدت العلة، وإذا انتفى المعلول انتفت العلة، ولا تتقدم العلة على معلولها إلا إذا أمن اللبس، وكان المعنى في غاية الظهور والوضوح[4] وذلك اهتمامًا بالعلة، وتنبيهًا عليها من أول الأمر وأنها المقصودة بالكلام ابتداءً.

وقد وقفت على ثلاثة مواضع تقدمت فيها العلة على المعلول في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل، جاء أولها في قصة أصحاب الأخدود، على

---

(١) الحديث سبق تخريجه

(٢) الحديث سبق تخريجه

(٣) الحديث سبق تخريجه

(٤) ينظرالإحكام في شرح أصول الأحكام لابن حزم ٩٩/٨، تحقيق/ أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون، كما ينظر نفائس الأصول في شرح الوصول للقرافي ٣٤٣/٨، تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

لسان الساحر مخاطبًا الملك:"إني قد كبرت فابعث لي غلامًا أعلمه السحر."[1]، فإنّ تقديم العلة" إني قد كبرت "في كلام الساحر على المعلول:"فابعث لي غلامًا أعلمه السحر" إنما كان من الاهتمام بالعلة، والاعتناء بها، والتنبيه إليها من أول الأمر؛ ليأخذ الملك كلام الساحر على محمل الجد، ويلتفت إلى خطورة الأمر.

ومن وجه آخر فإن تقديم العلة على المعلول في هذا السياق هو الذي يقتضيه مقام مخاطبة الملوك؛ لما فيه من كمال اللياقة، ورعاية حسن الأدب، والبعد عن الجفاء في خطاب الملك حيث قدم اعتذاره بين يدي مطلوبه، حتى لا يواجه الملك من أول الأمر بالطلب صراحة؛ ليكون ذلك أعون له على تحقيق مطلوبه، وأبعث على قضائه وتلبيته.

وجاء الموضع الثانى في قصة النبي الذي أعجب بقومه، وذلك قولهم:- "أنت نبى الله، فكل ذلك إليك، خر لنا"[2]، أى: اختر لنا، حيث قدمت العلة:" أنت نبي الله فكل ذلك إليك" على المعلول:"خر لنا"؛ لما فيه -أيضا-من كمال حسن الأدب في مخاطبة القوم نبيهم، كما يقتضيه مقام إجلاله و إكباره، وتوقيره وتعظيمه.

وفي هذا التقديم -أيضًا -تنبيه على أن هذه العلة هى التي عليها مدار الحكم بإسناد الأمر بالاختيار إلى هذا النبي خاصة؛ إذ لا علم لهم بحقيقة الأمر، وليس عندهم من المؤهلات ما يمكنهم من حسن الاختيار لأنفسهم، وفيه نوع من الرضا التام، والتسليم المطلق لما يختاره لهم، كما يشعر به ذكرهم

(١) الحديث سبق تخريجه

(٢) الحديث سبق تخريجه

إياه بوصف النبوة الذي يستلزم العلم بحقيقة ما خير فيه من خصال، والله أعلم.

وأما الموضع الثالث فقد جاء في قصة النبي الذي حبست عليه الشمس، في قوله: "إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا "[1] فإن تقديم العلة:" إنك مأمورة وأنا مأمور" على المعلول: "اللهم احبسها علينا" مما ينادي عليه المقام؛ لما يتعلق بطلب هذا النبي حبس الشمس عليهم من الغرابة الزائدة عن الحد؛ لخروجه على خلاف السنن الكونية الجارية، وهو مما يجعله محل استنكار بالغ، وموطن تعجب شديد فقدمت العلة على المعلول؛ توطئة وتمهيدًا بين يدي هذا المطلوب الغريب؛ إيناسًا للنفوس به، وإزالة لما قد يعلق به ويحوم حوله من أوجه الدهشة والاستغراب، وليكون ذلك أدعى إلى تحقيق رجائه، واستجابة دعائه، وهو ما وقع وحصل، وذلك على الوجه الذي كشف عنه سياق القصة بعد ذلك في قوله ﷺ: "فحبست حتى فتح الله عليه"، والله أعلم.

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب فرض الخمس، باب قول النبي ﷺ" أحلت لكم الغنائم" ص٤٠٦، حديث ٣١٢٤،ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب تحليل الغنائم ص٥١٢، حديث ١٧٧٤

الصورة الخامسة
التوكيد بعطف الخاص على العام وعكسه

ذكر البلاغيون في كتبهم أن عطف الخاص على العام وعكسه صورة من صور الإطناب في المعنى، وحدوه: بأن يذكر لفظ يدل على العموم أولاً، ثم يذكر لفظ داخل في هذا العموم على سبيل العطف ثانيًا، وعكسه عطف العام على الخاص(١)

وإنما عد هذا النمط الأسلوبي من وسائل التقرير والتوكيد من حيث إن الخاص يذكر مرتين:مرة في لفظ العام الداخل فيه، ومرة أخرى حين يفرد وحده من بين هذا العام بالذكر، وهذا تقرير له، وتأكيد عليه، وتنبيه على غاية فضله؛ كأنه ليس من جنس العام؛ تنزيلاً للتغاير في الوصف الكائن في الخاص، والذي حصلت به المزية له منزلة التغاير في الذات(٢).

والذي يتأمل عطف الخاص على العام في القصص النبوي عن بني إسرائيل يجد أنه لا يشبه في الغالب المذكور في كتب البلاغيين؛ لمجيئه-أولاً- في صورة الجملة، وليس في صورة المفرد، كما هو مقتضى تعريف البلاغيين السابق، ودلالة الجملة وعطاؤها أقوى وأكثر من دلالة المفرد وعطائه.

ولتنوع أداة العطف فيه ثانيًا؛ فقد يعطف الخاص على العام بأو، أو بالفاء، إلى جانب العطف بالواو، وذلك على خلاف ما يفهم من استشهادات البلاغيين

---

(١) ينظر شروح التلخيص ٢١٧/٣.

(٢) بمعنى أنه لما انفرد عن سائر أفراد العام بما له من الأوصاف الشريفة أو الوضيعة صار كأنه شيء آخر مغاير لذلك العام، بحيث لا يشمله هذا العام، ولا يعلم حكمه منه، وبذلك صح ذكره على سبيل العطف المقتضي للتغاير /ينظر شروح التخليص ٢١٧/٣

من أن العطف يكون بالواو خاصة، وهو مع ذلك قليل الدوران في هذا النوع من القصص النبوي؛ إذ لم يرد إلا في عدة مواضع، منها قول النبي ﷺ في قصة الكلمات الخمس التي أوحاها الله إلى يحيى بن زكريا –عليهما السلام – وأمره أن يبلغها بني إسرائيل ليعملوا بها، ثم إن عيسى بن مريم –عليه السلام – تعجله بإبلاغهن، أو ينوب عنه في ذلك، فقال يحيى –عليه السلام –:"إنك إن تسبقني بهن خشيت أن أعذب أو يخسف بي"(١)، فإنّ الخسف من جنس العذاب، وفرد من أفراده إلا أنه خصه بالذكر ثانيًا على سبيل العطف بأو؛ لفظاعته وشدّته، كأنه جنس مستقل بذاته، ولعل ذلك لاختصاصه في الغالب بالمستكبرين المتجبرين، فنزل التغاير في الصفات منزلة التغاير في الذات؛ تقريرًا وتأكيدًا على شدة خشيته عليه السلام نزول العذاب به، أو حلول الخسف عليه، إن سبقه عيسى عليه السلام بإبلاغهن إياهم.

ومن هذه المواضع أيضا –قول النبي ﷺ في قصة المرأة التي دخلت النار في هرة حبستها، في إحدى روايات الحديث:"عذبت امرأة في هرة سجنتها، حتى ماتت، فدخلت فيها النار"(٢)، فإنّ النار من جنس العذاب، وباب من لكنها لما اختصت بما لها من الأوصاف المغايرة كالإحراق وغيره، صارت كأنها جنس مستقل بذاته عن العذاب، فمن ثم صح عطفها عليه في قوله:" فدخلت فيها النار ".

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه في كتاب الأمثال، باب ما جاء في الصلاة والصيام والصدقة ص ١٤٧٥،حديث ٢٨٦٣، والحاكم في مستدركه وصححه، كتاب الصوم ٥٨٢/١،حديث ١٥٣٤، تحقيق /مصطفى عبدالقادر عطا _الطبعة الأولى ١٩٩٠ _دار الكتب العلمية _بيروت.

(٢) الحديث سبق تخريجه

وإخراج الكلام مخرج التقرير والتوكيد بذكر الخاص بعد العام مما يقتضيه مقام الإنذار والتخويف من تعذيب العجماوات؛ لما فيه من زيادة في التفخيم والتهويل، والتبشيع والتفظيع من هذا الفعل المنكر الشنيع الذي أقدمت عليه تلك المرأة، حتى لا يقترف أحد مثل جريرتها أو يرتكب مثل جرمها، ولذا عطفت الجملة بالفاء خاصة دون غيرها من حروف العطف؛ لدلالتها على ترتب الجزاء على الفعل على وجه السرعة.

ومن ذلك -أيضا -قوله ﷺ في قصة وفاة نبي الله داود -عليه السلام -: "فقال سليمان للطير:أظلي على داود، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهما الأرض..... وغلبت عليه يومئذ المضرحية"(١)، فإنّ المضرحية من الطير، إذ هي نوع من الصقور(٢)؛ لكنها لما اختصت من بين سائر الطيور بطول الأجنحة التي تمكنها من الوفاء بالأمر الذي أمرها به سليمان -عليه السلام - من تظليل داود من الشمس على أكمل وجه وأتمه، صارت كأنها جنس مغاير لسائر أجناس الطير، فنزل التغاير في الصفات منزلة التغاير في الذات؛ للتنبيه بذلك على فضلها، والتأكيد على تفوقها على سائر الطير في هذا الأمر، والمقام يقتضي التقرير والتأكيد، إذ هو في تصوير كرامة نبي الله داود عليه السلام حتى بعد موته، وفي الامتنان والتفضل على نبي الله سليمان عليه السلام بتسخير الطير له، تأتمر بأمره، وتسمع له وتطيع، وتلك مقامات تتطلب بسطة في العبارة، وسعة في الكلام، حتى يقع الامتنان والتفضل موقعه، وهذا ما يحققه ذكر الخاص بعد

(١) الحديث أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب فيه ذكر الأنبياء، باب ذكر نبي الله داود – عليه السلام – ٢٠٧/٨، حديث رقم ١٣٧٩٦، وابن كثير في البداية والنهاية، ٢٠/٢، الطبعة الأولى ١٩٨٨ م، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي _بيروت.

(٢) ينظر لسان العرب لابن منظور، ضرح ٢٥٧٢/٤.

العام، وعلى هذا يمكن قياس قوله ﷺ في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، وعلى لسان الأول خاصة: "فكرهت أن أوقظهما، وأن أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا، فلبثت والقدح على يدي... والصبية يتضاغون عند قدمي"(١)، فإنّ لفظة الأهل تشمل فيما تشمل الصبية الصغار الذين يتصايحون من شدّة الجوع؛ إلا أنه أفردهم بالذكر من بين الأهل مرة أخرى؛ لمزيد اختصاصهم بأوصاف ليست في سائر الأهل، كالضعف والخرق، وعدم الصبر على تحمل الجوع والعطش، وشدّة الحاجة إلى العطف والرعاية، والافتقار إلى الحنو والرفق، وهذا –من وجه– تقرير لاستعلائه على نوازع الفطرة، وداعي الجبلة البشرية بحكم الأبوة من تقديم الأطفال الصغار على غيرهم لا سيما إذا كان مقتضى حالهم في الصراخ والصياح تحت قدمه من شدّة الجوع والعطش يتطلب ذلك، مع وجود العذر الذي يرفع الحرج والمشقة عنه؛ فقد كان والداه نائمين.

ومن وجه آخر تأكيد على عظيم بره بوالديه، وشدّة إحسانه إليهما، وتقديمه لهما على سائر الأهل والولد، ليكون ذلك كله في هذا الموقف المكروب الذي يتسم بالضيق والشدة أدعى إلى قبول دعائه، وتحقق رجائه في النجاة من الموت المحقق؛ بسبب انسداد باب الغار عليهم.

أما عطف العام على الخاص فهو لا يختلف في نكتته وسره عن عطف الخاص على العام؛ إذ إن ما فيه من نكتة التقرير والتوكيد، وزيادة التنبيه على الفضل والمكانة، أو الخسة والوضاعة تعود –كما ذكر البلاغيون (٢)– إلى الخاص.

---

(١) الحديث سبق تخريجه

(٢) ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٨٦٢/٢، تقديم وتعليق: د/ مصطفى ديب البغا، الطبعة الثالثة ١٩٩٦م، دار ابن كثير – دمشق – بيروت، وفصول من علم المعاني ص ١٤٧

وقد فتشت عن هذه الصورة في سياقات هذا النوع من القصص النبوي فلم أجد لها إلا موضعًا واحدًا، جاء في قصة أصحاب الأخدود في قول النبي ﷺ حكاية عن الغلام:"وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء "، حيث ذكر الخاص – أولًا–، وهو إبراء الغلام الأكمه والأبرص، والأكمه:هو الذي يولد مطموس العين(١)، والبرص: داء يصيب الجلد، وبياض يقع في الجسد معروف(٢)، ثم عطف عليه العام –ثانيًا –وهو قوله:" ويداوي الناس من سائر الأدواء " ولا شك في أن مداواة الغلام الناس من سائر الأدواء تشمل فيما تشمل إبراء الأكمه والأبرص؛ إذ هما من جنس الأدواء، لكن إخراج الكلام هذا المخرج هو الأوفق بمقام تحدي الملك ومطاولته، وإظهار زيفه، وتعرية كذبه فيما ادعاه من الربوبية؛ لما فيه من المبالغة في الدلالة على تأكيد قدرة الغلام على إبراء الأكمه والأبرص– بإذن الله– وتحقيقه، وتصوير شدّة ضعف الملك، وتجسيد غاية عجزه، والتنبيه على اختصاص هذين الداءين في هذا الزمان خاصة من بين سائر الأدواء بمزيد أوصاف ليست في غيرهما، كتفشيهما بين الناس، وندرة الشفاء منهما أو استحالته، لاسيما الأكمه الذي ولد أعمى، والله أعلم.

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب. كمه صـ٧٢٦، ولسان العرب لابن منظور كمه ٣٩٣٣/٥.

(٢) ينظر مفردات ألفاظ القرآن للراغب _برص ص١١٨، ولسان العرب لابن منظور برص ٢٨٥/١

الصورة السادسة
التوكيد بأسلوب التكرار

التكرار:هو إعادة العبارة بنصها في سياق واحد؛ لغرض يستدعي إعادتها، وفي مقام يقتضي هذه الإعادة(١) ويتحقق التكرار في الكلام بإعادة لفظ بعينه، أو بإعادة بعض جملة، أو جملة فما فوقها، ولا بد أن يكون لمقتضى ونكتة، وإلا كان عيًا في الكلام معيبًا(٢).

وأسلوب التكرار كثير الدوران في الكلام العربي، فجاء منه في القرآن الكريم، وجاء منه في البيان النبوي الشريف، ووقع في كلام العرب الفصحاء شعرًا ونثرًا؛ لمقاصد وأغراض بلاغية، يأتي في مقدمتها التقرير والتوكيد، وزيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول(٣)؛وذلك لما يتصل به من سمات وخصائص تعمل على تفصيل المعاني، وإظهار الدقائق، وبسط الأحكام، وتبيين المجهول، وهذه كلها من مقتضيات التقرير والتوكيد، ومتطلبات التحقيق والتشديد؛ لدلالتها على اهتمام المتكلم بخبره، وشدّة عنايته بمعناه، واحتشاده لتزجيته وإثباته.

وقد اتكأ البيان النبوي في سياقات قصص بني إسرائيل على هذه الظاهرة الأسلوبية كثيرًا، وفي مقامات وأغراض مختلفة؛ نظرًا لما تتسم به شخصية بني إسرائيل بحكم الجبلة من التواء وتمرد، وغموض وعدم وضوح، وشدّة مراء وجدل، وكثرة اختلاف على الأنبياء والرسل، فجاء التكرار للتقرير والتوكيد، وإزالة اللبس، وإقامة الحجة، وتحقيق البيان والوضوح.

---

(١) التكرار بلاغة _د/إبراهيم الخولي ص٢١، الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٩٣م

(٢) ينظر نفس المرجع صـ٢١

(٣) ينظر شروح التلخيص ٢١٨/٣، كما ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٨٤٩/٢

ومثال ذلك –وهو من تكرار الجملة –قوله ﷺ في قصة الحجر الذي فرّ بثوب موسى–عليه السلام –:"فذهب – أي موسى –عليه السلام –مرة يغتسل، فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، قال: فجمع موسى بأثره، يقول: ثوبي حجر! ثوبي حجر، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوأة موسى، فقالوا: والله ما بموسى من بأس"(١)، فإنّ تكرار جملة:"ثوبي حجر" مرتين؛ للمبالغة في التقرير والتأكيد على شدة حياء موسى –عليه السلام – وإمعانه في التخفي والتستر عن الأعين، حتى لا يرى من جسده شيء وهو يغتسل، مع كونه مباحًا في شريعتهم؛ بدلالة ما جاء في أول الحديث من قوله ﷺ:"كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوأة بعض، وكان موسى–عليه السلام – يغتسل وحده"(٢)

وإنما كان ذلك كذلك لدلالة التكرار على فرط لهفته عليه السلام وشدّة حرصه على درك الحجر الذي فرّ بثوبه، وجده في طلبه.

ودليل هذا من المقام؛ إذ هو الذي يتطابق مع مقتضى حال الأنبياء في الحشمة والتستر، وشدّة الحياء، وموسى عليه السلام من الخمسة أولي العزم، وقد كان شديد الحياء، عظيم التستر والتخفي.

وقرينة هذا من سياق الحديث، فقد خرجت الجملة المكررة مخرج الإيجاز

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة الأحزاب، باب قوله "لا تكونوا كالذين آذوا موسى "صـ٦٤٣، حديث ٤٧٩٩، وفي كتاب الغسل، باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة، ومن تستر فالتستر أفضل صـ ٥٩، حديث ٢٧٨،ومسلم في كتاب الحيض، باب جواز الاغتسال عرياناً في الخلوة ص١٠١، حديث ٣٣٩

(٢) نفس المرجعين السابقين، البخاري صـ ٥٩، حديث ٢٧٨،ومسلم صـ١٠١، حديث ٣٣٩

بحذف العامل، وحذف حرف النداء؛ إذ الأصل أن يقال: "اترك أو دع ثوبي يا حجر"، ومنشأ هذا الحذف وداعيه هو اللهفة العارمة، والحرص الحريص على درك الحاجة، والخشية من فوات المطلوب، وضياع الفرصة.

ومن قوله في أول الحديث:-"وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده "، وهذا إنما يكون من الحياء المتخفي عن أعين الناس، مع كونه كان مباحًا في شريعته، كما ثبت في أول الحديث؛ إذ لو كان محظورًا لنهاهم موسى-عليه السلام -عن ذلك.

ويؤكد هذا التوجه في التحليل النص عليه صراحة في الرواية الأخرى التي جاء فيها:" إن موسى كان رجلاً حييًا ستيرًا، لا يرى من جلده شيء استحياء منه"(١)

ومن التكرار بإعادة جمل بعينها قوله ﷺ في قصة المتكلمين في المهد، ومن قصة الصبي الذي ترك ثدي أمه، ورد دعاءها الذي دعت به:" وبينا صبي يرضع من أمه فمر رجل على دابة فارهة، وشارة حسنة، فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الثدي، وأقبل إليه، فنظر إليه، فقال: اللهم لا تجعلني مثله... ومروا بجارية وهم يضربونها... فقالت:اللهم لا تجعل ابني مثلها، فترك الرضاع، ونظر إليها، وقال:اللهم اجعلني مثلها "(٢) فقد تكررت عدة جمل بعينها في سياق هذه القصة عدة مرات، وهي قوله:"اللهم اجعل ابني

---

(١) ينظر البخاري، كتاب التفسير، سورة الأحزاب، باب قوله:" لا تكونوا كالذين آذوا موسى" ص ٦٤٣،حديث ٤٧٩٩.

(٢) البخاري في كتاب العمل في الصلاة، باب إذا دعت الأم ولدها في الصلاة ص١٦٦، حديث ١٢٠٦،وفي كتاب المظالم، باب إذا هدم حائطًا فليبن مثله ص ٣١٩، حديث ٢٤٨٢، ومسلم في كتاب البر والصلاة والآداب، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها ص٧٣٣، حديث ٢٥٥٠

مثل هذا اللهم لا تجعلني مثلها – اللهم لا تجعل ابني مثلها – اللهم اجعلني مثلها"، والغرض من ذلك هو زيادة التقرير والتوكيد على نطق هذا الغلام، وتكلمه في المهد، وإزالة كافة أوجه الاستغراب وأسباب التعجب التي قد تحوم من حوله؛ إذ هي في قصة هذا الغلام أقوى وأظهر منها في قصتي عيسى عليه السلام – وجريج العابد، فإنّ عيسى –عليه السلام –هو عبدالله ورسوله، فنطقه كان معجزة، وصدور المعجزات، ووقوع الخوارق على أيدي الأنبياء والمرسلين مما لا يستغرب، ولا تحوم حوله الشبهات، وجريج العابد كان وليًا، فنطق الصبي له يدخل في باب الكرامات التي يؤيد الله بها أولياءه.

أما هذا الصبي الذي كان يرتضع ثدي أمه فما يعلم من أمره وأمر أمه إلا ما قصه الحديث الشريف، فالإخبار بنطقه في المهد على هذه الحال أشد غرابة، وأدخل في باب الإنكار والتعجب؛ لذا كان التكرار بإعادة الجمل المذكورة في نسق القصة عدة مرات هو الأوفق بهذه الحال، الأبلغ في تقرير نطقه، وتأكيد تكلمه في المهد، الأقوى في إزالة كافة الملابسات والشبه التي يمكن أن تحوم من حوله.

وتجد هذا التكرار –أيضا– في قصة جريج؛ في تكرار نداء أمه عليه ثلاث مرات: " يا جريج"، وفي تكرار موقفه وردة فعله عند سماعه نداءها كل مرة:"أي رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته"(١)، فإنّ حكاية تكرر ندائها عليه ثلاث مرات؛ للتأكيد على تعدد مرات الزيارة وتكررها في ثلاثة أيام، وفي هذا دلالة على شدة احتياجها إليه، أو فرط شوقها لرؤيته، وليكون هذا

(١) البخاري، كتاب العمل في الصلاة، باب إذا دعت الأم ولدها في الصلاة صـ١٦٦، حديث ١٢٠٦، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها صـ٧٣٣، حديث ٢٥٥٠.

التكرار كالتمهيد بين يدي الوقائع والأحداث؛ للإشارة إلى استحقاقه ما ألم به من ابتلاء وفتنة بسبب دعوتها عليه، وقرينة هذا ما جاء في رواية أخرى:"ولو دعت عليه أن يفتن لفتن"(١)

أما تكرار حكاية موقفه وردة فعله عند سماعه نداء أمه، فللتأكيد على شدة تحيره في الأمر، وتحقيق تردده في المسألة، أيلبي نداء أمه أم يقبل على صلاته؟ ثم استقر به النظر أن أقبل على صلاته، وترك تلبية نداء أمه، وهذا الذي ينسجم مع مقتضى حاله في التعبد والانقطاع للصلاة، مع قلة العلم والفقه، ومن ثم استدل العلماء بذلك على أن جريجًا لم يكن عالمًا؛ إذ لو كان عالمًا لترجح عنده قطع صلاته، وتلبية نداء أمه، ويؤيد هذا ما ذكر من أنه كان يشتغل بالتجارة قبل الرهبنة والتبتل(٢).

وشبيه بذلك التكرار بإعادة جمل بعينها في قصة الأبرص، والأقرع، والأعمى، حيث تجده في سؤال الملك كل واحد من الثلاثة هذين السؤالين:"أي شيء أحب إليك؟ -أي المال أحب إليك؟"، وتجده في دعاء الملك للثلاثة بالبركة بعد أن أعطى كل واحد منهم ما يحب من المال:"بارك الله لك فيها"، كما تجده في قوله حين طلب العون من الثلاثة:"رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك....."(٣)، فإنك تجد الغرض من تكرار هذه الجمل المذكورة هو التأكيد

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها، ص ٧٣٢_٧٣٣،حديث ٢٥٥٠.

(٢) ينظر المفهم شرح صحيح مسلم للحافظ الأنصاري القرطبي ٦٠/٢١، ٦١، الطبعة الأولى ١٩٩٢م'، دار الكتاب المصري – القاهرة، كما ينظر صحيح القصص النبوي د/عمر سليمان عبدالله الأشقر ص٢٧٤

(٣) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني

على تساوي الثلاثة في كم الابتلاء ومقداره، والدلالة على استحقاق كل واحد منهم ما آل إليه أمره بعد وقوع الابتلاء، حتى لا تكون لأحدهم معذرة، ولا تقوم له حجة.

وفي هذا التكرار سر آخر: هو التنبيه إلى اختلاف المتعلق وتعدده بأن يكون المكرر ثانيًا –متعلقا بغير ما تعلق به الأول، وكذا التنبيه إلى اختلاف الشخصيات وتعددها، واختلاف الأدوار المنوطة بها، فهو أشبه ما يكون بقول الله –تعالى– في سورة الرحمن: "فبأي آلاء ربكما تكذبان"، وذلك عقب كل نعمة من النعم المذكورة في نظم السورة الكريمة (١).

وكذلك قوله ﷺ في أول قصة المرأة الغوية التي أحبت رجلًا عابدًا: "اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن خلا قبلكم تعبد...."(٢)، وقوله في آخرها: "فاجتنبوا الخمر، فإنها والله..."فإن الغرض من تكرار جملة "اجتنبوا الخمر" على هذا النحو المذكور –إلى جانب طول الفاصل بينهما– هو تأكيد الأمر بالاجتناب وتقريره، وتحقيقه وتثبيته، والتنبيه بذلك على عظم خطورة شرب الخمر، وكثرة وبالها.

إسرائيل حديث٣٤٦٤ صـ٤٥٥.

(١) ينظر تفسير الكشاف ٤٢٩/٤، والبيضاوي ١٦٧/٥، وأبو السعود١٠٧/٨، الطبعة الرابعة ١٩٩٤م – دار إحياء التراث العربي – بيروت، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٧ /٢٣٠ – الطبعة الأولى ٢٠٠٠م – مؤسسة التاريخ – بيروت.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

وإخراج الكلام مخرج التقرير والتوكيد على هذا النحو من التكرار هو الذي يقتضيه مقام التحذير من معاقرة الخمر، وإدمانها؛ لما يترتب على تعاطيها من الشرور والمفاسد، والعظائم والقبائح، والقصة بين الجملتين المكررتين سيقت مساق الدليل والبرهان على منطقية الحكم الشرعي، وجريانه على النهج المستقيم، وقس على ذلك سائر المواضع التي لم يتسن للبحث أن يوردها؛ نظرًا لطول المقام، واكتفاءً بما ذكر.

وأما التكرار بإعادة لفظة بعينها فإنك تجد من أبرز مواضعه ومظاهره في القصص النبوي عن بني إسرائيل تكرار الفعل "كان" في مستهل هذا القصص، وفي ثناياه كثيرًا، وقد سبق أن عرضت له في المحور الثاني من الدراسة، وأشرت إلى أن الغرض منه هو التأكيد على واقعية القصص النبوي، وأنه إنما يقص أحداثًا ومواقف حصلت بالفعل، وليس مجرد ضرب من التخيل، أو التأليف، أو السرد القصصي الذي لا صلة بالواقع، ولا يمت إلى الحقيقة بسبب.

ومن التكرار –أيضًا– بإعادة لفظة بعينها قوله ﷺ في قصة وفاة نبي الله داود: "فقال سليمان للطير: أظلي على داود، فأظلت عليه الطير، حتى أظلمت عليهما الأرض، فقال لها سليمان: اقبضي جناحًا جناحًا"(١)، فإن تكرار لفظة "جناحًا" مرتين هو الذي يصور على أكمل وجه وأتمه هيئة القبض(٢)، وأنه كان رويدًا رويدًا، ومرة بعد مرة، ولم يكن دفعة واحدة، وهذا تقرير لوقوعه، وتأكيد على حصوله، وقرينة هذا فعل النبي ﷺ وتمثيله هيئة القبض، على

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) القبض خلاف البسط، وقبض الطائر جناحه، جمعه، اللسان، قبض ٣٥١٢/٥ وما بعدها.

النحو المذكور في نسق القصة: قال أبو هريرة: "يرينا رسول الله ﷺ كيف فعلت الطير"(١).

ولا شك في أن بسط الطير أجنحتها –أولًا– لتظليل جسد داود –عليه السلام– وصيانته من أشعة الشمس، ثم قبضها إياها –ثانيًا– على هذا النحو الذي صوره التكرار هو الذي يتناغم مع مقام بيان كرامة نبي الله داود عليه السلام ويتطابق مع مقتضى حال ولده سليمان –عليه السلام– في الفضل والمكانة والمنزلة؛ لدلالته على إذعان الطير له إذعانًا تامًا، وشدة امتثالها أمره في حالتي البسط والقبض.

ومن هذا النوع من التكرار –أيضًا– قول النبي ﷺ في قصة العالم الذي احتال للخلاص، وطلب النجاة لنفسه ودينه: "ثم أتاهم فعرضوا عليه الكتاب، فقالوا: أتؤمن بهذا؟ فأشار إلى صدره –يعني الكتاب الذي في القرن– فقال: آمنت بهذا، وما لي لا أؤمن بهذا؟ فخلوا سبيله"(٢)حيث كرر هذا العالم اسم الإشارة "بهذا" في قوله: "آمنت بهذا"، "ومالي لا أؤمن بهذا" مرتين؛ لتأكيد استمساكه بالحق الذي معه في القرن المعلق على صدره، وتقرير غاية تشبسه وقناعته به، وتصديقه بكل ما فيه؛ لما في اسم الإشارة من خصية تمييز المشار إليه به –في نفس هذا العالم– أكمل تمييز وأوفاه.

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على من قدر عليها بما قدر عليه،، وما في ترك ذلك من الفساد، ٧١/١٠، حديث ٧١٨٣.

كما أن في إيثار اسم الإشارة والتعبير به دون غيره –أيضًا– زيادة في الدلالة على احتياط العالم لنفسه، ودفع الشبهة عنها، حتى لا ينكشف أمره، ولا يظهر مراده لهم، وذلك بحسب مقتضى حاله معهم، ولازم موقفه مما أرادوه عليه، والله أعلم.

الصورة السابعة
التوكيد بالمصدر المنصوب من جنس عامله أو ما ينوب عنه[1]

يعد المصدر المنصوب من جنس عامله، أو ما ينوب عنه من أقوى وسائل التقرير والتوكيد وأبلغها، غير أنه -مع ذلك- قليل الدوران في القصص النبوي عن بني إسرائيل، حيث لم يتفق للبحث الوقوف عليه إلا في عدة مواضع، وفي مقامات تتطلب صعودًا في نبرة التوكيد، وارتقاءً بحدته، كمقامات الإنكار الشديد، والاستغراب البالغ، كالذي تجده في قول النبي ﷺ في قصة أيوب -عليه السلام- على لسان أحد الرجلين اللذين كانا من أخص إخوانه: "فقال أحدهما لصاحبه: أتعلم -والله- لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد"[2]؛ فإن رجم أحد هذين الرجلين أيوب -عليه السلام-؛ بسبب ما نزل به من شدة البلاء وطول مدته باقتراف الخطيئة الشنيعة التي لم يرتكبها أحد هو من الأمور المستنكرة غير المعلومة، والتي من شأنها أن تقابل بالرفض، وتجابه بالإنكار الشديد، لا سيما إذا كان المرمي بها نبيًا من أنبياء الله -تعالى- الذي ضرب به المثل في الصبر على البلاء، وفي قوة التحمل.

وقرينة هذا من تزجية هذا المتكلم كلامه بحشد عدد كبير من المؤكدات التي يأتي على رأسها القسم، وكذا اللام الموطئة، وكذا المصدر "ذنبًا" المؤكد لعامله، والضمير المنصوب المتصل، النائب عنه في قوله: "ما أذنبه"،

---

(١) قد ينوب عن المصدر المنصوب ما يدل عليه؛ كصفته، أو ضميره، أو إشارة إليه، أو مرادف له في المعنى، أو مشارك له في مادته، أو دال على نوع منه، أو دال على عدد، أو غير ذلك مما ينوب عنه مما هو مفصل في كتب النحو، ينظر الكافية في النحو بشرح الرضي ١/١١٤.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

والاستفهام المثير للتنبه والتطلع في أول الكلام، ونفي أن يكون ثمت هناك من اقترفه قبل أيوب، وغير ذلك مما حاول أن يروج به مقالته عند الآخر، وأن يحققها ويثبتها لديه، وينفي تهمة الكذب والبهتان عنها، وأن يزيل كافة أسباب الشك والريبة المحتملة من حولها.

ومن مقتضى حال المخاطب الذي لم يتقبل هذا البهتان، ولم يتحمل سماعه؛ بدلالة أنه لم يصبر على كتمانه، حتى أسرع إلى إخبار أيوب –عليه السلام– به.

وكالذي تجده في قصة الرجل الذي أمر أولاده بحرقه بعد موته، وهو شبيه بالموضع الأول في اجتماع المصدر المنصوب من جنس عامله، مع ضميره النائب عنه في نسق واحد، في قوله ﷺ: "فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا"(١) فإن أمر هذا الرجل أولاده بحرقه بعد موته مما يثير الدهشة، ويدعو إلى الاستغراب والتعجب، ويتلقى بالرفض والإنكار، لا سيما وأنه قد صدر عن مسلم موحد، إلى جانب ما صرحت به بعض روايات الحديث برفض أولاده طلبه، واستنكارهم إياه، وأنه قد تهددهم بأمور لا يتسع المقام لسردها، وقد سبق ذكرها في صورة سابقة؛ لذا أخرج الكلام مخرج التقرير والتحقيق، المشتمل على عدد كبير من المؤكدات التي تتطابق في مجملها مع كل هذه الأحوال؛ كالقسم، واللام الموطئة له، وإخراج الجملة مخرج الشرط والجزاء، والمصدر "عذابًا" المؤكد لعامله "ليعذبني"، وكذا الضمير النائب عنه في قوله: "ما عذبه أحدًا"، وغير ذلك مما قصد به دفع هذا الإنكار ومجابهته، وإزالة كافة أوجه الاستغراب، وأسباب الدهشة، وتهوين الأمر على أولاده؛ لتقبله والقيام به، والإذعان لتنفيذه.

وكالذي تجده في قصة العالم الذي ماتت زوجه، فاعتزل الناس، فوعظته

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

امرأة: "إنه كان في بني إسرائيل رجل فقيه...وكانت له امرأة، وكان بها معجبًا، ولها محبًا، فماتت فوجد عليها وجدًا شديدًا، ولقى عليها أسفًا"[1] فإن الغرض من تقييد الفعل "وجد" بالمصدر من جنسه "وجدًا"، والمنصوب به هو التأكيد على شدة حزن هذا العالم على موت زوجه، وفرط جزعه لفراقها، وعدم صبره على فقدها، وهذا من غاية حبه إياها، وقوة شغفه بها، وقرينة هذا من سياق الكلام قبله من قوله: "وكان بها معجبًا، ولها محبًا"، وكذا من سياق الكلام بعده من قوله: "ولقى عليها أسفًا، حتى خلا في بيت، وغلق على نفسه، واحتجب عن الناس".

وتقرير الكلام وتوكيده على هذا النحو السابق مما تقتضيه طبيعة الموقف الذي سيقت له القصة، فقد سيقت في تعزية القاسم بن محمد في وفاة زوجه[2]، ومقامات التعزية من المقامات التي تتطلب سعة في العبارة، وبسطة في الكلام، حتى تتحقق الغاية من التعزية، وهي التنفيس عن المعزى وتسليته، والتخفيف عنه بعض آلامه وأحزانه، وأناته وآهاته من فراق الأحبة وفقدهم، والمصدر المؤكد من جنس عامله يفي بهذا المتطلب، ويلبي حاجة المعنى والغرض.

---

(١) الحديث أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجنائز، باب جامع الحسبة في المصيبة، حديث ٤٣، ٢٣٧/١، خرج أحاديثه ورقمه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٥م.

(٢) ينظر المرجع نفسه ٢٣٧/١.

وكالذي تجده أخيرًا في قول النبي ﷺ من قصة موسى والخضر –عليهما السلام–: "فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر"(١)، فقد نصب المصدر المؤنث "نقرة" بالفعل "نقر" للتأكيد على وقوع النقر وثبوته، وأنه كان مرة واحدة، والله أعلم.

(١) الحديث سبق تخريجه.

الصورة الثامنة
التوكيد بالنعت

النعت من أنواع القيود التي تربي الفائدة من الكلام، وتنميها، وتعمل على إيضاح المعنى وبيانه، أو تقريره وتوكيده، أو غير ذلك من أغراض التقييد بالنعت؛ والمنصوص عليها في كتب البلاغة(١).

ودراسة النعت في إطار هذا البحث الذي يختص بالقصص النبوي عن بني إسرائيل ليست على إطلاقها، فلن يعرض البحث لكل نعت ورد في هذا القصص، وإنما يقتصر على دراسة النعت في إطار معين، وفي صورة محددة، وهي التي يكون الغرض من التقييد بالنعت فيها هو التقرير والتأكيد مفردًا كان النعت أم جملة.

والضابط الحاكم في ذلك هو ما يستشف من الأمثلة التي استشهد بها البلاغيون في كتبهم لهذا الغرض، والتي تنطق بأن النعت إنما يكون لغرض التأكيد إذا ترادف هو ومنعوته –في الغالب– على معنى واحد، مضافًا إلى ذلك اشتراكهما في الجذر اللغوي المشتقين منه، أو تتابع نعتان مترادفان في الدلالة لمنعوت واحد، وهذا وذاك ليس بالكثير اللافت في هذا النوع من القصص.

أما ترادف النعت والمنعوت على معنى واحد، واشتراكهما في الجذر اللغوي المشتقين منه، فقد جاء في موضعين اثنين؛ أولهما في قصة الكلمات الخمس التي أوحاها الله إلى يحيى –عليه السلام– وأمره أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل ليعملوا بها "وآمركم بذكر الله كثيرًا، وإن مثل ذلك كمثل رجل

---

(١) ينظر شروح التلخيص ٣٦٠/١ وما بعدها، والمطول لسعد الدين التفتازاني صـ٢٣٧ وما بعدها.

طلبه العدو سراعًا في أثره، حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه فيه"[١] فكلمة "حصين" نعت لكلمة "حصن" وهو من جنسها مضمونًا، وجذرًا لغويًا، والحصن إنما سمي بذلك لتحصنه ومنعته، وامتناع من يأوى إليه؛ إذ هو كل موضع حصين لا يوصل إلى ما في جوفه[٢]، فتقييده بالنعت من جنس مادته إنما هو من زيادة التأكيد على شدة منعته، وتقرير غاية قوته، وفرط امتناع من يأوى إليه ويتحصن بداخله، وذلك في مقام الترغيب ضربة لازم؛ للمبالغة في الحث على الذكر، والحض على الإكثار منه؛ ليكون الإنسان في منعة من الشيطان، ومأمن من وساوسه، وقد زاد المعنى تقريرًا وتوكيدًا إخراج الكلام في قوله: "حصن حصين" مخرج المجاز العقلي بعلاقة المصدرية.

وثانيهما: جاء في قصة الرجل الذي تسلف رجلًا ألف دينار، في قوله ﷺ "ثم التمس مركبًا يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله"[٣]، والمركب: ما أعد للركوب مطلقًا، إلا أنه خصص –هنا– بالسفن التي تسير في البحر[٤]، وجملة "يركبها" في محل النعت منه، وقد جاءت من جنس المنعوت السابق معنى وجذرًا لغويًا، كما كان الشأن في "حصن حصين"، والغرض من التقييد بها هو المبالغة في الدلالة على إرادة هذا الرجل سداد الدين بنفسه، والتأكيد على ذهابه بشخصه، دون أن يكل الأمر إلى غيره ممن يمكن أن ينوب عنه في ذلك، كربان السفينة، أو أحد ركابها، وفي هذا إيحاء بجده، وفرط حرصه على

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) ينظر لسان العرب لابن منظور. حصن ٩٠٢/٢.

(٣) الحديث سبق تخريجه.

(٤) ينظر الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، ركب ١٣٨/١، تحقيق:أحمد عبد الغفور عطا، الطبعة الرابعة ١٩٨٧م–دار العلم للملايين–بيروت.

سداد المال في موعده، ووفائه بالعهد الذي قطعه على نفسه، وهذا هو المطابق لمقتضى حاله في الورع والتقوى، والأخذ بالحيطة والحذر، وذلك على النحو الذي كشف عنه تفصيلًا نسق القصة الكريمة.

وأما تتابع نعتين مترادفين في الدلالة لمنعوت واحد فقد جاء في موضع واحد من قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، في قوله ﷺ على لسان الأول خاصة: "اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلًا ولا مالًا"(١)، حيث تتابع النعتان "شيخان كبيران" المترادفان في الدلالة، المتقاربان في المعنى لمنعوت واحد هو اسم كان: "أبوان" وذلك للتأكيد على أن أبويه كانا طاعنين في السن إلى حد كبير، وأنهما كانا لا يقدران على إصلاح شئون نفسيهما، وهذا يجعل القيام عند رأسيهما بغبوقهما طوال هذا الوقت من الليل أوقع في البر، وأدخل في الإحسان، وأقوى في الدلالة على خلوص العمل، لانعدام الرهبة أو الخوف منهما، أو الرغبة فيما في يديهما، وهذا من التقديم الحسن، والاستهلال الجيد بين يدي مطلوبه؛ ليكون ذلك كله أعون على قبول دعائه، وأدعى إلى استجابة رجائه في هذا الموقف العصيب.

وقد يتقدم النعت على منعوته، ويضاف إليه، لكنه نادرٌ جدًا في سياقات هذا النوع من القصص، وذلك للمبالغة في الدلالة على اتصاف الموصوف بالصفة، والتأكيد على لزومها له، وثبوتها به، بحيث لا تفارقه، ولا تنفك عنه في حال من الأحوال، حتى كأن الصفة هي عين الموصوف.

وقد جاء ذلك في قول النبي ﷺ في قصة المتكلمين في المهد، وعلى لسان أم الطفل الرضيع الذي رد عليها دعاءها: "فهنالك تراجعا الحديث، فقالت: مر

(١) الحديث سبق تخريجه.

رجل حسن الهيئة، فقلت: اللهم اجعل ابني مثله، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله"[1]، فإن أصل الكلام "مر رجل ذو هيئة حسنة"؛ بقرينة قوله في أول القصة: "وبينما صبي يرضع، فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة"، ولكن النعت قدم على منعوته، وأضيف إليه[2]؛ للمبالغة في الدلالة على فرط حسن هيئة هذا الرجل وجمالها، وأن هيئته لا تنفك عن هذه الصفة بحال، حتى صار الحسن لها ضربة لازم، وهذا ما يقتضيه مقام طلبها أن يكون ابنها مثل هذا الرجل، كما يتطابق مع مقتضى حالها في فرط الدهشة، وغاية الاستغراب من رد رضيعها عليها دعاءها له أن يكون مثل هذا الجبار صاحب الدابة الفارهة، والشارة الحسنة.

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) وهذا من باب الصفة المشبهة باسم الفاعل، وهي ما اشتق من مصدر فعل لازم، بقصد نسبة الحدث إلى الموصوف على جهة الثبوت / ينظر حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ٢/٣ وما بعدها، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

الصورة التاسعة
التوكيد بالجملة الحالية

يعد التقييد بالجملة الحالية من أبرز وسائل التقرير والتوكيد، لا سيما إذا ارتبطت بالكلام السابق عليها عن طريق الواو، وقدم فيها المسند إليه على المسند الفعلي خاصة؛ وذلك لأن الكلام –حينئذ– يكون بمعرض من الشك والتردد، أو الإنكار والجحد، وهو ما يقتضي بناء الكلام، وإخراجه في قالب مؤكد؛ لدفع هذا الإنكار، وإزالة الشك والتردد(١).

وقد جاء التقييد بالجملة الحالية في مواضع كثيرة من القصص النبوي عن بني إسرائيل، تجد من أظهرها دلالة في هذا المعنى قول النبي ﷺ في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، وذلك على لسان الأول خاصة: "فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما، حتى برق الفجر، والصبية يتضاغون عند قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما"(٢)، فجملة "والصبية يتضاغون عند قدمي" في موضع الحال من فاعل "لبثت" والغرض من تقييد الكلام بها هو التأكيد على أن صراخ الصبية وصياحهم من ألم الجوع وشدته كان مصاحبًا وملازمًا لمدة لبثه عند والديه يحمل قدح اللبن على يديه، ينتظر استيقاظهما، وامتداد زمان الانتظار إلى بروق الفجر، وإزالة ما قد يحوم حول هذا الخبر من شبهة شك أو تردد، ودفع ما قد يظن من أن هذا الصياح كان في وقت دون وقت، ولم يكن مصاحبًا لمدة اللبث المذكور، وفي هذا ما لا يخفى من التأكيد على غاية

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر صـ ١٣٥، وفروق التقديم والتأخير عند عبد القاهر. د/أحمد السيد طلحة صـ١١٦، طبعة ١٩٩٦م.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

حسن بره بوالديه، وكمال إحسانه إليهما، وتمام عطفه عليهما، وهذا التقرير والتأكيد مما يستدعيه مقام الضيق الذي وقع فيه؛ لدلالته على شدة الإلحاح في الطلب، وقوة التعلق بتحقق المطلوب، وهذا من مقتضيات القبول والاستجابة.

ومن التقييد بالجملة الحالية على هذا النحو السابق –أيضًا– قول النبي ﷺ من قصة جريج[1] في ثلاثة مواضع: "فأتت أمه وهو يصلي"، وقوله: "فلما كان من الغد أتت وهو يصلي" مرتان، حيث كررت جملة: "وهو يصلي" التي وقعت موقع الحال من ضمير المفعول في الفعل "أتت" ثلاث مرات، وقد جاءت في سياقها للتأكيد على أن أمه أتته حال تلبسه بالصلاة، ودخوله فيها، وقد أقبل على ربه واقفاً بين يديه، وإزالة ما قد يحوم حول هذا الخبر من شبهة شك أو تردد أو إنكار، وأنها أتته قبل أن يتلبس بالصلاة أو يشرع فيها.

ودليل هذا من قرينة الحال والسياق، أما قرينة الحال فمن تردده وتحيره في الإقبال على صلاته، أو إجابة نداء أمه، وأما قرينة السياق فمن قوله ﷺ "فأقبل على صلاته" إذ لو كان نداؤها إياه قبل التلبس بالصلاة، وقبل شروعه فيها لما تحير بين هذا وذاك، ولما أقبل على صلاته وتركها دون أن يلبي نداءها.

ومن هذا النمط في التقييد بالجملة الحالية قول النبي ﷺ في قصة الثلاثة المتكلمين في المهد –أيضا– وفي قصة الطفل الرضيع الذي راجع أمه خاصة[2]: "ومروا بجارية وهم يضربونها، ويقولون: زنيت، وسرقت"، حيث جاءت جملة: "وهم يضربونها" في موضع الحال من ضمير الجماعة المتصل بالفعل "مر"، والغرض من تقييد الكلام بها هو التأكيد على أن مرور الأم

(١) الحديث سبق تخريجه في أكثر من موضع.

(٢) الحديث سبق تخريجه في أكثر من موضع.

ورضيعها على الجارية المضروبة كان وقت تلبس القوم بضربها، وذلك لدفع شك من ظن أن ذلك المرور كان قبل التلبس بضربها، أو بعد الفراغ منه مباشرة، وكأن في بناء الكلام على هذا النحو من التأكيد والتقرير تبريرًا لموقف الأم وطلبها في دعائها أن لا يكون رضيعها مثل هذه الجارية، وهكذا سائر المواضع التي لم يتسن للبحث إيرادها يمكن قياسها في التحليل والتوجيه على هذا النهج السابق، والله الموفق للصواب.

وقد تخرج الجملة الحالية في لباس غير هذا اللباس، وتصاغ على نحو من القوة والوكادة لا يرقى إلى الصورة السابقة في قوتها ووكادتها، وذلك كقوله ﷺ في قصة أصحاب الأخدود[1]، حكاية عن الغلام في موضعين: "وجاء يمشي إلى الملك" بعد هلاك أعوان الملك في المرة الأولى والثانية، وقوله في قصة جريج[2]: "فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسخون به"، وقوله ﷺ في قصة أيوب[3] بعد ما أخبر بما قاله أحد الرجلين من خاصته في شأنه: "فقال أيوب: لا أدري ما يقول، غير أن الله يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما، كراهية أن يذكر الله إلا في حق"، وقوله في القصة نفسها، حكاية عن زوجه: "فاستبطأته فلقيته ينتظر، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء"، وقوله في قصة الذين أمروا أن يدخلوا

(١) الحديث سبق تخريجه في أكثر من موضع.

(٢) الحديث سبق تخريجه في أكثر من موضع.

(٣) الحديث أخرجه أبو يعلى في مسنده، مسند أنس بن مالك، ما أسنده الحسن بن أبي الحسن عن أنس بن مالك، الزهري عن أنس حديث٣٦١٧، ٢٩٩/٦، تحقيق حسين سليم أسد، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، دار المأمون للتراث، دمشق، وأبو نعيم في الحلية ٣٧٤/٣، مكتبة السعادة، بجوار محافظة مصر ١٩٧٤م.

الباب سجدًا من بني إسرائيل، فبدلوا أمر الله: "فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة"(١)، وغير ذلك من الجمل الفعلية التي وقعت في موقع الحال، لكنها لم تبن على ضمير الفعل، ولم ترتبط بالكلام السابق عليها بالواو، وذلك لأن الكلام –هنا– ليس بمعرض من الشك والتردد، أو الغلط والتزيد، كما كان الشأن في الصورة السابقة؛ فمجئ الغلام إلى الملك ماشيًا بعد هلاك أصحابه من أعوان الملك الذين أمروا بإلقائه من أعلى الجبل، أو بقذفه في اليم ظاهر معلوم، لا يخفى على أحد، لا سيما الملك وأعوانه، وهذا هو الأوفق بمقام تحدي الملك ومطاولته، وإظهار ضعفه وعجزه.

وإقبال القوم على جريج يقبلونه كما جاء في قصته ليس موضع شك أو تردد، وهذا هو الأوفق في مقام إظهار براءته، وطهارة ساحته؛ لدلالة الجملة الحالية على جلاء الحقيقة وظهورها ظهورًا تامًا، وندائها على كمال قناعة القوم بعفة جريج، وطهارة ذيله مما نسل إليه، وهكذا سائر الأمثلة الأخرى، جاء الكلام فيها منسجمًا في صياغته، وطريقة بنائه، ودرجة توكيده مع طبيعة الموقف، والحال المصورة؛ ذلك أن بناء الكلام إنما هو بناء مشاعر وأحاسيس، ومعان ومضامين، وأحوال ومواقف، وليس مجرد قوالب لفظية توضع كيفما اتفق، وهذا هو جوهر نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر(٢).

وقد تأتي الحال في سياقات هذا النوع من القصص جملة اسمية، فيجتمع في الكلام –حينئذ– تأكيدان: التأكيد المنبثق من التقييد بالجملة الحالية؛ فإن

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر صـ١٣٥ وما بعدها، وفروق التقديم والتأخير عند عبد القاهر. د/ أحمد السيد طلحة صـ ١٠٤.

عنصر التوكيد من لوازم الحال عمومًا[1]، والتأكيد المتناسل من طبيعة دلالة الجملة الاسمية على الثبوت والدوام، وذلك كما في قوله ﷺ في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، على لسان الثاني منهم بعد ما ذكرته ابنة عمه بالله، وقد قعد منها مقعد الرجل من امرأته: "فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي" فإن تقييد الرجل كلامه بالجملة الحالية الاسمية "وهي أحب الناس إلي"[2]هو الذي يقتضيه مقام الضيق؛ بسبب الحبس داخل الغار، وما تطلبه من دعاء كل واحد من الثلاثة بخالص عمله وصالحه؛ لما في التقييد بها من تصوير غاية مشقته، وشدة معاناته، حين قام عن ابنة عمه وقد تمكن منها، ولم يظفر بمرامه ومقصوده، والدلالة في الوقت نفسه على أن حبها ثابت في قلب لا يتزعزع؛ لتتعانق كل هذه الدلالات على تأكيد صدق نيته، وتصوير عظم مراقبته، وخلوص جنانه، وهذا في مقام الدعاء أرجى للقبول، وأدعى إلى الاستجابة.

(١) ينظر شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام صـ٢٤٤.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

الصورة العاشرة
التوكيد بالأسلوب الكنائي

تعد الكناية من أبرز وسائل التقرير والتوكيد في البلاغة العربية؛ لأنها كدعوى الشيء مصحوبًا بدليله، مقرونًا ببرهانه، وإثبات الشيء بإثبات دليله وبرهانه أقوى في الإثبات وآكد؛ لأن دليل الشيء هو وسيلة الإقناع به، وهو المصحح والمقتضي له في منطقه المستقيم(١).

ولأن إثبات المعنى في الكناية يكون على مدرجة اللزوم، وإثبات المعنى على مدارج اللزوم أقوى في الإثبات، من الطريق المباشر الصريح؛ لأنه أكثر إنهاضًا للفكر، وتنشيطًا للخيال، وتحريكًا للخاطر(٢)، ومن هنا تجد البيان النبوي في قصص بني إسرائيل يتكيء في تحقيق أهدافه، وترسيخ مضامينه على هذه الوسيلة التقريرية التي جاءت في مواضع كثيرة من هذا القصص.

هذا إلى جانب ما تتسم به الكناية من نوع ستر وخفاء وتغطية يجعلها تتناسب مع كثير من الموضوعات التي عالجتها القصة النبوية، كالحديث عن طبيعة العلاقة الحميمة بين الرجل والمرأة، كما في قوله ﷺ من قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، حكاية عن الثاني "اللهم إنه كانت لي ابنة عم، كانت أحب الناس إلي، فأردتها على نفسها –على أن تخلي بيني وبين نفسها– فلما قعدت بين رجليها– قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم(٣) إلا بحقه"(٤)، وكما

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني صـ٧٢، والتعليل في القرآن الكريم. دراسة وتفسيرًا صـ٣٧٩

(٢) ينظر دلالات التراكيب. د/محمد أبو موسى صـ٢٤٠، الطبعة الثانية ١٩٨٧، مكتبة وهبة – القاهرة.

(٣) الخاتم: يكنى به عن بضع المرأة وفرجها، والجملة كناية عن افتضاض عذرة البكر، وقد يطلق على الوطء الحرام، فتح الباري لابن حجر ١٦٨/١، ٥٠٩/٦.

(٤) الحديث سبق تخريجه

في قوله من قصة المتكلمين في المهد، ومن قصة جريج خاصة "وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننه، فتعرضت له"(١)، كناية عن طلبها منه أن يواقعها، وكامل تهيئها له، وقوله –أيضًا– من القصة نفسها "فأتت راعيًا كان يأوى إلى صومعته، فأمكنته من نفسها، فوقع عليها"(٢)، كناية عن الوطء والجماع، وقوله في قصة الكفل: "فلما أرادها عن نفسها....." كناية عن مقدمات الجماع، وقوله في قصة المرأة الغوية التي أحبت عابدًا: "إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع علي"(٣) كناية عن الزنا وارتكاب الفاحشة، وكذا قوله في قصة نبي الله سليمان: "لأطوفن الليلة على مائة امرأة"(٤) كناية عن المعاشرة والجماع، فإنك تجد الأسلوب الكنائي في كل هذه المواضع هو الأقدر دون غيره على تجسيد هذه المواقف، وتصوير طبيعة العلاقة الجسدية بين كل من الرجل والمرأة، سواء أكانت علاقة مشروعة، كما في قصة طواف نبي الله سليمان على مائة امرأة في ليلة، أم غير مشروعة، كما في سائر القصص الأخرى، دون أن يخدش حياءً أو يجرح كبرياءً، ودون أن يمس جانب العفة، أو يهتك الحجب والأستار دونها، وهذا هو سمت المنهج النبوي وطبيعته في معالجة هذه الجوانب الحساسة، يجنح دومًا إلى الستر والخفاء والتغطية.

ومن هذه الكنايات النبوية اللطيفة في هذا النوع من القصص قوله ﷺ من قصة المبتلين الثلاثة، حكاية عن الأبرص، والأقرع: "ويذهب عني الذي قد

---

(١) الحديث سبق تخريجه

(٢) الحديث سبق تخريجه

(٣) الحديث سبق تخريجه

(٤) الحديث سبق تخريجه

قذرني الناس"[1]، وذلك كناية عن البرص والقرع، أو كناية عن المرض الذي أصاب كلًا منهما، وإنما أوثر التعبير الكنائي لأنه الأقدر على تصوير مدى الأثر النفسي الناجم عن البرص والقرع وتشخيصه، ليكون هذا التصوير داعيًا إلى تحقق مطلوبهما، وعونًا على استجابة رجائهما، وآكد في تقرير مرادهما.

وإنما أدخلت "قد" على الفعل الماضي من القذر في قصة الأبرص، ولم تدخل عليه في قصة الأقرع؛ زيادة في تأكيده وتحقيقه، ودلالة على أن استقذار الناس للبرص، ونفورهم من الأبرص أكثر وأشد من استقذارهم ونفورهم من الأقرع؛ لأن البرص من الآفات الجلدية المعدية، وليس كذلك القرع.

وقوله ﷺ في القصة ذاتها: "فمسحه فذهب عنه قذره"[2] كناية عن الشفاء والبراءة من العيب، والتعبير الكنائي هو الأبلغ في مقام الابتلاء، الأدخل فيه؛ لدلالته على الشفاء التام، والبراءة الكاملة من العيب.

وكذا قوله ﷺ في القصة نفسها: "فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم"[3]، وقوله –أيضًا– على لسان الملك للثلاثة: "قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك"[4]، كناية في الموضع الأول عن كثرة المال ووفرته، وعظم الثراء وسعته، وحلول البركة، بسبب دعوة الملك لكل من الثلاثة، وهو في الموضع الثاني كناية عن انعدام الحيلة، وزوال كافة الأسباب الموصلة إلى مبتغاه، وهذا وذاك في مقام الابتلاء أوفق، وبمقتضى الحال ألصق؛ لقيامه مقام الحجة على المسئول، والتي ينتفي

---

(١) الحديث سبق تخريجه

(٢) الحديث سبق تخريجه

(٣) الحديث سبق تخريجه

(٤) الحديث سبق تخريجه

معها كل عذر، وتزول بها كل شبهة، ويمكن أن يقاس على الكنايات السابقة قوله ﷺ من القصة ذاتها على لسان الأبرص: "الحقوق كثيرة"، وقوله: "إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر"(١)، وقوله على لسان الأعمى: "فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله"(٢)، وقد سبق أن أشرت إلى هذه الكنايات في محاور وصور سابقة.

وكذا قوله من القصة نفسها –أيضًا–، وعلى لسان الملك للأعمى: "أمسك عليك مالك فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك"(٣)، حيث كنى بالصاحبين عن الأبرص والأقرع، كناية عن موصوف، وإنما ذكرهما بلفظ الصحبة؛ للدلالة على أن ثمت ارتباطًا وصلة وثيقة كانت تجمع بين الثلاثة، والتأكيد على أن الأعمى كان على معرفة تامة بهما، وعلى دراية كاملة بأحوالهما هذا إلى جانب ما فيه من إشارة إلى تساوي الثلاثة في كم الابتلاء ومقداره، وهذا يستلزم عدالة الجزاء المترتب على نوع الابتلاء، ويقررها، والله أعلم.

إلى غير ذلك من مواضع الكناية التي جاءت في ظلال هذا القصص، وهي كثيرة جدًا، إلا أنه من الملحوظ الذي تجدر الإشارة إليه، وينبغي التنبه له أن الكناية عن صفة هي أكثر أنواع الكناية دورانًا واستعمالًا في هذه السياقات دون الكناية عن موصوف، ولعل ذلك يرجع إلى ما يتسم به هذا النوع من الكنايات من تجسيد الفكر والمشاعر في صورها الواقعية الدالة عليها، وهو

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

(٣) الحديث سبق تخريجه.

بهذا يكون أكثر اتساقًا وانسجامًا مع طبيعة القصص النبوي الذي كان يقص أحداثًا واقعية، ويروي مشاهد ومواقف حقيقية، حصلت في الزمان الغابر.

كما يرجع في جانب آخر منه إلى ارتباط هذا النوع من القصص وتعلقه بتحقيق غايات وأهداف، وتقرير مضامين، وتأكيد معان أكثر من تعلقه بالشخصيات والموصوفين، وهذا كله بالصفات ألصق، وهو إليها أقرب، وبها أولى وأجدر.

أما الكناية عن نسبة فلم أقف –بعد نظر وتأمل– على مواضع لها في سياقات هذا النوع من القصص؛ نظرًا لقيام هذا النوع من الكناية –في الغالب– على الإغراق في المبالغات، وهو ما لا ينسجم مع طبيعة البيان النبوي الذي يتسم بالبعد عن الشطط والتكلف في المبالغات.

الصورة الحادية عشرة
التوكيد بأسلوبي الطباق والمقابلة

الطباق والمقابلة من الأساليب التي يتكئ عليها البيان النبوي كثيرًا في تصوير معانيه، وتحقيق أهدافه؛ وذلك حاصل من المقارنة فيهما بين الأضداد، والجمع بينهما في نسق واحد، فإن تصور أحد الضدين فيه تصور للآخر، والذهن عند ذكر الضد يكون مهيأ للآخر، وأكثر استعدادًا له، فإذا ورد عليه بعد ذلك ثبت عنده، وتأكد لديه.(١)

والناظر في القصص النبوي عن بني إسرائيل يجد أن الطباق والمقابلة من أبرز وسائل التقرير والتوكيد، وأكثرها ظهورًا في هذا النوع من القصص، وإن كان الطباق أكثر دورانًا من المقابلة، وليس المقام –هنا– في حصر مواضع كل منهما واستقصائها، وإنما نذكر أكثرها ونحلله، ونحاول الكشف عن هذا العنصر فيهما بما ينسجم مع اعتبارات القرائن سياقية كانت أم مقامية.

أما الطباق فقد تنوع في مواضعه بين الإيجاب والسلب، إلا أن اللافت للنظر، الجدير بالرصد هو كثرة طباق السلب في هذا النوع من القصص، وذلك على خلاف المشهور، المسلم به لدى العلماء من كثرة طباق الإيجاب وغلبته في الكلام على طباق السلب.

فمن النوع الأول وهو طباق الإيجاب قوله ﷺ– في قصة المبتلين الثلاثة، وعلى لسان الأعمى خاصة: "قد كنت أعمى فرد الله إلى بصري، فخذ ما

(١) ينظر دراسات منهجية في علم البديع، د/ الشحات أبو ستيت صـ٥١، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، دار خفاجي للطباعة والنشر–مصر.

شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عز وجل"[1]، حيث وقع الطباق بين فعلي الأمر "خذ–ودع" في قول الأعمى "فخذ ما شئت ودع ما شئت"، وذلك للتأكيد على كمال رضاه، ومنتهى طيب نفسه بما يأخذه الملك من ماله، على أي نحو شاء.

إن الطباق – هنا – هو الذي يصور سلامة فطرة الأعمى، وحسن سريرته، وصدق نيته، ويرفع أدنى الحرج والمشقة عن السائل، فقد ترك له الخيار ليأخذ من ماله ما يشاء، ويترك ما يشاء، بدلالة قوله بعده: "فوالله ما أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عز وجل".

وهو الذي يعكس البون الشاسع بين موقف الأعمى هذا وموقف صاحبيه الأبرص والأقرع، ويقرر نجاح الأعمى في الابتلاء نجاحًا منقطع النظير، استحق به رضا الله عنه، ولذلك يقول الكرماني: "كان مزاج الأعمى أصح من مزاج رفيقيه؛ لأن البرص مرض يحصل من فساد المزاج، وخلل الطبيعة، وكذلك القرع، بخلاف العمى، فإنه لا يستلزم ذلك، بل قد يكون من أمر خارج، فلهذا حسنت طباع الأعمى وساءت طباع الآخرين"[2].

ومن طباق الإيجاب – أيضًا – قوله ﷺ– من قصة بلاء أيوب – عليه السلام – ومكثه في المرض ثماني عشرة سنة:– "إن نبي الله أيوب كان في بلائه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلان من إخوانه، كانا

---

(١) أي لا أشق عليك في رد شيء تطلبه أو تأخذه /فتح الباري لابن حجر، والحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، حديث٣٤٦٤،صـ٤٥٥، ومسلم في كتاب الزهد والرقاق في أوله ٢٩٦٤صـ٨٤١.

(٢) فتح الباري لابن حجر ٢٦٥/١٠.

من أخص إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان" حيث جمع أولًا بين " القريب – والبعيد " في نسق واحد "، ثم جمع– ثانيًا – بين الفعلين " يغدوان ويروحان" في السياق ذاته.

أما الجمع بين القريب والبعيد فللتأكيد على طول مدة بلاء أيوب – عليه السلام – وفرط امتدادها، حتى تخلى الجميع عنه، ونفروا منه، ولم يعد أحد يواسيه أو يقف بجانبه غير زوجه، ورجلين من خاصة إخوانه، حسبما جاء في الحديث، وهذا تحقيق لشدة بلائه، وتقرير لقسوة مرضه، فإن وجود الناس إلى جوار المبتلى، ووقوفهم إلي جانبه، ومواساتهم إياه يخفف عنه بعض آلامه، ويهون عليه البلاء، ويقويه في مواجهته.

وأما الجمع بين الفعلين " يغدوان، ويروحان " في السياق ذاته، فللتأكيد – أيضًا – على صدق أخوة هذين الرجلين، وإخلاص صحبتهما له، وأنهما ذو أصل كريم، ومعدن طيب، حيث كانا يواسيان أيوب على الحالة التي كان عليها، ويداومان على اهتمامهما به، ورعايتهما إياه في جميع الأوقات، وهذا – أيضًا – من مقتضيات الطباق بين الغدو والرواح ؛ فإنهما طرفا النهار.

ومن هذه المواضع – أيضًا – قوله ﷺ في قصة الرجل الذي أمر أولاده بإحراقه بعد موته: "فلما مات فعلوا ما أمرهم، فأمر الله البر فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه " فإن الجمع بين البر والبحر في سياق واحد على هذا النحو للتأكيد على كمال قدرة الله – تعالى –، والمبالغة في الدلالة على عظمته، وسعة ملكه، وشمول سلطانه البر والبحر، حتى صار كل منهما من فرط امتثال الأمر جامعًا على الحقيقة، والله أعلم.

وغير ذلك من المواضع كثير، كالذي في قوله ﷺ في قصة الرجل الذي قتل مائة نفس: "فانطلق، حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه

ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب " وكالذي في قوله ﷺ في قصة المرأة التي اتخذت رجلين من خشب " كانت امرأة من بني إسرائيل قصيرة، تمشي مع امرأتين طويلتين فاتخذت رجلين من خشب "(١) وكالذي في قصة يونس – عليه السلام –: "فلما دخل السفينة ركدت، والسفن تسير يميناً وشمالًا "(٢) وكالذي في قصة الكلمات الخمس التي أمر الله نبيه يحيي عليه السلام أن يعلمها بني إسرائيل: " وآمركم بالصدقة، وإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو.... فقال: هل لكم أن أفدي نفسي منكم؟ قال: فجعل يعطيهم القليل والكثير ليفك نفسه منهم "(٣) فإنك تجد الطباق في كل ذلك وغيره مما تجاوز البحث عن ذكره ذا أثر واضح في تقرير المعنى وتوكيده، وتوضيحه وتصويره.

ففي القصة الأولى تجد الطباق بين "ملائكة الرحمة – وملائكة العذاب " ذا أثر فاعل وجلي في تصوير شدة اختلاط الأمر على الملائكة الموكلين بقبض الأرواح، وتجسيد قوة تنازعهم حول من يقوم بقبض هذا الرجل القاتل؛ توصلًا من وراء ذلك إلى تحقيق مضمون القصة، وتأكيد هدفها والغرض منها، وهو المبالغة في الدلالة على سعة رحمة الله – تعالى – وتصوير عظيم عفوه

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) الحديث أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، في كتاب الفضائل، ما ذكر فيما فضل به يونس بن متى ٦/ ٣٣٨، حديث ١٣١٨٦٦، تحقيق / كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى ١٤٠٩–مكتبة الرشد، الرياض.

(٣) الحديث في سنن الترمذي، أبواب الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ٥/ ١٤٨، حديث ٢٨٦٣، وفي صحيح بن حبان، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق، ذكر تشبيه المصطفى ﷺ عيسى بن مريم بعروة ١٤/ ١٢٤، حديث ٦٢٣٣، ومستدرك الحاكم على الصحيحين، كتاب الطهارة، أما حديث أنس ١/ ٣٦٢، حديث ٨٦٣، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى ١٩٩٠م–دار الكتب العلمية، بيروت.

وصفحه عن المذنبين، إن جاءوا تائبين نادمين.

وفي اختصام الملائكة على هذا النحو الذي جسده إلى جانب الطباق إيثار صيغة "اختصم" الدالة بمبناها ومعناها[1] على شدة التنازع، وقوة الخصومة وحدتها بين الطرفين المتخاصمين وهما ملائكة الرحمة وملائكة العذاب دلالة واضحة على أن الملائكة لا يعلمون الغيب، ولا يطلعون على شيء منه إلا بإطلاع الله إياهم[2] وقس على ذلك سائر المواضع.

أما طباق السلب فقد ذكرت سلفًا أنه أكثر دورانًا في القصص النبوي عن بني إسرائيل من طباق الإيجاب، ويرجع السبب في ذلك إلى خاصة سمته، وطبيعة بنائه؛ إذ ينحصر – حسب تعريف الخطيب[3] – في أن يكون بين فعلي مصدر واحد، أحدهما مثبت والآخر منفي، أو أحدهما أمر والآخر نهي، وما يترتب على ذلك من تحقق عنصري المفاجأة والمباغتة التي تعمل على إثارة الذهن، وتحريك المشاعر والوجدان، وهو ما يجعل هذا النوع من الطباق أكثر مواءمة ومجانسة لطبيعة القصص عمومًا، والذي يتكئ في كثير من عرض مواقفه ومشاهده على القفزات المفاجئة التي تعمل على إثارة الترقب، وتطرية النشاط، وإيقاظ التنبه.

وإنما كان ذلك كذلك؛ لأن هذا النوع من الطباق يقترب في طريقة بنائه

---

(١) فإن أصل المخاصمة أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر، أي: جانبه، وأن يجذب كل واحد خصم الجوالق من جانب، ودلالة الافتعال على الجد والتعمل واضحة من تفخيم لفظ العبارة عنها؛ بالزيادة في مبناها. ينظر الخصائص لابن جني ٣/ ٢٦٥، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، خصم.

(٢) ينظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ٨٤.

(٣) ينظر الإيضاح للخطيب القزويني صـ ١٩٣.

إلى حد كبير مما يعرف في البديع بإثبات الشيء بما يشبه نقيضه؛ إذ يقوم على إثبات الشيء ثم نفيه، أو العكس، أو إثبات الشيء ثم نفي بعض جوانبه أو العكس.

ومن أبرز مواضع طباق السلب في القصص النبوي عن بني إسرائيل قوله ﷺ في قصة النبي الذي حبست عليه الشمس حتى فتح له: "لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يبن بها "(١) وقوله ﷺ في قصة طواف نبي الله سليمان على مائة امرأة في ليلة: "قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على مائة امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله "(٢) وقوله في قصة المرأة الغوية التي علقت عابدًا من عباد بني إسرائيل، وأرادت فتنته " فأرسلت إليه جاريتها فقالت: إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها... حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام، وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك للشهادة "(٣) وقوله ﷺ في قصة الرجل الذي اشترى من رجل عقارًا فوجد فيها جرة فيها ذهب: "خذ ذهبك إنما اشتريت منك الأرض ولم أشتر منك الذهب "(٤) وكذا قوله في قصة البقرة التي كلمت راكبها: "وبينما رجل يسوق بقرة إذ ركبها، فضربها... فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث "(٥) إلى غير ذلك من المواضع التي جاء الطباق فيها على هذا النحو المذكور، تجد في الجمع بين

---

(١) الحديث سبق تخريجه.
(٢) الحديث سبق تخريجه.
(٣) الحديث سبق تخريجه.
(٤) الحديث سبق تخريجه.
(٥) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار ص٤٥٧، حديث ٣٤٧١، وفي كتاب الحرث والمزارعة، باب استعمال البقرة للحراثة ص٢٩٩، حديث ٢٣٢٤، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق–رضي الله عنه–ص٦٨٩، حديث ٢٣٨٨

اللفظ وضده تقريرًا للمعنى المراد وتأكيدًا عليه، وإخراجه مخرج الظهور والوضوح، ففي الموضع الأول تجد في الجمع بين المتضادين: "يبني بها ولما يبن بها " تأكيدًا على النهي السابق في قول النبي: "لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة.." وتشديدًا عليه، وحرصًا منه على ضرورة إفراغ القلب في مقام الجهاد والغزو من كافة العوالق والصوارف الدنيوية التي تعوقه عن الهدف، وتحول بينه وبين الإقبال عليه.

وفي قصة طواف نبي الله سليمان على مائة امرأة تجد في الجمع بين الأمر والنفي في قوله: "قل إن شاء الله – فلم يقل إن شاء الله " تأكيدًا على عدم استثناء سليمان – عليه السلام – رغم تذكير الملك إياه، كما صرحت به بعض الروايات(١) وإبرازًا للبون الشاسع بين الموقفين، ومن ثم بدا التفاوت جليًا بين ما أمله سليمان – عليه السلام – وبين ما تحقق في واقع الحال، فقد كانت النتيجة المترتبة على خلاف ما ترقب، فلم تلد منهن إلا امرأة جاءت بشق إنسان.

وكذلك الشأن في قصة المرأة الغوية التي أحبت عابدًا من عباد بني إسرائيل، تجد الجمع فيها بين الإثبات والنفي في قوله: "إنا ندعوك للشهادة – إني والله ما دعوتك للشهادة " لإظهار التباين الشديد بين المقولتين، وإبراز الهوة السحيقة بين المقصدين، وفي هذا ضرب من التأكيد على شدة خداعها إياه، وتدليسها عليه، وأنها جادة فيما تطلب منه بعد.

ونحو هذا تجده في قصة الرجل الذي اشترى من رجل عقارًا فوجد فيها جرة فيها ذهب، وفي قصة البقرة التي كلمت راكبها، فإن الجمع فيهما بين

(١) ينظر صحيح مسلم، كتاب الأيمان، باب الاستثناء ص٤٨٠، حديث ١٦٥٤

الإثبات والنفي في قوله في الأولى: "إنما اشتريت منك الأرض، ولم أشتر الذهب " وفي قوله في الثانية: "إنا لم نخلق لهذا إنما خلقنا للحرث " إنما كان من أجل تقرير المعنى وتوكيده، وتجليته وتوضيحه، وإبراز التباين الشديد بين ما خلقت لأجله البقرة من الحرث والزرع، وما سخرها صاحبها فيه، وبين ما اشتراه الرجل من عقار، وما وجده فيه في واقع الحال؛ ليؤكد المشترى في قصة العقار على عدم أحقيته في الذهب الذي وجده، وهذا إنما ينطق بأمانته، وعفة نفسه، وينبئ عن شدة تحريه الحلال وحرصه عليه.

وليؤكد في قصة البقرة على مدى الرعونة والجفاء التي اتسم بها راكب البقرة، ويقرر فساد فطرته، وانطماس بصيرته.

وثمت صورة من طباق السلب وقفت عليها في هذا النوع من القصص، ولم أجد من أشار إليها من البلاغيين – وإن أضاف بعضهم إلى صورتي الخطيب صورًا أخرى –[1] وهي أن يجمع بين فعلين متضادين أحدهما مثبت والآخر منفي، إلا أنهما ليسا من مصدر واحد، وإنما من مصدرين مترادفين في المعنى، وذلك كقوله: ﷺ في قصة النبي الذي حبست عليه الشمس: " فجمع الغنائم، فجاءت – يعني النار – لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غلولًا " حيث جمع بين الفعلين من مصدري الأكل والطعم بالإثبات والنفي في نسق واحد، وهما مترادفان في المعنى، متقاربان في الدلالة، وإن اختلف مصدر كل منهما، إلا أن نفي الطعم أقوى وأبلغ ؛ لدلالته على أن النار لم تقرب هذه الغنائم ألبتة، ولم تمسسها أدنى مس[2] ولا شك في أن إخراج الكلام هذا

(١) ينظر بحوث بلاغية في علم البديع. د/ صباح عبيد دراز، د/ عبد الرازق ريان ص٩٣-٩٥-٩٨، مكتبة الأزهر، دمنهور، مصر ١٩٩٧م.

(٢) فإن الطعم: الذوق، وطعم كل شيء يؤكل ذوقه-لسان العرب-طعم ٤/ ٢٦٧٤

المخرج آكد في الدلالة على رد الغنائم، وأظهر في تحقيق عدم قبولها؛ بسبب ما كان فيهم من الغلول؛ لتتعانق كل هذه الوسائل على تصوير شناعة الغلول وفظاعته، وإبراز شدة قبحه، والتنبيه على غاية خطورته.

وأما التوكيد بالمقابلة فقد جاء في عدد من المواضع إلا أنه ليس كالطباق في كثرته، وتنوعه؛ إذ لم يرد منه في هذا النوع من القصص إلا المقابلة الواقعة بين معنيين اثنين أو ثلاثة، وذلك بعد نظر وتأمل فيما وقفت عليه من قصص، ويرجع السبب في ذلك إلى أن هاتين الصورتين هما أقرب صور المقابلة إلى الطبع والعفوية، وأبعدها عن التكلف والتمحل، وإن كان هذا لا ينفي قوة الصور الأخرى، وعمق بلاغتها ودلالتها، لا سيما إذا استدعاها المقام، وتطلبها المعنى.

ومن أبرز مواضع المقابلة في هذه السياقات قوله ﷺ في قصة الرجل الذي كان يداين الناس حين سأله الملك: "هل عملت من خير ؟ قال: ما أعلم، قيل له: أنظر، قال: ما أعلم شيئًا غير أني كنت أبايع الناس في الدنيا وأجازيهم، فأنظر الموسر، وأتجاوز عن المعسر، فأدخله الله الجنة "(١) وفي رواية أخرى: "إلا أنه كان لي غلام، وكنت أداين الناس، فإذا بعثته يتقاضى قلت له: خذ ما تيسر واترك ما عسر، وتجاوز لعل الله أن يتجاوز عنا "، وكذا قوله ﷺ في قصة الرجل الذي رآه نبي الله عيسى متلبسًا بسرقته، وعلى لسان

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب من أنظر موسرًا ص٢٦٩ حديث ٢٠٧٧، وفي كتاب= =الاستقراض، باب حسن التقاضي ص٣٠٧، حديث ٢٣٩، وفي كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ص٤٥٤ حديث ٣٤٥١، ومسلم في كتاب المساقاة، باب فضل إنظار المعسر ص ٤٤٨ وما بعدها حديث ١٥٦١-١٥٦٢

عيسى خاصة: – آمنت بالله وكذبت عيني "[1] – وأيضا – قوله ﷺ في قصة المبتلين الثلاثة، وعلى لسان الملك للأعمى، وهو من مقابلة ثلاثة بثلاثة: "أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضى الله عنك، وسخط على صاحبيك"[2] ومثل ذلك في مقابلة ثلاثة بثلاثة – أيضًا – قوله ﷺ في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، وعلى لسان الأول: "اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، وامرأتي، ولي صبية صغار أرعى عليهم، فإذا أرحت عليهم حلبت، فبدأت بوالدي فسقيتهما قبل بني "، فإنك تجد الغرض الأسمى، والمقصود الأعلى من أسلوب المقابلة في كل الأمثلة السابقة هو تقرير المعنى وتحقيقه، وإبرازه في صورة واضحة جلية، من خلال الجمع بين عدد من الأضداد في نسق واحد، والتوفيق بينها على نحو يؤكد كل واحد منها الآخر ويثبته؛ فالجمع بين إنظار الموسر، والتجاوز عن المعسر، أو أخذ ما تيسر، وترك ما عسر–حسبما جاء في الرواية الأخرى – في سياق واحد من قصة الرجل الذي تجاوز الله عنه لتجاوزه عن الناس للتأكيد على كمال إحسان هذا الرجل، وتمام حسن تقاضيه، والمبالغة في الدلالة على عموم فضله، وشمول بره الموسر والمعسر، ولا تتأتى هذه المعاني إلا بالجمع بين هذه الأضداد؛ فإنك لا تضن على شخص يتجاوز عن المعسر وحده، أو ينظر الموسر وحده بوصفه بصفة الإحسان، وحسن التقاضي، لكن المضنون عليه به هو الوصف بكمال الإحسان، وتمام حسن التقاضي، فإنها التي تستحوذ على الضدين، وتستولي على الأمرين، وهذا من دأب الكرام، وشيم الأفاضل، وأمارة طيب الأرومة، وعلو الهمة وسمو النفس، وهكذا ينبغي أن يكون دأب المسلم وخلقه في التعامل مع الآخرين.

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

والجمع في كلام عيسى – عليه السلام – بين الإيمان بالله، وتكذيب عين نفسه؛ للتأكيد على تسليمه التام، وإذعانه الكامل لما أقسم عليه السارق، ونزوله المطلق على مقتضاه، على الرغم من مخالفته الحقيقة، ومجافاته الواقع وما رأته عينه ﷺ وهذا التقرير والتوكيد هو الذي يتطابق مع مقتضى حاله ﷺ في غاية الإجلال والتعظيم لله، والتوقير لجنابه.

والجمع في خاتمة قصة كل من الأبرص والأقرع والأعمى بين ثلاثة معان وما يقابلها في قول الملك: "فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك " مما يقتضيه مقام الابتلاء، وينسجم مع القصة والغاية في الأساس؛ إذ يمثل نتيجة طبعية لهذا الابتلاء، ونهاية حتمية لتغاير المواقف في القصة الكريمة: موقف الأبرص والأقرع من جانب، وموقف الأعمى من جانب آخر؛ إذ تعكس هذه المقابلة البون الشاسع، وتعمق الهوة السحيقة بين هذين الموقفين المتغايرين، وكذلك بين المآل والنتيجة المترتبة على كل منهما في وجدان السامع وعقله، وتميز بينهما في وضوح وجلاء؛ لتكون العبرة حاضرة، والعظة سافرة، فيختار كل لنفسه ما يريد.

والجمع في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار بين قوله: " والدان شيخان كبيران " وبين قوله: "وامرأتي ولي صبية صغار" في نسق واحد، حكاية عن الرجل الأول؛ للمبالغة في التأكيد على صدق نيته، وتمحض إخلاصه فيما صنع من تقديم والديه في الشرب على امرأته وصبيته الصغار، رغم سوء حالهم، والدلالة بهذه المقابلة على شدة عجز الفريقين المتقابلين، وتقرير غاية ضعفهما، وسوء حالهما، والتنبيه على أن كل واحد منهما في مسيس الحاجة إلى العطف والرعاية، مع قيام العذر في تقديم صبيته وامرأته على والديه لو أنه فعل ذلك فقد كان والداه نائمين؛ لتتعانق كل هذه الوسائل

على تصوير غاية بره بوالديه، وتأكيد عظيم إحسانه إليهما، وتحقيق شدة رأفته بهما، وحنوه عليهما؛ ليكون ذلك في مقام الضيق؛ بسبب علوقهم داخل الغار من الصخرة التي انحدرت على بابه من أعلى الجبل فسدته أرجى لقبول دعائه، وتحقق رجائه.

هذه هي أكثر الوسائل دورانا واستعمالا في هذا الباب من أبواب الدراسة؛ وثمت أساليب أخرى يمكن أن تندرج تحت هذا المحور، وتدخل في أساليب التناسب، كالتوكيد بأساليب الشرط والجزاء، ومن طريق المجازاة بإذا خاصة، وذلك لما هو معلوم من أمرها من أنها تستخدم مع الشرط المجزوم بوقوعه، المقطوع بحصوله، ومن ارتباطها في الغالب بالدخول على الفعل الماضي الذي يدل على تحقق الوقوع، وبذلك يتناسل التوكيد بها من دلالتها الأصلية، ومن ارتباطها بالفعل الماضي.

وقد جاء ذلك في مواضع قليلة من القصص النبوي عن بني إسرائيل، كقوله ﷺ من قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، وعلى لسان الثاني الذي أراد ابنة عمه عن نفسها: " فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها قالت اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحق"[1] وقوله ﷺ في قصة الرجل الذي قتل مائة نفس: حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب"[2] وقوله في قصة الرجل الذي أمر أولاده أن يحرقوه بعد موته:" إذا أنا مت فاحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح"[3] وقوله في قصة أيوب- عليه السلام-:

---

(١) الحديث سبق تخريجه

(٢) الحديث سبق تخريجه

(٣) الحديث سبق تخريجه

"وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده، حتى يبلـــغ"[1] وغير ذلك من المواضع التي تجد أن تعليق جملتي الشرط والجزاء فيها بـــــ" إذا" خاصة قد أفاد الجزم بوقوع الشرط وتحققه.

وإن شئت بيانا لذلك فراجع الموضع الأول: "حتى إذا قدرت عليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم الا بحق" ترى أن إيثار "إذا" دون غيرها مـــن أدوات الشرط، ودخولها على الفعل الماضي شرطا وجزاء: "قدرت عليها– قالت اتق الله" قد أفاد المعنى تقريرا وتوكيدا، وتحقيقا وتشديدا؛ لدلالتها على تمكنه مـــن ابنة عمه؛ وقدرته على إتيانها، وأنها أصبحت طوع يده، وقرينه هذا ما جـــاء في الرواية الأخرى:" فلما قعدت بين رجليها قالت..."، وهذا في مقام الضـــيق بسبب انحباسهم داخل الغار أبلغ؛ لدلالته على صـــدق العزيمـــة، وتمحـــض الإخلاص، واستعلائه على قوة الشهوة، وضعف الغريزة، وهذا في مقام الطلب أرجى لقبول الدعاء، وتحقق الرجاء، وعلى هذا يمكن قياس سائر المواضـــع، والله أعلم.

(١) الحديث سبق تخريجه

المحور الرابع
التوكيد بأساليب الإيضاح بعد الإبهام

يعد الإيضاح بعد الإبهام من أقوى وسائل تقرير المعنى وتوكيده، وتحقيقه وتثبيته في الكلام العربي، ومرد ذلك إلى ثلاثة أمور:- الأول: أن المعنى معه يخرج في صورتين مختلفتين، ويبرز في معرضين متغايرين، وهذا أمر مستحسن؛ لأنه – من وجه – كعرض الحسناء في لباسين، وهذا يزيدها بهاءً وجمالًا، ومن وجه آخر فإن إدراك الشيء من جهة الإبهام، ثم إدراكه من جهة التفصيل يعد إدراكين، والإدراكان علمان، وعلمان خير من علم واحد(١).

الثاني: ما يحصل به من التشويق؛ إذ من المعلوم المقرر أن الكلام إذا خرج مخرج الإبهام – أولًا – فإن النفس تقع بهذا الإبهام في حيرة وتفكر، واستعظام وتشوف، واشتياق وترقب إلى الوقوف على البيان والإيضاح، وفك رموز هذا الغموض المثير، والاطلاع على كنه حقيقته؛ لما فطرت عليه النفوس من التعلق بالمجهول الذي يلوح لها منه طرف من العلم والانكشاف، فإذا ورد عليها الإيضاح بعد ذلك، وألقى على مسامعها التفصيل تمكن المعنى منها فضل تمكن، وقوي عندها، وكان شعورها به أتم؛ لأنه أتى بعد تعطش إليه، والحاصل بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب(٢).

الثالث: ما يحصل به من كمال لذة العلم، وتمام الشعور به؛ بسبب إزالة ألم الحرمان الحاصل بسبب العلم بالتفصيل، فإن الشيء إذا حصل الشعور به

---

(١) ينظر شروح التلخيص ٣/ ٢١٠، والأطول للعصام ٢/ ٨٢، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى ٢٠٠١م–دار الكتب العلمية–بيروت

(٢) ينظر شروح التلخيص ٣/ ٢١٠، وخصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى ص٣٤٩.

من وجه دون وجه، تشوفت النفس إلى العلم بالمجهول، فيحصل لها بسبب المعلوم لذة، وبسبب حرمانها عن الباقي ألم، ثم إذا حصل لها العلم به حصلت لها لذة أخرى، واللذة عقيب الألم أقوى من اللذة التي لم يتقدمها ألم؛ إذ كأنها لذتان، لذة الوجدان، ولذة الخلاص عن الألم(١).

وليس للإيضاح بعد الإبهام صورة مطردة، ولا يخرج في لباس واحد، بل تتنوع صوره، وتتعدد أساليبه وأنماطه في الكلام العربي؛ نظرًا لتعدد أسبابه، وتنوع مناشئه وكثرتها؛ فقد يكون سببه ما في الكلام من إجمال يحتاج إلى تفصيل، وقد يرجع إلى عدم وفاء الكلام بتمام المعنى المراد، أو يكون كغير الوافي بتمامه، وقد ينشأ بسبب ما يعلو الكلام ويعلفه من غلالة رقيقة، وظلال لطيفة شفيفة من الغموض، تحجب المعنى نوعًا من الحجب، فيحتاج إلى ما يزيل هذا الغموض، ويهتك ستر هذا الخفاء، إلى غير ذلك مما سوف تفصل فيه هذه الدراسة، بتناول صوره وأساليبه في سياق القصص النبوي عن بني إسرائيل.

(١) ينظر شروح التلخيص ٣/ ٢١١.

الصورة الأولى
التفصيل بعد الإجمال

يعد التفصيل بعد الإجمال صورة من صور الإطناب في المعنى، وهو في الوقت ذاته من أقوى أساليب الإيضاح بعد الإبهام، وأكثر طرقه ظهورًا وأعظمها أثرًا في تقرير المعاني وتوكيدها، حتى إنهما ليقترنان دومًا في كتب البلاغة، ويعدهما كثير من البلاغيين شيئًا واحدًا، حتى ذهب العصام في الأطول إلى أن تسمية الإيضاح بعد الإبهام تفصيلًا بعد إجمال أفضل(١) غير أن الأرجح من وجهة نظر البحث أن الإيضاح بعد الإبهام أعم من التفصيل بعد الإجمال، فكل تفصيل بعد إجمال إيضاح بعد إبهام، وليس كل إيضاح بعد إبهام تفصيلًا بعد إجمال، فبينهما عموم وخصوص.

ويمثل التفصيل بعد الإجمال خصيصة من أبرز خصائص الأسلوب النبوي في سياقات قصص بني إسرائيل، وليس أدل على ذلك من أنه قلما تخلو منه قصة من هذا القصص؛ ومرد ذلك إلى ما يحققه من تماسك بنى الكلام، وتلاحم عناصره، وانسجام مخرجاته، ويدل على إحكام الصنعة التي تحقق ما يسمى – حديثًا – بالحبكة الفنية التي تعد من أبرز خصائص القصص الجيد التي يعول عليها كثيرًا – باعتبارها – عاملًا من عوامل الجذب والإثارة والتشويق – في تحقيق جانب كبير من أهدافه، وترسيخ غاياته وغرس مضامينه في نفوس المتلقين.

والغالب في التفصيل بعد الإجمال أن يقع في مستهل القصص النبوي عن بني إسرائيل، وهذا من براعة الاستهلال، وحسن الابتداء؛ إذ يظل به السامع مترقبًا ومتشوقًا إلى تفصيل الأحداث، والمواقف، مشدودًا إلى الحل حتى نهاية

---

(١) ينظر الأطول للعصام ٢/ ٨١.

القصة، وهذا – كما ذكرت سلفًا – من شأنه أن يعمل على تقرير أهداف القصة، وتثبيت غاياتها في نفوس المتلقين.

وإن شئت دليلًا على هذا فراجع قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، تجد مطلعها على هذا النحو من الإجمال الذي يقفوه التفصيل: "انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم، حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه..."[1] ليس هذا فحسب فقد تعانق مع الإجمال السابق إجمال آخر عمل على تصعيد المعنى والارتقاء به: "فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم " وهذا وذاك يجعل الكلام أكثر إثارة والمتلقي أشد ترقبًا، وأقوى تشوقًا وتنبهًا إلى تفصيل الأحداث، وتتبع مجريات القصة، حتى نهايتها، فإذا جاء التفصيل ووقف السامع على استقصاء الأحداث والمواقف، ابتداءً من قوله ﷺ " قال رجل منهم: اللهم كان لي والدان شيخان كبيران...." إلى آخر القصة، وقع من النفس موقع الماء من ذي الغلة الصادي، وبذلك تصل القصة إلى تحقيق غاياتها، والمرجو من أهدافها، وهي كثيرة ومتنوعة، ويمكن لمن يراجع شروح الحديث الوقوف على جانب منها[2] والله أعلم.

وراجع قصة المتكلمين في المهد فإنك تجدها قد خرجت في بناء أحداثها، وعرض مواقفها ومشاهدها على التفصيل بعد الإجمال، فقد استهلت بهذا

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء–باب حديث الغار ص٤٥٦، حديث ٣٤٦٥، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال= =صـ٧٩٩ـ، حديث ٢٧٤٣.

(٢) ينظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ٥٦٠، وفتح الباري لابن حجر ٦/ ٥٠٦ وما بعدها.

الإجمال المثير: "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة "[1] الذي يلهب الشوق، ويستحث التطلع إلى تفصيل الأحداث والمواقف، وهذا ما كفله البيان النبوي عقيبه مباشرة، ابتداءً من قوله: "عيسى بن مريم، وصاحب جريح..." وذلك حتى نهاية القصة وخاتمة أحداثها.

وكذلك قصة المبتلين الثلاثة خرجت هذا المخرج من الإجمال في مطلعها على هذا النحو المثير: "إن ثلاثة من بني إسرائيل "[2] والذي تناسل من داخله تفصيل خرج هو الآخر مخرج الإجمال الذي يتطلب بياناً وإيضاحًا، وذلك قوله: "أبرص، وأقرع، وأعمى " دون أن يذكر من أمر الثلاثة شيئًا سوى إرادة ابتلاء الله إياهم " " أراد الله أن يبتليهم " ثم ذكر ما لكل واحد من الثلاثة ما له من الابتلاء على جهة التعيين الوارد على طريقة التقسيم: "فأتى الأبرص... فأتى الأقرع... فأتى الأعمى " ثم استخرج من رحم كل تفصيل من التفصيلات الثلاثة السابقة تفصيلًا ثالثًا في قوله: "ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته – وأتى الأقرع – وأتى الأعمى في صورته وهيئته " الذي كشف عن نتيجة الابتلاء الخاصة بكل واحد منهم، والمراد لله في أول القصة؛ لتتعانق كل هذه الوسائل من التفصيل بعد الإجمال، والتقسيم على إحكام نسيج القصة، وتماسك بنائها، وتصوير مدى وفائها بالمعنى والغرض، وهكذا – أيضًا – تجد كثيرًا من القصص النبوي عن بني إسرائيل قد اكتست هذا الكساء، وعرضت أحداثها ومواقفها هذا المعرض، وهو ما يضمن استمالة إصغاء السامع، وجذب انتباهه حتى النهاية، فيقع مضمون القصة في نفسه أحسن موقع، وتؤتي ثمارها وأكلها كل حين على أكمل وجه.

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

وقد يقع التفصيل بعد الإجمال في وسط القصص النبوي وفي ثناياه، وهو دون الصورة الأولى في الكثرة والدوران، وذلك كما في قوله: ﷺ من قصة المفاخر بآبائه الكفرة على زمان موسى – عليه السلام – " فأوحى الله إلى موسى – عليه السلام – أن هذين المنتسبين: أما أنت أيها المنتمي أو المنتسب إلى تسعة في النار فأنت عاشرهم، وأما أنت أيها المنتسب إلى اثنين في الجنة فأنت ثالثهما في الجنة "(١) وكذلك قوله ﷺ في قصة النبي الذي أعجب بقومه: " فأوحى إليه أن اختر لقومك إحدى ثلاث: إما أن نسلط عليهم عدوًا من غيرهم أو الجوع أو الموت "(٢) وهو لا يخرج في سمته، ومذاق تحليله عما سبق في الصورة الغالبة، والله أعلم.

(١) الحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، حفظ اللسان عما لا يحتاج إليه، فصل ومما يجب حفظ اللسان منه الفخر بالآباء وخصوصًا بالجاهلية ٧/ ١٣٠، حديث ٤٧٧١.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البروج ٥/ ٤٣٧ حديث ٣٣٤٠، تحقيق/ أحمد محمد شاكر وآخرون–الطبعة الثانية ١٩٧٥م.

الصورة الثانية
التوكيد بأسلوبي اللف والنشر والتقسيم

يشترك اللف والنشر مع التقسيم في تفصيل المعاني بعد إجمالها، وإيضاحها بعد إبهامها؛ حيث يذكر المتعدد في كل منهما مبهمًا، ثم توضح صفات أفراده، أو مجملًا، ثم تفصل أحواله، وتستوفي أقسامه، فيزداد المعنى بذلك فخامة وتأكيدًا؛ لكونه ذكر مرتين على هيئتين مختلفتين، تقرر كل واحدة منهما الأخرى وتثبتها، إلا أن اللف والنشر أدخل في هذا الباب من التقسيم بكل صوره؛ نظرًا لعدم التعيين فيه، والتداخل الشديد بين أجزائه وعناصره، وتعويله في رد كل نشر إلى ما هو له من اللف على قريحة السامع وذكائه، فهو أكثر إثارة للنفس، وأقوى إيقاظًا للذهن من التقسيم.

ومن وجه آخر: فإن ذكر الشيء دون إيضاح إبهامه، وتفصيل إجماله وأحواله يشوق النفس إلى معرفتها، ويلهب الفكر لتصورها، فإذا جاءت الأقسام مفصلة، والأحوال مبينة ثبتت في الذهن، وتمكنت من النفس؛ للحصول عليها بعد شوق وطلب وكد[1].

كما أن لحصر أقسام الشيء واستيفائها بالذكر في الصورة الثالثة من صور التقسيم خصيصة في تقرير المعاني وتوكيدها ليست لغيرها من صور التقسيم الأخرى، أو صور اللف والنشر، وهي الإحاطة بالشيء من كافة أقسامه، وحصره من جميع وجوهه، فلا يبقى أمام العقل إلا أن يسلم بما عرض عليه، ويتفرغ لهضمه واستيعابه[2].

واتكاء البيان النبوي على هذين الأسلوبين في تقرير معانيه وتحقيق أهدافه

---

(١) ينظر شروح التلخيص ٣/ ٢١٠-٢١١.

(٢) ينظر دراسات منهجية في علم البديع د. الشحات أبو ستيت صـ٢٤٥

وغاياته في قصص بني إسرائيل ليس بالكثير اللافت الذي يرقى إلى أن يمثل ظاهرة أسلوبية تثير الانتباه، وإنما جاء في مواضع قليلة، وبخاصة اللف والنشر، حيث لم أقف له في هذا القصص إلا على موضعين اثنين، جاءا مقترنين في سياق واحد، وذلك في قصة الأبرص والأقرع والأعمى، في قوله ﷺ منها: "فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم"(١) فإن قوله: "فأنتج هذان " نشر يعود إلى ما سبق من قوله في قصة الأبرص: "فأعطي ناقة عشراء " وقوله في قصة الأقرع: " فأعطى بقرة حاملًا "، وقوله: " وولد هذا " نشر يعود إلى ما سبق من قوله في قصة الأعمى: "فأعطي شاة والدا" فإن النتاج وصف لجميع الدواب ما عدا الغنم، والولاد يكون في الغنم خاصة(٢).

وقد جاء النشر فيما سبق بيانًا وتوضيحًا، وتقريرًا وتوكيدًا لما سبق من كون الناقة عشراء في قصة الأبرص، وكون البقرة حاملًا في قصة الأقرع، والشاة والدًا في قصة الأعمى.

وأما قوله: " فكان لهذا واد من الإبل" فهو نشر يرجع إلى مجموع قصة الأبرص؛ إذ هو الذي أعطى ناقة عشراء، وقوله: – "وكان لهذا واد من البقر " يرجع إلى ما سبق من قصة الأقرع، فإنه الذي أعطى بقرة حاملًا، وقوله: "وكان لهذا واد من الغنم" نشر يرجع إلى الأعمى وقصته؛ إذ هو الذي أعطى شاة والدًا، وقد ترك البيان النبوي للمتلقي حرية رد كل نشر إلى ما هو له من اللف؛ ثقة بذكائه، وتعويلًا على اتقاد قريحته، وتحقيقًا للتفاعل البناء، والإثارة

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) ينظر لسان العرب لابن منظور–نتج ٦/ ٤٣٣٤

الواعية، والمشاركة الهادفة في استخلاص العبرة من وراء هذه الأحداث والمشاهد، وذلك لما في اللف والنشر من إيضاح بعد إبهام، وتفصيل بعد إجمال من شأنه أن يقوي المعنى ويؤكده، وهو – تأكيد – كثرة المال الذي وقع به الابتلاء ووفرته، وتحقيق استجابة دعوة الملك لكل من الثلاثة بالبركة، حتى صار لكل واحد منهم واد من جنس النعم الذي أعطيه.

أما التقسيم فقد تعددت مواضعه نوعًا من التعدد في سياقات هذا النوع من القصص، وذلك كالذي تجده في قول النبي ﷺ في قصة الرجل الذي قتل مائة نفس:– "فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط "(١) حيث ذكر النبي ﷺ متعددًا على سبيل الإجمال، وهو: "ملائكة الرحمة وملائكة العذاب " ثم ذكر ما لكل على سبيل التفصيل والتعيين؛ فقوله: فقالت ملائكة الرحمة: "جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله – تعالى" يعود إلى اختصام ملائكة الرحمة، وقوله: " وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط " يعود إلى اختصام ملائكة العذاب فيه، وقد أخرج الكلام مخرج التقسيم على النحو السابق؛ للمبالغة في الدلالة على قوة اختصام الملائكة في هذا الرجل الذي قتل مائة نفس، وتأكيد شدة تنازعهم حول من يقبض روحه ويتولى أمره، ولا شك في أن المقام يقتضي هذا التقرير والتأكيد؛ لشدة التباس الأمر على الملائكة الموكلين بقبض الأرواح، وعدم معرفتهم بمصير هذا الرجل الذي يصير إليه؛ لفرط إسرافه على نفسه في الإجرام، وعميق انغماسه في المعصية؛ لتتعانق كل هذه الوسائل على رسم المقام وتشخيصه، وهو – هنا – في بيان سعة رحمة الله – تعالى – بعباده، وعظيم عفوه عنهم، وتحقيق الغاية والهدف من

(١) الحديث سبق تخريجه.

القصة، وهو الحض على التوبة، والترغيب فيها، مهما عظم الجرم، وساءت الخطيئة، فإن رحمة الله – تعالى – تسع كل ذلك وتشمله.

وكالذي تجده في قول النبي ﷺ في قصة المبتلين الثلاثة:– "إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أراد الله أن يبتليهم "[1] حيث بنى مطلع القصة على ذكر متعدد على سبيل الإجمال: "أبرص، وأقرع، وأعمى "، ثم ذكر لكل واحد من الثلاثة ما له على سبيل التفصيل والتعيين في قوله: "فأتى الأبرص فقال – فأتى الأقرع فقال – فأتى الأعمى فقال"، ثم استخرج من رحم التفصيل السابق تفصيلًا آخر، في قوله: "ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته– وأتى الأقرع في صورته وهيئته – وأتى الأعمى في صورته وهيئته " فأحكم بذلك بناء القصة، وشد أحداثها ومشاهدها إلى أول جملة فيها: "إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أراد الله أن يبتليهم " وذلك على نحو قلما تجد له نظيرًا في غير البيان النبوي، وهذا من شأنه أن يعمل على ترسيخ مضمون القصة، وتحقيق غاياتها وأهدافها، وتأكيد أن الابتلاء سنة ماضية في الخلق، وأنها تكون بالخير والشر، وأن الناس يتفاوتون فيه بتفاوت مراتبهم في الإيمان والتقوى، والعزيمة والرشد.

وكالذي تجده في قصة الحجر الذي فر بثوب موسى – عليه السلام – وذلك في إحدى روايات الحديث: " فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص، وإما آدرة، وإما آفة "[2] فقد نسبوا إليه العيب على وجه الإجمال في قولهم: " ما يستتر هذا التستر إلا من

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

عيب في جلده " ثم أخرج الكلام مخرج التفصيل باستيفاء أقسام العيب في قولهم: " إما برص، وإما آدرة، وإما آفة" وقد جاء الترتيب بين هذه الأقسام المذكورة على طريقة الترقي من الأعلى إلى الأدنى، ومن الخاص إلى العام؛ فإن البرص أقبح وأعظم تأثيرًا في البدن من الآدرة، وهي عظم الخصيتين، وهي أقبح في البدن من مطلق الآفة، ومطلق الآفة أعم من البرص والآدرة؛ فإنهما نوع من الآفة.

ولا شك في أن تعانق التقسيم باستيفاء أقسام العيب مع الترقي من الأعلى إلى الأدنى، ومع عطف العام على الخاص، كل ذلك لا يترك للعقل إلا فرصة التسليم بما عرض عليه من صحة اتهام القوم موسى – عليه السلام – بالعيب في جلده؛ بسبب اغتساله – عليه السلام – وحده من شدة حيائه، والإذعان له، والتسليم به وقبوله؛ لإحاطته بمعايب الجسد من كافة جهاتها، وحصرها من جميع وجوهها، وهذا من الزور والبهتان الذي برأ الله نبيه موسى – عليه السلام – منه، وذلك على النحو الذي جاء مفصلًا في نسق القصة الكريمة.

وكالذي تجده – أخيرًا – في قوله ﷺ من قصة المرأة التي دخلت النار في هرة حبستها، حتى ماتت:– " عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها، ولا سقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض "[1] حيث ذكر أمر موت القطة وحبسها مجملًا مبهمًا في قوله:– "عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت "، ثم استوفى أقسامه بعد ذلك في قوله:– "لا هي أطعمتها – ولا سقتها إذ حبستها – ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض " وهذا التقسيم باستيفاء أسباب الموت في مقام الإنذار والتخويف لا محيص عنه؛ لما فيه من المبالغة في التأكيد على استحقاقها

(١) الحديث سبق تخريجه.

العذاب، ودخولها النار؛ لدلالته على انتفاء العذر عنها بالكلية، وندائه على خطورة الأمر، وفداحة الخطب، وعظم الجرم، وأنه مما لا يستهان به، ولا يستصغر من شأنه.

الصورة الثالثة
التوكيد بالجمع مع التفريق

لا يختلف الجمع مع التفريق في سمته وخصيصته البلاغية من تقرير وتأكيد، وتمكين وتثبيت، وإلهاب وتهييج عن أسلوبي اللف والنشر والتقسيم؛ فهو مثلهما: عرض للمعنى مرتين، على هيئتين مختلفتين، تقرر كل واحدة منهما الأخرى وتؤكدها؛ إذ فيه إجمال وإبهام بالجمع أولًا، ثم تفصيل وإيضاح بالتفريق ثانيًا.

والجمع مع التفريق باعتباره وسيلة من وسائل التقرير والتوكيد نادر الوقوع في سيا ق القصص النبوي عن بني إسرائيل، ولم أجد له فيه إلا موضعًا واحدًا، جاء في ختام قصة الأبرص، والأقرع والأعمى، على لسان الملك مخاطبًا الأعمى: "أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك "[1] حيث جمع بين الثلاثة في الابتلاء: "فإنما ابتليتم " ثم فرق بينهم في النتيجة المترتبة على هذا الابتلاء، وهي رضا الله عن الأعمى، وسخطه على صاحبيه الأبرص والأقرع: – " فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك ".

وإخراج الكلام في مبناه على هذا النحو من الإجمال بالجمع بين الثلاثة في حكم، والتفصيل بالتفريق بينهم في نتيجة الحكم وجهته فيه تقرير لوقوع الابتلاء أيما تقرير، وتأكيد على أنه سنة الله جارية في خلقه، ماضية فيهم؛ للتمحيص والتمييز.

وختم القصة بتقرير أن ما وقع للثلاثة كان ابتلاء، في قوله: "فإنما ابتليتم "، بعد استهلالها بتقرير إرادة الله ابتلاء الثلاثة في قوله: "أراد الله أن يبتليهم "

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

يشبه ما يسمى في البديع برد الأعجاز على الصدور[1] حيث ختم الكلام بتقرير ما بدأ به وتوكيده، وتحقيقه وتثبيته، والله أعلم.

(١) رد الأعجاز على الصدور هو-في النثر-أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين، أو الملحقين بهما في أول الفقرة، والآخر في آخرها. الإيضاح للخطيب القزويني ص ٢٢٠، والمطول لسعد الدين التفتازاني صـ٦٨٩ تحقيق/ عبد الحميد هنداوي-الطبعة الأولى ٢٠٠١م-دار الكتب العلمية-بيروت.

الصورة الرابعة
التوكيد بأساليب الفصل

يحرص المتكلم في فصله ووصله على أداء فكرته في وضوح، لا لبس فيه، وعلى نحو مقرر ومؤكد، كما يحرص في الوقت ذاته – على إثارة عقول المخاطبين بمختلف درجات استيعابهم، وإثارة نفوسهم على اختلاف نزعاتها وميولها؛ ليصل في النهاية إلى تحقيق غاياته وأهدافه من الكلام(١).

ومع تعدد أساليب الفصل وتنوعها؛ لتنوع أسباب الفصل ومناشئه إلا أن الذي يعنيني منها هو ما له صلة وثيقة بفكرة البحث، وما يتصل من موضوعه بسبب، وذلك في كمال الاتصال خاصة، حين تنزل الجملة الثانية منزلة البيان أو البدل من الجملة الأولى، أما نزولها منها منزلة التوكيد، فقد سبق أن درست ذلك في محور التوكيد بأساليب التناسب.

وكذلك في شبه كمال الاتصال – أيضًا – وذلك حين تنزل الجملة الثانية منزلة الجواب عن سؤال أثارته الجملة الأولى.

وكان يمكن أن نضيف إلى الصورتين السابقتين صورة ثالثة، وهي شبه كمال الانقطاع، إلا أنني لم أقف على مواضع له في القصص موضوع الدراسة، هذا إلى جانب أن أكثر شواهده في كتب البلاغة يجوز البلاغيون حملها على شبه كمال الاتصال(٢).

---

(١) ينظر الفصل والوصل في القرآن الكريم. دراسة في الأسلوب. د/ منير سلطان صـ١٩١ الطبعة الثانية، منشأة المعرف بالأسكندرية، بدون تاريخ.

(٢) ينظر المطول لسعد الدين التفتازاني ص٤٤٦–تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي–الطبعة الأولى ٢٠٠١م–دار الكتب العلمية–بيروت، كما ينظر في البلاغة القرآنية. أسرار الفصل والوصل د/ صباح عبيد دراز ص١١٥، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، مصر.

وإنما عدت هذه الأساليب من الإيضاح بعد الإبهام الذي يقرر المعنى ويؤكده، ويحققه ويثبته؛ لأن الجملة الأولى في شبه كمال الاتصال "مكتنزة فيها بعض الظلال والغموض الخفيف، فهي ليست واضحة جدًا بحيث يمكن الوقوف عليها، والسكوت عندها، فتثير فيضًا من التساؤلات والاستفسارات تثار حتمًا في نفس الملتقى، تجذبه، وتشركه في الصياغة، ويكتفي الأسلوب بما يثيره، فلا يظهر مصرحًا به، بل يظل مكنونًا في الأسلوب وفي الضمير في منطقة الظل "[1]ثم تأتي الجملة الثانية، وكأنها استجابة للهواتف التي أثارتها الجملة الأولى في نفس الملتقى، فتطفئ لهيب الشوق في نفسه، " وتشبع هذا التطلع العاطفي للمجهول، فيتأكد المعنى من الناحية العقلية، ويحقق المتعة النفسية، ويشبع حاسة الفن والجمال" [2]

ولأن الجملة الأولى في كمال الاتصال حين تنزل الثانية منها منزلة البيان لها فيها نوع إبهام، ويلفها قدر كبير من الغموض، ومما هو مركوز في الطباع أن النفس البشرية حين تتلقى كلامًا ملفوفًا بشيء من الغموض فإنها تشتاق إلى بيانه، وتستشرف نحو التعرف على وجهه، فإذا جاء البيان صادف نفسًا نشطة يقظة، متطلعة، فيتمكن الكلام منها[3].

أما حين تنزل الجملة الثانية منزلة البدل من الأولى؛ فلأن الجملة الأولى تكون غير وافية بتمام المعنى المراد، أو تكون كغير الوافية؛ بسبب ما فيها –

---

(١) في البلاغة القرآنية. أسرار الفصل والوصل. د/ صباح عبيد دراز ص١١٥

(٢) المرجع نفسه ص١١٦

(٣) ينظر دلالات التركيب د/ محمد أبو موسى ص٣١٢، الطبعة الثانية ١٩٨٧م، مكتبة وهبة، القاهرة.

أيضًا – من إجمال تتطلع النفس معه إلى التفصيل، فإذا وقفت عليه بعد هذه الحالة النفسية والشعورية كان وعيها به أتم، ولذتها به أكمل؛ لأنه أتى بعد تشوق وترقب، وخرج في لباسين مختلفين يقرر أحدهما الآخر، وهذا من شأنه أن يعمل على تمكين المعنى في النفس فضل تمكن، وإقراره في ضمير المتلقي ووجدانه على نحو لا يتزعزع ولا يتغير، ولعل هذا ما ذهب إليه الزمخشري حين ذكر أن الفائدة من البدل تكمن في التوكيد؛ لما فيه من التثنية والتكرير(١).

والذي يتأمل هذه الأساليب التي سبق ذكرها، ويبحث عن مواضعها في القصص النبوي عن بني إسرائيل يجد أن أكثرها دورانًا في نسيج هذا النوع من القصص هو شبه كمال الاتصال، يليه وقوع الجملة الثانية بيانًا للأولى في كمال الاتصال، وأما وقوع الجملة الثانية في موقع البدل من الأولى فهو نادر الاستعمال في هذا النوع من القصص النبوي.

أما شبه كمال الاتصال، فكل ما جاء في هذا القصص من لفظ "قال" مفصولًا غير معطوف، فهذا هو التقدير فيه، كقوله ﷺ في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار(٢)، في قصة الأول:- "قال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران..."، وفي قصة الثاني:- "قال الآخر: اللهم إنه كان لي ابنة عم..."، فقد جاء فعل القول فيهما مفصولًا غير معطوف؛ لأنه على تقدير جواب عن سؤال أثاره الكلام السابق من قول الثلاثة إجمالًا قبل أن يعرض الأول قصته: " فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم" وفي قصة الثاني من سؤال أثارته قصة الأول، كأنه قيل في الموضعين: فماذا قال الأول بعد أن قالوا هذا الكلام؟ وماذا قال الآخر بعد ما قص الأول قصته؟

---

(١) ينظر الكشاف ١٦/١

(٢) الحديث سبق تخريجه

وقرينة خروج الكلام مخرج السؤال والجواب أن قصة الثالث جاءت معطوفة بالواو على هذا النحو: "وقال الثالث"؛ لأنها لم يقدر فيها هذا التقدير، فكأن المتلقي قد استفرغ من نفسه بعد ما عرض الأول والثاني قصته شحنات الشوق، وأزيز الوجدان، وأطفأ فيها لهيب التطلع، وصار عرض الثالث قصته مفروغ منه، ولا نزاع فيه.

وكقوله ﷺ في قصة أصحاب الأخدود: "فقال – أي الغلام – للملك: إنك لست بقاتلي، حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو ؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد"(١) وقوله في قصة لطم موسى – عليه السلام – ملك الموت:– "فضع يدك على متن ثور فما توارت يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة، قال: ثم مه؟ قال: ثم تموت، قال: فالآن من قريب "(٢) وغير ذلك مما يجري هذا المجرى كثير، لا حصر له.

ومن صور الفصل لشبه كمال الاتصال – أيضًا – كل ما جاء في هذا القصص مفصولًا غير معطوف في إثر مطلوب، أمرًا كان أم نهيًا، كالذي في قوله ﷺ من قصة الرجل الذي اشترى من رجل عقارًا فوجد فيها جرة فيها ذهب: "خذ ذهبك إنما اشتريت منك الأرض ولم أشتر الذهب "(٣)

وقوله من قصة المرأتين اللتين عدا الذئب بابن إحداهما: "فخرجتا على

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقاق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام ص٨٤٩ حديث ٣٠٠٥

(٢) الحديث سبق تخريجه

(٣) الحديث سبق تخريجه

سليمان بن داود فأخبرتاه بذلك، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما! "[1] وقوله من القصة ذاتها، وقد جاء الطلب في صورة النهي: "لا تفعل يرحمك الله هو ابنها " وغير ذلك مما يجري على هذه الشاكلة، تجد الجملة الطلبية قد أثارت في النفس تساؤلًا عن سبب هذا الطلب، والمقام يقتضي هذه الإثارة؛ لتعلق الطلب في كل منها بأمر غريب يبعث على الشك والتردد، ويثير الدهشة والاستغراب.

وقد تأتي الجملة الأولى منه في صورة الخبر التقريري المباشر، الذي يتضمن حكمًا صريحًا غريبًا هو ما يثير في النفس هذه الحركة المقدرة، كالذي تجده في قوله ﷺ من قصة أصحاب الأخدود، على لسان الراهب للغلام[2]:- " أي بني ؟ أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما ترى" وقوله في القصة نفسها على لسان الغلام؛ ردًا على الملك وجليسه:- "إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله تعالى "، وقوله فيها – أيضًا – " قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس" وغير ذلك من صوره ومواضعه، تجد أن الجملة الأولى قد اشتملت على حكم غريب، جاء على خلاف المعهود، وهو ما يثير في النفس حب التطلع، ويلقى فيها – فيضًا من التساؤلات والاستفسارات تثار حتمًا حول هذا الحكم الغريب، فتجئ الجملة الثانية مفصولة غير معطوفة، على تقدير الجواب عما أثارته الجملة الأولى؛ لتميط اللثام عن سبب الحكم وعلته، فتشبع هذا التطلع، وتروى هذا الظمأ الملتهب، فيتمكن المعنى ويتقرر في ذهن السامع، وإنما كان الغلام أفضل من الراهب؛ لأنه دعا الله فاستجاب له[3]، وقد سبق أن

---

(١) الحديث سبق تخريجه

(٢) الحديث سبق تخريجه

(٣) شرح رياض الصالحين لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين ١/ ٢١٥ دار الوطن للنشر، الرياض ١٤٢٦ه.

عرضت لهذا النمط الأسلوبي تفصيلًا وتحليلًا في وقوع الجملة موقع العلة لما قبلها، وذلك في المحور السابق من الدراسة.

أما التوكيد بتنزيل الجملة الثانية منزلة البيان للجملة الأولى في كمال الاتصال فيشخص – غالبًا – في وقوعها مفصولة غير معطوفة بعد جملة أخرى فعلها من مادة الوحي أو النداء خاصة، كالذي تجده في أكثر من موضع من قوله: "وأوحى الله إليه أن كذا... فناداه ربه أن كذا..." وذلك كما في قوله ﷺ من قصة اغتسال نبي الله أيوب عريانًا، وخرور جراد من ذهب عليه:-" بينا أيوب يغتسل عريانًا، خر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثي في ثوبه، فناداه ربه تبارك وتعالى: يا أيوب! ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ "[1] وقوله في قصة النبي الذي أحرق قرية النمل:- "فأوحى الله إليه أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح"[2]وقوله من قصة موسى والخضر – عليهما السلام – " فعتب الله عليه؛ إذ لم يرد العلم إليه، وأوحى الله إليه: إن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك " وقوله – أيضًا – في قصة النبي الذي أعجب بقومه، فقال: من يكافئ هؤلاء ؟ " فأوحى الله إليه أن اختر لقومك إحدى ثلاث: إما أن نسلط عليهم عدوًا من غيرهم، أو الجوع، أو الموت "[3] وغير ذلك مما جاءت فيه الجملة الثانية مفصولة غير معطوفة؛ لبيان حقيقة الموحى به، أو المنادى عليه، وماهيته، إذ هو مما تتعلق به النفس؛ لإجماله وإبهامه.

وأما الصورة الثالثة، وهي التوكيد بتنزيل الجملة الثانية منزلة البدل من

---

(١) الحديث سبق تخريجه

(٢) الحديث سبق تخريجه

(٣) الحديث سبق تخريجه

الأولى، فقد سبق أن ذكرت أنها نادرة الوقوع في نسيج هذا النوع من القصص النبوي، وقد برزت في موضعين اثنين، جاء أولهما في قصة الذئب الذي كلم راعي الغنم، وذلك قوله ﷺ: " بينما راع في غنمه عدا عليه الذئب، فأخذ منها شاة، فطلبه الراعي، فالتفت إليه الذئب، فقال: من لها يوم السبع ؟ يوم ليس لها راع غيري " حيث نزلت جملة: "يوم ليس لها راع غيري "[1] منزلة بدل الاشتمال من جملة: "من لها يوم السبع"؛ لأنها غير وافية بتمام المعنى المراد؛ لاكتنازها، وغموضها نوعًا من الغموض والإبهام، ودليل هذا وقرينته من اختلاف الشراح حول المقصود بيوم السبع، فقال بعضهم: هو اسم للموضع الذي عنده المحشر يوم القيامة، أي: من لها يوم القيامة ؟ ورد هذا بأن يوم القيامة لا يكون الذئب راعيًا لها، ولا تعلق له بها أصلًا، وقال بعضهم: يوم السبع عيد كان لهم في الجاهلية يشتغلون فيه بلعبهم، فيأكل الذئب غنمهم، وقال بعضهم: المقصود به يوم الأكل، يقال: سبع الذئب الشاة إذا أكلها، وقيل: المراد به يوم الشدة، وقيل: المراد به يوم الإهمال، من أسبعت الرجل أهملته[2]، وقال النووي: والأصح ما قاله آخرون وسبقت الإشارة إليه من أنها عند الفتن حين تتركها الناس هملًا، لا راعي لها نهبة للسباع، فجعل السبع لها راعيًا، أي: منفردًا بها، وتكون بضم الباء[3].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار ص ٤٥٧، حديث ٣٤٧١، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق-رضي الله عنه ص٦٨٩، حديث ٢٣٨٨

(٢) ينظر فتح الباري ١٠/ ٤٦١

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١٥٧-١٥٨

وجاء ثانيهما في قصة أيوب عليه السلام على لسان زوجه، حين خرج لقضاء حاجته فتأخر عليها: "فاستبطأته فلقيته ينتظر، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي: بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله؟ هذا المبتلى "[1] فقد نزلت جملة: "هذا المبتلى " منزلة البدل من جملة: "هل رأيت نبي الله ؟ " كأنها غير وافية بتمام المعنى؛ بسبب ما فيها من إبهام، نشأ من ذكرها أيوب عليه السلام بوصف النبوة، وهذا الموضع وسابقه من عرض المعنى في صورتين مختلفتين تقرر إحداهما الأخرى وتؤكدها، والمقام يقتضي هذا التقرير والتوكيد؛ لما يتعلق به في الموضع الأول من غرابة، وما يثيره تكلم الذئب بلسان البشر من دهشة واستعظام، قد تدفع إلى الإنكار أو الشك، وقرينة هذا من سياق الحديث نفسه بعد ذلك في قوله: " فقال الناس: سبحان الله ! ذئب يتكلم، قال: فإني أومن بذلك وأبو بكر وعمر".

وما يتعلق به في الموضع الثاني من دلالة على شهرة أيوب – عليه السلام – بوصف البلاء حتى صار علمًا فيه، ولا يعرف إلا به، وذلك من طول مدته، وفرط شدته، وظهور أثره، وقرينة هذا من عدم تعرف زوجه عليه، لما أذهب الله عنه ما به من البلاء، وذلك على النحو الذي كشف عنه نسق القصة الكريمة.

---

(١) الحديث سبق تخريجه

الصورة الخامسة
التوكيد بضمير الشأن أو القصة

التعبير بضمير الشأن أو القصة من أساليب خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر التي يعمد إليها المتكلمون لتقرير معانيهم، وتوكيد أغراضهم؛ إذ الأصل في الضمير أن لا يذكر إلا وقد سبقه ما يعود إليه؛ ليكون المقصود من الكلام واضحًا من غير لبس أو تعمية، حتى لا يصطدم بالعقل، إلا أن هذا الأصل ينخرم في ضمير الشأن، حيث يذكر الضمير دون أن يسبقه ما يعود إليه؛ ليفسر بمتأخر عنه، أو يذكر غير مفسر؛ اعتمادًا على فهم السامع وحسن تبصره بمواقع الكلام، أو اعتمادًا على وضوح المعنى وظهور المراد منه؛ بادعاء أنه حاضر في القلب، ولا يغيب عن الخاطر(١).

وإخراج الضمير هذا المخرج يمثل حركة نفسية وشعورية تجعل المعنى أعلق ما يكون بالقلب، وأرسخ ما يكون في الوجدان؛ بسبب ما فيه من إبهام مثير، ومخاتلة فكرية تمتع الذهن والحس، وتفتح للمعنى منافذ القلوب ومساربها.

وقد سبق أن نبه علماؤنا على ذلك، وكشفوا عن مناشيء تلك الحركة النفسية التي أثارها الضمير، فذكروا أنه إنما وضع الضمير في (هو زيد عالم – هي عمرو شجاع) مكان الشأن أو القصة؛ لأجل أن يتمكن المعنى في ذهن السامع؛ فإن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقي منتظرًا عقبى الكلام كيف تكون، فيتمكن المسموع بعده في الذهن فضل تمكن؛ لأنه أتى بعد انتظار وتشوق، والشيء إذا أتى بعد انتظار له، وتشوق إليه، كان أوقع في النفس؛ لأن حصول العلم بعد التشوق فيه لذة العلم، ودفع ألم الشوق، وهذا هو السر

---

(١) ينظر خصائص التراكيب، د/ محمد أبو موسى، صـ ٢٤٤.

في تقديم ضمير الشأن أو القصة[1].

ولما يتحقق به من توفر عنصر المفاجأة؛ بإمالة الكلام عما يقتضيه ظاهر الحال، وذلك من شأنه أن يزيد من انتباه السامع لما يلقى إليه، ويجدد من نشاطه وتطريته، فيتقرر المعنى لديه، ويثبت عنده[2].

والناظر في القصص النبوي عن بني إسرائيل يتبين له أنه قد اتكأ في تقرير معانيه، وتحقيق أهدافه، وتثبيت مضامينه على ضمير الشأن أو القصة في بعض المواضع القليلة، التي لم تتجاوز- حسب إحصاء البحث واستقرائه - أربعة مواضع، جاء اثنان منها في بنيان قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار[3] وذلك في مستهل القصة على لسان الثلاثة: "فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم "، وفي وسطها من قصة الثاني الذي أحب ابنة عمه حبًا شديدًا: "اللهم إنه كان لي ابنة عم، كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء "، وذلك مكان الشأن أو القصة؛ إذ مقتضى الظاهر أن يقال: الشأن أو القصة أنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، والشأن أو القصة أنه كانت لي ابنة عم كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء، لكنه عدل عن ذلك إلى ما جاء عليه نسق القصة الكريمة، أما في الأول فللمبالغة في تفخيم الأمر وتعظيمه، وتقريره وتمكينه، والحث بقوة على أخذه على محمل الجد، والتشمير عن ساعد الإخلاص،

---

(١) ينظر الإيضاح للخطيب القزويني ص ٤٢، وشروح التلخيص ١/ ٤٥١، كما ينظر خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى ص٢٤٢.

(٢) ينظر الحديث النبوي من الوجهة البلاغية د/ عز الدين علي السيد ص ٣٣٧

(٣) الحديث سبق تخريجه.

والمقام يقتضي هذه المبالغة؛ إذ هو في رجاء تحقق الأمر المحبوب الذي تبدو عليه أمارات الاستحالة؛ لتعلقها بأمر عظيم، هو الإنجاء من الصخرة التي انحدرت من أعلى الجبل، فسدت عليهم باب الغار، وقد أيسوا من النجاة، وإخراج الكلام مخرج ضمير الشأن يزيد من عظم الرجاء وقوته، وينبئ عن شدة تعلق النفس بتحققه.

وأما في الثاني فللمبالغة -أيضًا- في تفخيم حبه ابنة عمه وتعظيمه، وتقريره وتمكينه؛ لما في الضمير من إبهام تتشوق النفس معه إلى الإيضاح والتفسير، والمقام -أيضًا- يقتضي هذا التفخيم والتعظيم، والتقرير والتمكين؛ لدلالته على شدة خلوص عمله، وعظم مراقبته لله -تعالى- حين قام عن ابنة عمه بعد تمكنه منها، وهي أحب الناس إليه، وهذا -لا شك- أدعى إلى تحقق رجائه، واستجابة دعائه.

وأما الموضع الثالث والرابع فقد جاء أولهما في قصة العابد الذي علقته امرأة غوية، وذلك في قوله ﷺ: " اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن خلا قبلكم تعبد، فعلقته امرأة غوية"(١)، وجاء ثانيهما في قصة العالم الذي وعظته امرأة: "إنه كان في بني إسرائيل رجل فقيه عالم عابد مجتهد، وكانت له امرأة"(٢) الحديث. أي: الشأن أنه كان رجل ممن خلا قبلكم تعبد، والقصة أنه كان في بني إسرائيل رجل فقيه عابد..." وذلك في القصتين للمبالغة في تفخيم الأمر وتعظيمه، وتقرير المعنى وتمكينه؛ على نحو ما سبق في الموضعين الأولين.

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

أما في القصة الأولى فللمبالغة في تفخيم الأمر باجتناب الخمر وتعظيمه، وتقريره وتمكينه؛ بتفخيم وتعظيم شأن هذا العابد الذي كان شرب الخمر سببا في ارتكابه الموبقات كلها، وذلك على النحو الذي جاء مفصلا في نسق القصة الكريمة.

وخروج الكلام مخرج المبالغة بإيثار ضمير الشأن هو الذي يتناغم مع المقام، ويتطابق مع مقتضى الحال؛ لدلالتها على خطورة الأمر، وفداحة الخطب، وندائها على أن شرب الخمر ومعاقرتها قد بلغ في الشر والفساد الغاية، وأربى على النهاية وقرينة هذا من تسمية النبي ﷺ إياها أم الخبائث في مطلع القصة الكريمة.

وأما في القصة الثانية فللمبالغة في تعظيم شأن هذا الرجل في العلم والفقه؛ والعبادة والاجتهاد وتضخيم أمره، وصولا من ذلك إلى تعظيم دور المرأة التي وعظت هذا العالم وتفخيمه؛ لما كان لوعظها إياه من أثر كبير في نفعه، ونهوضه من كبوته.

ولا شك في أن إخراج الكلام في هذا المعرض من المبالغة في التقرير والتوكيد، والتفخيم والتعظيم بإيثار الضمير مما تقتضيه مقامات الوعظ والتذكير، وذلك حتى يؤتى الوعظ أكله، ويثمر التذكير تمرته؛ لدلالته على أن الواعظ جاد فيما يعظ به، حريص على نفعه، قمن بامتثاله، وسرعة إذعان المنصوح واستجابته له.

الصورة السادسة
التوكيد بأسلوب التمثيل

التمثيل له دور كبير، وقيمة كبرى في تجلية المعاني وإبرازها، وتقريرها وتوكيدها، باعتباره وسيلة إحضار صورة الممثل له في ذهن السامع ونفسه، فهو من وسائل كشف المعنى، ورفع الحجب عنه، فبالمثل يرى السامع الأمر المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والمعقول في ثوب المحسوس، والغائب كأنه مشاهد، فتتجلى بذلك غياهب الأوهام، ويرتفع شغب الخصام"(١)

والتمثيل الذي أرمى إليه بالحديث- هنا- هو الذي يأتي في أعقاب المعاني خاصة، لإيضاحها وتقريرها، وإيداعها التأثير المطلوب، فإن له في البلاغة شرفًا وقدرًا، وفخامةً ونبلًا، وقد اتفق العقلاء على أن تعقيب المعاني به يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحًا كانت أو ذمًا، أو افتخارًا، أو غير ذلك، ويمكنها لديها، ويحببها إليها، ويوفر أنسها بها(٢)، وذلك لقيامه- أولا – مقام الدليل والبرهان على صحة المعنى وسلامته، ولأن مبناه- ثانيًا- على الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال، فهو عرض للمعنى في لباسين مختلفين يقرر أحدهما الآخر ويؤكده.

والناظر في القصص النبوي عن بني إسرائيل يجد أن هذا القصص قد اتكأ في تقرير معانيه، وترسيخ مضامينه، وتحقيق غاياته وأهدافه على هذه

---

(١) ينظر: أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر صـ ١٠٨ وما بعدها، تحقيق: ه. ريتر، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م، وبيان التشبيه. دراسة تاريخية فنية د/عبد الحميد العيسوي صـ٣٤٦، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

(٢) ينظر: أسرار البلاغة صـ(١٠١، ١٠٢).

الوسيلة التقريرية في مواضع قليلة، وفي قصة واحدة، هي قصة الكلمات الخمس اللاتي أمر الله نبيه يحيى بن زكريا – عليهما السلام– أن يعمل بهن، وأن يبلغهن بني إسرائيل ليعملوا بهن(١).

ومرد ذلك– من وجه – إلى طبيعة هذه الكلمات التي عالجتها القصة نفسها، فهي في مجملها تمثل أصول الدين وثوابته التي لا تتغير ولا تتبدل، كالتوحيد، والصلاة، والصدقة، والصيام، والذكر، وهذه المعاني من الأهمية بمكان؛ إذ تمثل أصول الاعتقاد والعمل، ولذلك كانت في حاجة ماسة إلى تقرير زائد، وتوكيد بالغ، حتى تثبت في القلوب، وتستقر في أعماق النفوس.

وإلى طبيعة النفوس المأمورة بهذه الكلمات الخمس من وجه آخر، وهم بنو إسرائيل، فإن مقتضى حالهم في اللجاج والجدل، والعناد والتمرد، وصعوبة المراس، وكثرة الاختلاف على الأنبياء يقتضى إخراج الكلام مخرج التقرير والتوكيد، والتحقيق والتشديد، فبنى النسق على ضرب المثل في إثر كل أمر؛ ليقطع أمامهم كل سبيل للتنصل، ويدفع عنهم كل شبهة وذريعة للمراوغة والمشاكسة، ويبالغ في تقرير المعنى وتوكيده، وتمكينه وتثبيته.

وتفصيل ذلك من سياق القصة أن الأمر الأول جاء بالتوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده، ونفي الشرك عنه، في قوله ﷺ:"قال:إن الله أمرني بخمس

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه، في أبواب الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ٢٨٦٣/٥، وابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق، ذكر تشبيه المصطفى ﷺ عيسى بن مريم بعروة ١٢٤/١٤، حديث ٦٢٣٣. والمستدرك على الصحيحين للحاكم ٣٦٢/١، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا. الطبعة الأولى١٩٩٠–دار الكتب العلمية بيروت.

كلمات أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن، أولاهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، ثم جاء التمثيل في أثره مقررًا ومؤكدا، وموضحًا ومبيناً:" وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو ورق، قال: هذه داري، وهذا عملي، فاعمل وأد إلي، فجعل يعمل ويؤدى إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك".

وجاء الأمر الثالث بالصيام في قوله:-"وآمركم بالصيام"، ثم جاء التمثيل في عقبه، على النحو السابق مقررًا مؤكدًا، في قوله" وإن مثل ذلك كمثل رجل كانت معه صرة فيها مسك، ومعه عصابة كلهم يعجبه أن يجد ريحها، وإن الصيام أطيب عند الله من ريح المسك".

وجاء الأمر الرابع بالصدقة في قوله:-"وآمركم بالصدقة" ثم جاء التمثيل في عقبه-أيضًا-على هذا النحو:-"وإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، وقاموا إليه فأوثقوا يده إلى عنقه فقال: هل لكم أن أفدي نفسي منكم؟ قال: فجعل يعطيهم القليل والكثير ليفك نفسه منهم".

وجاء الأمر الخامس بالذكر في قوله:-" وآمركم بذكر الله كثيرًا"، ثم جاء التمثيل في أثره مباشرة في قوله:" وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعًا في أثره، حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه فيه، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله"، فإن إيلاء التمثيل هذه الأوامر كلها على النحو السابق تفصيله ينادى على أهميتها، وينطق بعلو قدمها في الفضل والمكانة، وينبئ عن خطورة التهاون بها، والتفريط فيها، وهذا في مقامات التكليف والتشريع أحق وألزم، وأولى وأجدر؛ لتكون النفوس على امتثاله أحرص، وللاستجابة إليه أسرع؛ لقيامه مقام الدليل والبرهان الذي ينفي عن الحكم كل شبهة، ويدرأ عنه كل شائبة من شك أو تردد أو إنكار، وهذا أدخل في التحقيق، وأقوى في التقرير والتأكيد، وهذا كله هو حقيقة ما نص عليه عبد

القاهر، وخلاصة ما فصل القول فيه في كتابه أسرار البلاغة، وذلك في الفصل الذي عقده للتمثيل خاصة[1].

(١) ينظر: أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر صـ ١٠١، وما بعدها.

المحور الخامس
التوكيد بأساليب المفاجأة

يعد عنصر المفاجأة عنصرًا حيًا وفاعلًا في نسيج الكلام وبنيان التراكيب، وذا أثر بالغ في تقرير مضامينها وتوكيده؛ لأن المعنى يظهر به في صورة غير متوقعة، ويخرج في معرض غير معرضه، ولفظ غير لفظه، فيبدو في رداء غير مألوف، وثوب غير معتاد، وهذا ما يثير نحوه التنبه، ويطري النشاط، ويستميل الإصغاء، ويبعث العقل على التفكير والتأمل في اللفظ المعروض عليه، والمعنى المراد منه، فإذا علمه بعد ذلك تأكد لديه، وتثبت عنده(١).

وقد اتكأ البيان النبوي في سياقات قصص بني إسرائيل على بعض الأساليب التي يتحقق فيها عنصر المفاجأة بشكل واضح، وذلك كأسلوب الالتفات، ووضع المظهر موضع المضمر وعكسه، وأسلوب الاعتراض، وأسلوب المفارقة، وغير ذلك من الأساليب التي يمثل هذا العنصر معلمًا بارزًا من معالمها، وخصيصة مطردة من خصائصها، مما سيعرض له البحث بالدراسة والتحليل في الصفحات الآتية بمشيئة الله تعالى.

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري ١/١٤، ودراسات منهجية في علم البديع. د/ الشحات أبو ستيت صـ١٤٩

الصورة الأولى
التوكيد بأسلوب الالتفات

الالتفات من أبرز الأساليب التي يتحقق فيها عنصر المفاجأة على نحو لافت؛ إذ هو في الأصل انتقال من أسلوب إلى آخر، وتحول من طريقة في الخطاب إلى طريقة أخرى(١)، وهو كغيره من أساليب هذا المحور وصوره نادر الوقوع في القصص النبوي عن بني إسرائيل، ومرد الأمر في ذلك إلى طبيعة القصص نفسه، إذ يحمل في ذاته وسمته من عناصر الجذب وعوامل الإثارة ما يستغنى به عن الإكثار من مثل هذه المثيرات.

وقد تتبعت كثيرًا من القصص النبوي عن بني إسرائيل في كتب السنة للوقوف على بعض مواضع هذا الأسلوب في هذا النوع من القصص فلم يتسن لي الوقوف إلا على موضعين اثنين كان للالتفات فيهما دور كبير في إثراء المعنى، وتكثيف الدلالة، وإثارة تفاعل المتلقي مع الأحداث والمواقف، وهو ما يعود على المعنى في نهاية المطاف بالتقرير والتوكيد، والتمكين والتثبيت، وذلك كالذي تجده في قول النبي ﷺ في قصة الرجل الذي قتل مائة نفس: "فدل على عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى كذا فإن بها أناسًا يعبدون الله-تعالى-فاعبد الله معهم(٢)، حيث التفت-هنا- من الغيبة في قوله: "ومن يحول بينه وبين التوبة؟"

---

(١) إذ هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة، التكلم، والخطاب، والغيبة، بعد التعبير عنه بإحدى هذه الطرق. ينظر: الإيضاح للخطيب القزويني صـ٤٣، والمطول لسعد الدين التفتازاني ٢٨٦/٢٨٧.

(٢) البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار صـ٤٥٧، حديث ٢٣٤٧٠، ومسلم في كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل صـ ٧٨٦،٧٨٧، حديث ٢٧٦٦.

إلى الخطاب في قوله: "انطلق إلى أرض كذا فإن بها أناسًا يعبدون الله-تعالى- فاعبد الله معهم".

إن الالتفات من الغيبة إلى الخطاب-هنا- كأنه إيذان بانتهاء مرحلة من مراحل حياة هذا الرجل المسرف على نفسه في القتل، وإعلام بانقضاء طور من أطوار عمره، وغيابه في غياهب الزمن، ودياجير الماضي، والإقبال على مرحلة جديدة، والانتقال إلى طور آخر، وحياة أخرى يسودها الطهر، وتغمرها الطاعة، وتغسلها التوبة، وتنأى بنفسها بعيدًا-هناك-إلى أرض طيبة، وتربة خصبة، تنقطع فيها عن كل علائق الماضي، وتتخلص من رواسبه، وتتطهر من أدران المعصية وأوساخها.

ومن وجه آخر فإن إجراء الكلام على الغيبة أولا-دلالة على إعراض العالم عنه، وإشاحته بوجهه عن النظر إليه، إذ كان ما يزال على المعصية، لم يعلن توبته، فلما عزم على التوبة بين يدي العالم، وأبدى شدة ندمه انتقل من غيابة البعد إلى ساحة الحضور، ومشهد القرب، فأقبل العالم بوجهه- بعد الإشاحة-إليه، وخاطب قائلًا: "انطلق إلى أرض كذا....".

هذا إلى جانب ما في هذا الالتفات من إيحاء قوي بفقه هذا العالم، وبصره بطبائع الرجال؛ فلم يواجه هذا القاتل المسرف بالإنكار، والزجر، والتعنيف صراحة، وإنما أخرج كلامه مخرج الاستفهام والغيبة في قوله: "ومن يحول بينه وبين التوبة؟ حتى لا يفرط منه تجاه العالم مثلما فرط منه تجاه الراهب، فلما اطمأن إلى توبته، وصدق ندمه توجه إليه مخاطبًا: "انطلق إلى أرض كذا.....؛ حثًا له على المسارعة، وتهييجًا له إلى المبادرة، وسرعة الانتقال من أرض السوء إلى الأرض الطيبة، ومن ضنك المعيشة وسوء الحال، إلى طيب الحياة، وسعة الطاعة، ولا شك في أن هذا كله مما يصب في خدمة الغرض الذي سيقت له القصة ويؤكده، ويضرب على أوتاره بقوة.

والموضع الثاني جاء في قول النبي ﷺ في قصة الثلاثة المبتلين: الأبرص، والأقرع، والأعمى، وعلى لسان الملك خاصة:- فقال: رجل مسكين، وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك"(١)، فقد جرى كلام الملك-أولًا-في قوله:" رجل مسكين وابن سبيل" على طريق الغيبة، بقرينة قوله قبله في سياق القصة: "ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته"، ثم انزاح عنها، وتحول إلى طريقة التكلم في قوله: "انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك... " ؛ لأنه الأبلغ في إظهار مسكنته، وتقرير مسغبته، الأقوى في تصوير شدة ضعفه، وعظم افتقاره، وفرط حاجته، لتتعانق كل هذه الدلالات على تحقيق مطلوبه من المسئول، وترقيق قلبه عليه، وإدخال الشفقة فيه نحوه، وهذا في مقام الابتلاء أوفق، وبمقتضى الحال ألصق، لانتقاء العذر به وإزالة الشبهة والشك من قلوبهم حوله.

ثم إن في هذا الالتفات دلالة على أهمية هذا المقطع من مقاطع الكلام في القصة، وأنه جدير بالعناية، وأن تنصرف نحوه الأذهان، وتستثار نحوه الأفهام؛ إذ تتمحض عنده القصة لتصوير طبيعة الابتلاء الذي ابتلى به الثلاثة وجنسه، وهو المعنى المحوري التي تدور حوله أحداث القصة من بدايتها إلى نهايتها.

(١) الحديث سبق تخريجه.

الصورة الثانية
التوكيد بوضع المظهر موضع المضمر

يدور وضع المظهر في موضع المضمر في كثير من سياقاته على تقرير هذا المظهر وتمكينه في القلوب؛ وذلك لخصوصية ترجع إلى طبيعته الدلالية نفسها، وما تفيض به من إشعاعات وفيوضات على المعنى والغرض، وتتولد من الاسم الظاهر حين يقرع السمع بجرسه، وارتباطاته المختلفة التي اكتسبها في قصته الطويلة مع الكلمات والأحداث والمواقف(١).

والذي يراجع القصص النبوي عن بني اسرائيل يجد أن هذا النوع من الوسائل التقريرية يمثل إحدى سماته البارزة التي يتكئ عليها في تحقيق غاياته وأهدافه، وتثبيت معانيه؛ لكثرة دورانه فيه، فقلما تخلو منه قصة من هذا النوع من القصص، إلا أن البحث سوف يكتفي بالوقوف مع موضعين اثنين تجلى فيهما هذا المعنى بشكل ملحوظ وعلى نحو لافت.

أما أولهما فقد جاء في سياق قصة موسى والخضر-عليهما السلام-في قوله ﷺ: فانطلقا فإذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه من أعلاه، فاقتلع رأسه بيده"(٢)، حيث كان مقتضى الظاهر أن يقال: "فاقتلعها بيده" ويعود الضمير إلى الرأس، ويؤدي ما يؤديه الاسم الظاهر من حيث الدلالة النحوية، أو الدلالة المنطقية، لكن يبقى لكلمة "رأسه" وهي المظهر الذي وضع موضع المضمر- من الدلالات والخواطر النفسية ما لا ينهض به الضمير، ولا يؤديه

---

(١) ينظر:الإيضاح للخطيب القزويني صـ٤٣، والمطول لسعد الدين التفتازاني صـ ٢٨٥، وخصائص التراكيب. د/ محمد أبو موسى صـ ٢٤٨.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى ﷺ=صـ٤٤٥،٤٤٦، حديث ٣٤٠٠.

لو وضع موضعه، إذ فيه زيادة تقرير وتمكين لأن كان القلع من جذر الرأس، وأن القتل تم باقتلاعها من أصلها، وهذا من زيادة التشنيع والتهويل لما فعله الخضر، وأقدم عليه في حق الغلام، بحسب الظاهر، والتصوير لغاية فظاعته، وفرط شدته وصعوبته، حتى جابهه موسى عليه السلام مجابهة قوية، تنم عن غضب بالغ، وسخط حانق، وانفعال شديد موار.

وهو من وجه آخر يفسر لنا جانبًا من خروج-موسى عليه السلام- في الإنكار على الخضر، وتقريعه وتعنيفه عن الحد الذي كان في قصة خرق السفينة.

وأما ثانيهما فقد جاء في قصة الرجل الذي خسف به الأرض من كبره وخيلائه، وذلك في قوله ﷺ: "بينما رجل ممن كان قبلكم يمشي قد أعجبته جمته وبرداه إذ خسف به الأرض، فهو يتجلجل في الأرض حتى تقوم الساعة"، والجلجلة: حركة مع صوت، قال ابن فارس: التجلجل أن يسوخ في الأرض مع اضطراب شديد، ويندفع من شق إلى شق، فالمعنى: يتجلجل في الأرض، أي: ينزل فيها مضطربًا متدافعًا".(١)

وكان مقتضى الظاهر أن يقال: فهو يتجلجل فيها حتى تقوم الساعة"، لكنه أعيد ذكر "الأرض" بالاسم الظاهر في مقام التحذير من الكبر والخيلاء، والعجب والغرور على غير توقع، لأنه في هذا المقام لا محيص عنه؛ لما فيه

---

(١) الحديث سبق تخريجه

ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد، (جلجل) ١٨٤/١، تحقيق: رمزي منير بعلبكي-ط/ الأولى ١٩٨٧-دار العلم للملايين، بيروت، ومقاييس اللغة لابن فارس جلجل ٤١٨/١، وفتح الباري لابن حجر ٢٦١/١٠.

من المبالغة في تأكيد التحذير وتمكينه، وتقريره وتثبيته؛ لدلالته على استقرار هذا المختال في باطن الأرض، وتمكنه فيها، وندائه على ذهابه هناك في أعماقها البعيدة، وقرارها المكين، وهذا من فرط هوانه وحقارته، وغاية تسفله ووضاعته، والجزاء من جنس العمل، فقد استعلى على الناس بكبره وخيلائه، فعوقب بالخزي والإهانة، وهذه الدلالات كلها من خصوصيات التعبير بالاسم الظاهر، وهو ما لا ينهض به الضمير، ولا يقوم بأدائه.

الصورة الثالثة
التوكيد بأسلوب الاعتراض

الاعتراض من الأساليب التي تمثل المفاجأة عنصرًا بارزًا في طبيعته، ووجهًا من وجوه حسنه وجودته، وضربًا من من ضروب تأثيره، وتأكيد هذا من كلام العلماء حول بيان أثره وقيمته، فقد ذكروا أن وجه أبلغية الاعتراض يكمن في حسن الإفادة، مع أن مجيئه مجيء ما لا يترقب، فيكون كالحسنة أتتك ولم ترتقبها، والنافلة أتتك ولم تحتسبها"(١).

ومن تصورهم لمفهومه؛ إذ هو كما عرفوه–الإتيان في أثناء الكلام، أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب؛ لنكتة سوى دفع الإيهام(٢)، ومرجعه إلى تأكيد الغرض المسوق له الكلام، ولذلك يقول ابن جني: "هو جار عند العرب مجرى التأكيد، فلذلك لا يشنع عليهم، ولا يستنكر عندهم...."(٣).

والمتأمل في القصص النبوي عن بني إسرائيل يجد أن الاعتراض قد أسهم في مواضعه التي جاء فيها في إحداث نوع من الزلزلة النفسية، والعاصفة الوجدانية التي تعمل على إثارة التنبه والإيقاظ، وبعث النشاط والفكر، وصولًا من وراء ذلك إلى تقرير المعاني وتوكيدها، وتحقيق الغايات والأهداف التي يبغيها البيان النبوي من وراء هذا القصص.

---

(١) ينظر: التبيان في البيان للطيبي ٤٩٤،٤٩٥، تحقيق: د/عبد الستار حسين زموط، ط/ الأولى ١٩٩٦–دار الجيل–بيروت.

(٢) ينظر: التبيان في البيان الطيبي صـ ٤٩٤، وشروح التلخيص ٢٣٧/٣

(٣) الخصائص لابن جني ٣٣٥/١

وأكثر صور الاعتراض دورانًا في هذا المقام هو الاعتراض بالقسم، بإيثار الواو من حروفه، ولفظ الجلالة "الله" من أسمائه سبحانه في المقسم به خاصة، وفي أثناء الكلام الواحد في الغالب؛ وذلك لتأكيد الغرض، وتقرير مضمون الكلام وتمكينه، وذلك كقوله ﷺ في قصة أصحاب الأخدود بعد أن قتل الملك الغلام، وآمن الناس كلهم بالله رب الغلام:-"فأتى الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس"(١)، وقوله ﷺ في قصة إمام الصابرين أيوب عليه السلام على لسان أحد الرجلين اللذين كانا من أخص إخوانه:-"فقال أحدهما لصاحبه: أتعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد"(٢)، وقوله في قصة موت نبي الله دواد عليه السلام-وذلك على لسان داود نفسه، حين نعت الرجل الداخل داره من دون إذنه نفسه إليه: "فقال داود: أنت والله ملك الموت، فمرحبًا بأمر الله"(٣)، وقوله في قصة نبي الله يونس عليه السلام- من حوار دار بينه وبين أصحاب السفينة:-"فلما دخل السفينة ركدت، والسفن تسير يمينًا وشمالًا، فقال: ما بال سفينتكم؟ قالوا: قالوا ما ندري، قال:" ولكني أدري، إن فيها عبدًا أبق من ربه، وإنها والله لا تسير، حتى تلقوه، قالوا: أما أنت والله يا نبي الله فلا نلقيك"(٤)، وغير ذلك من المواضع التي تجد الاعتراض بالقسم فيها-على النحو المفصل سلفًا- قد جاء على غير المتوقع، ومن دون ترقب في أثناء الكلام الواحد؛ لتأكيد المعنى، وتقرير الغرض المسوق له الكلام وترسيخه؛ لأن المقام يتطلب تقريرًا وتوكيدًا، وتمكينًا وتثبيتًا،

---

(١) الحدي سبق تخريجه

(٢) الحديث سبق تخريجه

(٣) الحديث سبق تخريجه

(٤) الحديث سبق تخريجه

أما في قصة أصحاب الأخدود:"قد والله نزل بك حذرك" فللتنبيه على خطورة الأمر، والنداء على بالغ صعوبته، وأنه مما ينبغي أن يؤخذ على محمل الجد، حتى لا ينفلت الزمام من بين أيدي الملك وأعوانه، ويخرج الأمر عن حدود السيطرة، فقد آمن الناس بالله رب الغلام، بعد ما رأوا هزيمة الملك، وشاهدوا عجزه وضعفه، ودليل هذا من سياق القصة بعد ذلك، فقد جاء الأمر بعده مباشرة بخد الأخاديد وشقها، وإشعال النار فيها:" فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخدت، وأضرم فيها النيران".

وأما في قصة بلاء أيوب–عليه السلام–فإن مقالة أحد الرجلين لصاحبه في أيوب –عليه السلام –:"أتعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد...مما تدفع وتنكر، ومما لا تخطر لصاحبه على بال، فحاول القائل أن يروج مقالة الزور هذه عنده، وأن يزجيها لديه بإثارة تنبهه، واستثارة حسه بهذا الاعتراض: "والله" الذي خرج مخرج التقرير والتوكيد، حرصًا منه على قبول صاحبه إياها، وإقرارها في عقله ووجدانه، ودليل هذا أن صاحبه لم يصبر عليها، فأخبر بها أيوب –عليه السلام–وذلك على النحو الذي كشف عنه نسق القصة بعد ذلك وعلى هذا يمكن قياس سائر المواضع المذكورة في التفصيل والتحليل.

وقد يخرج الاعتراض مخرج الدعاء بين كلاميين متصلين معنى، وذلك كقوله ﷺ في قصة المرأتين اللتين عدا الذئب بابن إحداهما، فتحاكمتا إلى داود –عليه السلام – فقضى للكبرى بالغلام الآخر، فخرجتا من عنده فلقيهما سليمان–عليه السلام– فأخبرتاه الخبر، فقال: "ائتوني بالسكين أشقه بينهما،

فقالت: الصغرى لا تفعل-يرحمك الله- هو ابنها، فقضى به للصغرى"[1]، فإن جملة "يرحمك الله" وقعت معترضة بين النهي وعلته، وهو اعتراض دعاء، لزيادة تأكيد النهي عن فعل الشق وتمكينه، وترسيخه وتثبيته، وهذا التقرير والتأكيد مما يقتضيه مقام الأمومة، وينادي عليه؛ لدلالته على شدة شفقتها على الطفل، وعظيم خوفها عليه، وفرط لهفتها وحرصها على حياته، وإن اقتضى ذلك أن تتنازل عنه للأخرى، ولذلك حكم لها سليمان-عليه السلام-بالغلام، وذلك على خلاف ما حكم به داود عليه السلام.

وقد يرتدي الاعتراض ثوبا غير الذي ارتداه في الصورتين السابقتين، ويبرز في معرض غير معرضهما، وذلك كالذي جاء في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، وعلى لسان الأول خاصة:"...فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظها، وأن أغبق قبلهما أهلا ومالًا، فلبثت- والقدح على يدي- أنتظر استيقاظهما، حتى برق الفجر..."[2]، فجملة" والقدح على يدي" وقعت معترضة بين الحال وصاحبها، وقد جيء بها لتأكيد أنه لم يسق قبل والديه أهلًا ولا مالًا، وتقرير أنه ظل واقفًا عند رأسيهما، منتظرًا استيقاظهما، وهذا في مقام الضيق أدعى إلى تحقق رجائه، واستجابة دعائه؛ لدلالته على عظيم بره بوالديه، وفرط إحسانه إليهما، وغاية حنوه عليهما، وهذا من إخلاصه وتقواه، رغم صعوبة الأمر، وشدة المشقة على النفس، مع ثبوت العذر، وارتفاع الحرج عنه؛ بسبب نوم والديه.

---

(١) الحديث سبق تخريجه

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار صـ٤٥٦، حديث ٣٤٦٥، ومسلم في= =كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال ٧٧٩،حديث٢٧٤٣.

الصورة الرابعة
التوكيد من طريق المجازاة ببينا أوبينما خاصة

بينا أو بينما من الوسائل التي تفيد اهتمام المتكلم بخبره، وتنبئ عن علو شأنه عنده، وتنادي على فرط حفاوته به، وذلك لتلبسها بعنصر المفاجأة أو المباغتة التي تأخذ بتلابيب المتلقي وضبعيه، وتجذبه بقوة، وتستميل إصغاءه بشدة لما يقص عليه، وتطري نشاطه، وتدفع عنه السهو والغفلة، وهذا من شأنه أن يقرر المعنى في نفسه، ويمكنه من قلبه.

وإنما اكتسبت "بينا، أو بينما" هذه السمة لما في الابتداء بهما من الإعلان من أول وهلة عن طبيعة القول ومقصود الكلام؛ لأن لها حكم الصدارة فيه(١)

ولدلالتها على الظرفية الماضوية التي تشير إلى وعاء الزمن الذي وقع فيه الحدث وتعينه، إذ هي ظرف للزمان الماضي، وتلزم الإضافة إلى الجمل خاصة اسمية كانت أم فعلية، وذلك من زيادة "ما" الكافة في "بينما"، أو من الألف المتولدة من إشباع فتحة النون في" بينا"(٢).

ولإشرابها معنى الشرط الذي يتطلب جوابًا لا يتم المعنى ولا تكتمل الفائدة إلا به(٣).

---

(١) ينظر أحاديث رؤى النبي ﷺ دراسة بلاغية تحليلية. د/مصطفى نجاح عبد العزيز عيسى٢/٦٠٧، بحث منشور بحولية كلية اللغة العربية بالمنصورة–العدد السابع والثلاثون ٢٠١٨م

(٢) ينظر الكافية بشرح الرضي ٢/ ١١١٣،١١٤

(٣) نفس المرجع ٢/١١٤

ويتعمق معنى المفاجأة فيهما ويزداد تلبسه بهما إذا دخلت "إذ وإذا " الفجائيتن في جوابهما، لدلالتهما على اقتران الجواب بالشرط، وحصول مضمونه على نحو مفاجئ، وبلا تراخ، فيكون آكد في معنى اللزوم.(١)

وإذا كان جوابهما فعلًا ماضيًا، لدلالته على تحقق الوقوع وثبوته، والجزم بحصوله.

وإذا وليها المسند إليه، متقدما على خبره الفعلي خاصة؛ لما في إخراج الكلام هذا المخرج من مزيد تنبيه وتمهيد، وتوطئة وإعلام به قبل الحديث عنه، فإذا جاء الخبر بعد ذلك دخل على القلب دخول المأنوس به، المطمئن إليه، وهذا أدخل في التحقيق، وأنفى للشبهة عنه، أوحين تقعان في مفتتح القصص النبوي، لما في الابتداء بهما على هذا النحو من براعة الاستهلال، ومن المقرر بلاغة أن الابتداء إذا كان لائقًا بالمعنى الوارد بعده توافرت الدواعي على استماعه والإنصات إليه(٢).

وإن شئت دليلًا على ذلك فراجع قول النبي ﷺ في مطلع قصة المرأة البغي التي سقت كلبًا فغفر الله لها: "بينما كلب يطيف بركية(٣)، قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها فاستقت له به، فغفر لها به"(٤)، وراجع قول النبي ﷺ في مفتتح قصة اغتسال نبي الله أيوب عليه السلام

---

(١) ينظر المرجع السابق. ١١٤/٢

(٢) ينظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير٢/٢١٠، تحقيق: الشيخ كامل محمد محمد عويضة، الطبعة الأولى١٩٩٨م، دار الكتب العلمية–بيروت.

(٣) يطيف بركية:أي يدور ببئر، والركية هي البئر والذمَّة القليلة الماء. لسان العرب(ركا) ١٧٢٢/٣

(٤) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار ٤٥٦، حديث ٣٤٦٧،ومسلم في كتاب السلام، باب فضل سقى البهائم المحترمة وإطعامها صـ ٦٥٤، حديث ٢٢٤٥.

عرياناً: "بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثي في ثوبه"(١)، وقوله ﷺ في استهلال قصة الرجل الذي خسف به الأرض من كبره وخيلائه: "بينما رجل ممن كان قبلكم يمشي، قد أعجبته جمته(٢)وبرداه(٣)، إذ خسف به الأرض، فهو يتجلجل في الأرض، حتى تقوم الساعة"(٤)، وقوله ﷺ في قصة الراعي الذي عدا الذئب على غنمه: "بينما راع في غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منها شاة، فطلبه الراعي، فالتفت إليه الذئب، فقال: من لها يوم السبع؟ يوم ليس لها راع غيري؟"(٥)، وقوله ﷺ في قصة الثلاثة المتكلمين في المهد: "وبينما صبي يرضع من أمه، فمر رجل راكب على دابة فارهة، وشارة حسنة، فقالت أمه:اللهم اجعل ابني مثل هذا....."(٦)، وغير ذلك من المواضع التي كان لتعانق ظرفي الزمان "بينما، وبينما" اللذين أشربا معنى الشرط مع غيرهما من الوسائل التي سبق أن أشار البحث إليها في هذا القصص دور كبير، وأثر بارز في إحداث تلك الهزة النفسية، والعاصفة الوجدانية، لتلبسهما جميعًا بعنصر المفاجأة التي تستولي على مدارك المتلقي، ومنافذ الحس والشعور عنده، وتأخذ بضبعيه إلى متابعة الأحداث وترقبها حتى النهاية، وهذا من شأنه أن يعمل على تقرير المعنى وتوكيده، وتمكينه وتثبيته.

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) الجمة: هي مجتمع الشعر إذا تدلى من الرأس إلى المنكبين وإلى أكثر من ذلك، وأما الذي لا يتجاوز الأذنين فهو الوفرة. فتح الباري ٢٦١/١٠

(٣) البردان: ثوبان أحدهما فوق الآخر.

(٤) الحديث سبق تخريجه.

(٥) الحديث سبق تخريجه.

(٦) الحديث سبق تخريجه.

هذا إلى جانب أن ما يتعلق بمدخول اللفظتين من غرابة ودهشة مما يقتضي تعانق هذه الوسائل في نسق الكلام؛ زيادة في التقرير والتوكيد، والتحقيق والتشديد؛ لإزالة وحشة الغربة، وأسباب الدهشة والتعجب، وهذا الأمر أظهر من أن يستدل عليه لمن يراجع أحداث هذا القصص ومشاهده، وإن شئت بياناً لذلك فخذ قصة اغتسال نبي الله أيوب عرياناً، فإن خرور الذهب وتساقطه من السماء عليه مع هذا الحال التي كان عليها من الغرابة بمكان؛ لخروجه عن المعهود من أمر السماء التي تمطر ماء وغيثًا، ولا تمطر ذهبًا وتبرًا، فكان تعانق كل هذه الوسائل في نسق الكلام، ابتداءً بالظرف "بينًا" وما يتلبس به من معنى المفاجأة والشرط، ومرورًا بالجملة الاسمية التي أضيف إليها وتقديم المسند إليه فيها على خبره الفعلي المثبت، وانتهاءً بماضوية الجواب" خر عليه جراد من ذهب "لا بديل عنه؛ لتقرير المقام وتوكيده، وتحقيقه وتمكينه، وإزالة كافة أوجه الاستغراب والدهشة من حول هذا الخبر العجيب، ونفي الشبهة والشك عنه.

وخذ- أيضًا- قصة المرأة البغي التي سقت كلبًا لما رأته يدور حول البئر من شدة العطش، فإن ما ترتب على سقيتها للكلب من مغفرة الله -تعالى- لها، مع صغير فعلها، وعظيم جرمها أوغل في الغرابة وأبعد، وأقوى في إثارة الدهشة والتعجب وأدخل، فاقتضى المقام أن تتعانق كل هذه المؤكدات من افتتاح القصة بالظرف "بينما" خاصة، وما يتعلق به من سمات وخصائص سبق تفصيلها، ومن إضافته إلى الجملة الاسمية: "كلب يطيف بركية.." التي تقدم فيها المسند إليه على خبره الفعلي، وما وراء ذلك من دلالة، ومن دخول: "إذ" وما يتلبس بها من عنصر المفاجأة- في جواب "بينما"، ومن ماضوية فعل الجواب: "رأته بغي من بغايا بني إسرائيل"، ومن عطف الجمل التي أعقبت الجواب بالفاء خاصة: "فانتزعت موقها، فاستقت له به، فغفر الله لها به" والتي

تنبئ عن حصول مدخولاتها على وجه السرعة، ومن دون مهلة أو تراخ–في نسج الكلام، لإزالة ما يتعلق بالخبر من غرابة، ومحو ما يثـــره حولـــه مـــن دهشة، تقريًا وتمكيناً له في النفوس، والوصول من وراء ذلك كله إلى ترسيخ غايات القصة، وتحقيق أهدافها من إعلاء مبدأ الرحمة بالحيوان والرفق بـــه، وإفشاء هذه القيمة في المجتمع المسلم، وتصوير سعة رحمة الله –تعالى–بعباده مهما عظمت الخطيئة، وكبر الجرم، حتى لا يتسرب اليأس والقنوط إلى نفوس العصاة والمذنبين، وعلى هذه الشاكلة يمكن قياس سائر المواضع، والله أعلم.

الصورة الخامسة

التوكيد بالمفارقة[1] بين المقدمات والنتائج، وتباين المواقف

مما لا شك فيه أن تسلسل المقدمات وترتبها على نسق مطرد، وتتابع الأحداث والمواقف ومجيئها على نحو طبعي يقود في النهاية إلى نتائج منطقية، ونهايات متلائمة مع هذه المعطيات.

لكن قد تأتي النتائج مغايرة للمقدمات، وعلى خلاف تسلسلها وترتبها، أو قد تتباين المواقف مع اتحاد المقدمات، وهذا وذاك يعد خروجًا عن السنن المعهود، وعدولًا عن الأصل المنطقي الذي يقتضي ترتب النتائج على وفق المقدمات.

وإخراج الكلام هذا المخرج مما يحدث في النفس هزة شعورية، وزلزلة وجدانية تأخذ بلب المتلقي وقلبه نحو الغاية والهدف، وتدفع عنه الغفلة والسهو، وتستميل إصغاءه لما يلقى إليه، أو يقص عليه؛ لتوفر عنصر المفاجأة-حينئذ- في الكلام، والمفاجأة من العناصر الحية التي تعمل على إثارة التفاعل والتشارك بين المتلقي والأحداث، وتمسك بتلابيبه إليها بقوة، حتى النهاية،

---

(١) المفارقة: حقيقتها: أن يستعمل اللفظ في ضد معناه تهكمًا، وأن يكون المنطوق من اللفظ غير المفهوم منه، ومصطلح المفارقة من المصطلحات التي ابتكرها النقد الحديث، وسبق إلى مسماها، إلا أن حقيقة المصطلح وماهيته التي سبق ذكرها لم تكن غائبة عن علمائنا ولا مجهولة لديهم، فقد درسوها تحت ما يسمى: الاستعارة التهكمية، وتحت بعض صور الكناية/ ينظر المفارقة القرآنية. دراسة في بنية الدلالة.د/ محمد العبد صـ١٥ وما بعدها، الطبعة الأولى ١٩٩٤م-دار الفكر العربي، وتسمية ما نحن بصدده في هذه الصورة مفارقة مبنى على نوع من التسامح والتساهل؛ إلا أن النتائج لما كانت على عكس المقدمات ومضادة لها أشبهت المفارقة من هذا الوجه فتسنى-لذلك - إطلاق هذا المصطلح على هذه الصورة محط البحث، توسعًا في المفهوم؛ ليشمل هذا النوع من المتقابلات في مجملها.

وذلك من أنماط تقرير المعنى وتوكيده، ومن وسائل تحقيقه وتشديده.

والناظر في القصص النبوي عن بني إسرائيل يضع يديه بسهولة على هذا النوع من المفارقات؛ نظرًا لكثرته، وتنوعه، ولست –هنا– بصدد الحصر والاستقصاء، ولكني أورد بعض النماذج التي يستضاء بها في ذلك، وإلا فإن في القصص النبوي عن بني إسرائيل لهذا النوع من المفارقات مادة ثرية، صالحة لإنشاء دراسة مستقلة، تكون الدراسة فيها أعمق وأكثر جدوى وفائدة.

والذي يستطلع قصة الكفل يجد أن نتائجها جاءت على عكس مقدماتها، ونهايتها وخاتمتها كانت على غير وفق أحداثها ومواقفها؛ فقد كان الرجل مسرفًا على نفسه في المعصية، وكان لا ينزع عن شيء، ولا يتورع عن فعل قبيح:– "كان الكفل من بني إسرائيل لا ينزع عن شيء، ولا يتورع عن فعل قبيح، فأتى امرأة فعلم بها حاجة، فأعطاها ستين دينارًا، فلما أرادها على نفسها ارتعدت وبكت! فقال: ما يبكيك؟ فقالت: لأن هذا عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة! فقال أتفعلين أنت هذا من مخافة الله –تعالى –؟ فأنا أحرى بذلك، فاذهبي ولك ما أعطيتك! ووالله لا أعصيه بعدها أبدًا"(١)، لكن خاتمة القصة جرت على عكس هذه المقدمات السابقة؛ فقد كانت نهايته سعيدة، وعاقبته حميدة: "فمات من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه: إن الله تعالى قد غفر للكفل"، ودليل هذا أن الناس قد تعجبوا من مغفرة الله –تعالى– له؛ لمجيئها على خلاف المعهود من حاله، المعلوم من أمره، بحسب الظاهر، حتى أوحى الله إلى نبي زمانهم بما كان من شأنه، وذلك على النحو الذي كشف عنه سياق القصة بعد ذلك.

---

(١) الحديث سبق تخريجه.

وشبيه بهذه القصة في خاتمتها السعيدة، ومفاجآتها البهيجة التي جاءت على خلاف المتوقع من مجريات أحداثها ومقدماتها قصة الرجل الذي قتل مائة نفس[1]، فقد قبضته في النهاية ملائكة الرحمة، بعد أن اختصمت فيه مع ملائكة العذاب، أيهم يتولى أمره، ويقبض روحه؟ فملائكة العذاب يقولون: إنه لم يعمل خيرًا قط، وملائكة الرحمة يقولون: إنه جاء تائبًا مقبلًا على الله –تعالى–، والحقيقة التي لا يشوبها خفاء أن الرجل كان ذا قدم راسخة في الإجرام والقتل، والظلم والبغي، فقد تجاوز في القتل حدود الزمان والمكان، وفاق التصور والمعقول، حتى أزهق مائة نفس، وهذا وذاك في مقام الترغيب في التوبة، والحث عليها، وفي تصوير سعة رحمة الله –تعالى –وعظيم عفوه أقوى وآكد، وبه أوفق وألصق، لتكون النفوس على التوبة أحرص، وفي السعي إليها أجد وأسرع، ولها أطلب.

وراجع قصة المبتلين الثلاثة: الأبرص، والأقرع، والأعمى تجد المفارقة أوضح ما تكون وأظهر بين أحداث قصة الأبرص والأقرع ومقدماتها في أولها، وبين النهايات والخواتيم؛ إذ تقتضي المقدمات وسير الأحداث في القصة أن يعترف الاثنان بنعمة الله –تعالى– وفضله عليهما، وأن يشكرا هذه النعمة بالإنفاق مما آتاهما الله، وأن يعطيا السائل المسكين وابن السبيل الذي تقطعت به الأسباب في سفره ما يتبلغ به؛ فقد كانا فقيرين معدمين ومحتقرين، فجاء الملك إلى الأبرص في أول القصة وسأله: "أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس، فمسحه فذهب عنه قذره، وأعطى لونًا حسنًا، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل، فأعطي ناقة

(١) الحديث سبق تخريجه.

عشراء، فقال: بارك الله لك فيها"[1]، ثم فعل الملك مع الأقرع مثل ما فعل مع الأبرص، لكن المفاجأة كانت مذهلة، والنتيجة غير متوقعة، والنهاية صادمة؛ فقد جحد الاثنان نعمة الله عليهما، ومنعا رفده وفضله عن المسكين وابن السبيل، وتعللا بكثرة الحقوق والمتطلبات: "الحقوق كثيرة" فلما راجعهما الملك، وذكرهما بما كانا عليه في سابق حالهما اشتطا في الرفض، وبالغا في الإنكار، وادعيا عراقتهما في الثراء والغنى، وامتداد أرومتهما في الشرف والنسب: "إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر".

كما تجد التباين التام، والتغاير الكامل في القصة ذاتها بين كل من موقف الأبرص والأقرع من جانب، وموقف الأعمى من جانب آخر؛ فمع اتحاد المقدمات، وتشابه الأحداث في سيرها، وتساوي الثلاثة في رتبة الابتلاء ومقداره إلا أن النتائج كانت متغايرة، والمواقف كانت متضادة، فشتان بين موقف الأبرص والأقرع، وموقف الأعمى، فقد حاز الأعمى قصبة السبق، ونجح في الامتحان، واجتاز عقبة الابتلاء، فكان جوابه السائل المسكين على هذا النحو المفعم بالرضا والسكينة، والاعتراف لله بالفضل والنعمة: "قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله ما أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عز وجل"، بينما خسر الأبرص والأقرع الرهان، وخابا في الامتحان؛ فكان جوابهما السائل المسكين على هذا النحو من الرعونة، ونكران الجميل: "الحقوق كثيرة – إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر"، فجاءت النتائج في كل من الموقفين –تبعًا لذلك– متباينة، والخواتيم متقابلة، فكان أن عاد الأبرص والأقرع إلى سابق حالهما، ومبتدي أمرهما، بينما ظل الأعمى

(١) الحديث سبق تخريجه.

ممدودًا له في النعمة، مبسوطًا عليه في الوفرة: "أمسك عليك مالك؛ فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك"، وبهذا وذاك تأكدت حقيقة أن الابتلاء سنة لله، ماضية في خلقه بالخير والشر، بالسلب والعطاء، وتقررت، وأن الناس يتفاوتون فيه بتفاوت مراتبهم في الإيمان، وصدق النية، وصلابة العزيمة، وعلى هذه الشاكلة في التفصيل والتحليل يمكن قياس ما جاء في القصص النبوي عن بني إسرائيل من هذه المفارقات العجيبة بين المقدمات والنتائج، والأحداث والنهايات.

وثمت وسائل أخرى يتحقق فيها هذا العنصر بقوة، لكنها إما قليلة الوقوع في سياقات هذا النوع من القصص، كالتوكيد بضمير الشأن أو القصة، وقد سبقت دراسته في محور التوكيد بأساليب الإيضاح بعد الإبهام، وإما نادر الوقوع جدًا، كأسلوب التجريد حيث لم أقف له إلا على موضع واحد جاء في قوله ﷺ في قصة الرجل الذي قتل مائة نفس: "فدل على عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ قال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟" فقد جرد من نفسه في قوله: "إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟" شخصًا آخر مثله قتل مائة نفس؛ للمبالغة في وصف نفسه بالقتل؛ لدلالة الانتزاع على أنه بلغ في القتل حدًا لا نظير له، إلى حيث يفيض عنه قاتل آخر مثله في الصفة، وهذا من فرط استعظامه لجرمه، وغاية إكباره لذنبه، ولعله أراد بذلك – أيضًا – أن يؤنس نفس العالم نحوه، حتى لا يداخله الخوف والفزع من إجرامه، وقرينة هذا من إيثاره الحديث عن نفسه بطريق الغيبة في مقام الشهود والحضور، والله المستعان والموفق للصواب.

الخاتمة

وإلى هنا، وبعد هذا التطواف في رحاب القصص النبوي عن بني إسرائيل بحثًا ودراسة، ومعايشة وتأملًا في وسائل التوكيد فيه يحط البحث رحاله – بعد أن وفي ما أجمله في المقدمة والتمهيد – إلى خاتمة البحث؛ ليرصد فيها أهم النتائج التي توصل إليها، والتوصيات التي يوصي بها، وذلك على النحو الآتى:

أولًا: كثرة وسائل التوكيد في القصص النبوي عن بني إسرائيل كثرة لافتة، وتنوع صورها وأنماطها تنوعًا ظاهرًا، وذلك على النحو الذي وسعته محاور البحث وصوره تفصيلًا وتحليلًا، وهذا في البيان النبوي لا يرد عرضًا، ولا يجئ اتفاقًا، بل يقصد إليه قصدًا لتحقيق غايات وأهداف، ومعان وأغراض، وكان له من الدواعي والأسباب ما حاول البحث إضاءته، والكشف عن بعض جوانبه.

ثانيًا: التوافق التام والانسجام الكامل بين الوسيلة التوكيدية المستخدمة، والمقام الذي جاءت فيه، والحال التي صورتها وسيقت لها، وذلك على نحو يعكس مدى العظمة والتميز، وينادي على تفرد البيان النبوي وبلوغه مرتبة الكمال البشري، وتبوئه من البلاغة الإنسانية ذروة سنامها وقمتها.

ثالثًا: يعد التكرار – لفظيًا كان أم معنويًا – خصيصة بلاغية بارزة، وسمة مشتركة تجمع بين جل الوسائل التوكيدية في القصص النبوي عن بني إسرائيل، وتتحقق فيه.

رابعًا: أكثر أسباب التوكيد ومناشئه دورانًا في القصص النبوي عن بني إسرائيل يتمثل فيما يشتمل عليه من أحداث غريبة، ووقائع عجيبة، تثير الدهشة، وتدعو إلى الاستغراب.

خامسًا: التوكيد بصيغ الزمان الماضي هو أكثر الوسائل استعمالا في القصص النبوي عن بني إسرائيل؛ لانسجامه في سمته وطبيعة دلالته مع

طبيعة هذا النوع من القصص الذي يقص أحداثا واقعية، حصلت في الزمان الغابر، وهذا يضيف إلى القصص النبوي تأثيرا على تأثيره، وجذبا إلى جذبه.

سادساً: تنوع مواقع وسائل التوكيد في القصص النبوي عن بني إسرائيل؛ فتارة يقع في أول القصص ومستهله، وذلك خاصة- إذا تعلق به من الأحداث والوقائع الموغلة في الغرابة إلى حد ما؛ ليكون توكيد الكلام وسيلة لتأنيس النفوس به، واطمئنانها إليه، وإزالة الشك عنه، ومرة يقع التوكيد في ثنايا القصص ووسطه، وأحيانا يقع في خاتمته ومنتهاه، وذلك حسبما يقتضيه المقام، وتدعو إليه الحال.

سابعاً: يتخذ البيان النبوي من عناصر التوكيد وسيلة لتماسك البناء القصصي، وإحكام حبكته الفنية؛ لتظل النفوس مشدودة إليه حتى النهاية، وبذلك يصل القصص النبوي إلى تحقيق أهدافه ومقاصده التي يرمي إليها، وتقرير مضامينه وتمكين معانيه وأغراضه في النفوس والقلوب

ثامناً: يعد عنصرا التشويق والمفارقة من وسائل التقرير والتوكيد، وعوامل الجذب والإثارة التي يتكئ عليها القصص النبوي كثيرا، وهما يتطلبان توفر الباحثين على العناية بهما، والاهتمام بدراستها؛ للكشف عن وسائلهما، وإماطة اللثام عن صورهما وطرائقهما، وتحليل أسرارها ونكاتهما، وتفصيل القول في غاياتهما وأهدافها

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطانا، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

دكتور
السيد أحمد أحمد موسى
أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية
الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد

فهرس المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تحقيق: د/مصطفى ديب البغا، الطبعة الثالثة ١٩٩٦م، دار ابن كثير، دمشق بيروت.
- أحاديث رؤى النبي ﷺ دراسة بلاغية تحليلية. د/مصطفى نجاح عبدالعزيز عيسى، بحث منشور بحولية كلية اللغة العربية بالمنصورة، العدد السابع والثلاثون ٢٠١٨ م.
- الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم، تحقيق:الشيخ /أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ.
- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني – ريتر، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.
- أصوات اللغة العربية. د/محمد حسن حسن جبل، الطبعة الثالثة ١٩٩٣م.
- الأطول للعصام، تحقيق:د/عبدالحميد هنداوي، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، دار الكتب العلمية بيروت.
- إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، للقاضي عياض، تحقيق: د/يحيى إسماعيل، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، دار الوفاء مصر.
- الإيضاح للخطيب القزويني، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.
- بحوث بلاغية في علم البديع. د/صبّاح عبيد دراز، د/عبدالرازق ريّان، مكتبة الأزهر للطباعة، دمنهور، مصر ١٩٩٧م.
- البداية والنهاية لابن كثير، تحقيق:عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م، دار هجر للطباعة والنشر.
- بيان التشبيه. دراسة تاريخية فنية. د/عبدالحميد العيسوى، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

- تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي، دار الهداية، بدون تاريخ.
- تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، تحقيق:أحمد عبدالغفور عطا، الطبعة الرابعة ١٩٨٧م، دار العلم للملايين، بيروت.
- التبيان في البيان للطيبي، تحقيق:د/عبد الستار حسين زموط، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، دار الجيل، بيروت.
- التعريفات للشريف الجرجاني، تحقيق:إبراهيم الإبياري، الطبعة الثالثة ١٩٩٦م،دار الكتاب العربي، بيروت.
- التعليل في القرآن الكريم، دراسة وتفسيرًا. د/ محمد سالم، الطبعة الأولى، منشورات أولاد عثمان.
- تفسير أبي السعود المسمى ب إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، الطبعة الرابعة ١٩٩٤م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- تفسير البيضاوي المسمى:أنوار التنزيل وأسرار التأويل، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، مؤسسة التاريخ، بيروت.
- تهذيب اللغة للأزهري، تحقيق: محمد عوض...، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير الجزري، تحقيق:عبدالقادر الأرناؤوط، الطبعة الأولى ١٩٧١م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه للإمام البخاري، ترقيم وترتيب:محمد فؤاد عبدالباقي، الطبعة الأولى ٢٠١٨م، دار ابن حزم بالقاهرة.

- جمهرة اللغة لابن دريد، تحقيق:رمزي منير بعلبكي، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، دار العلم للملايين، بيروت.
- الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي، تحقيق:د/فخر الدين قباوة، أ:محمد نديم فاضل، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المسماة:عناية القاضي، وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، دار صادر بيروت، بدون تاريخ.
- حاشية الشيخ زاده على البيضاوي، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، بدون تاريخ.
- الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، د/عز الدين علي السيد، الطبعة الأولى ١٩٨٤م،دار اقرأ، بيروت.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني، مكتبة السعادة، مصر ١٩٧٤م.
- خصائص التراكيب. دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني. د/محمد محمد أبو موسى، الطبعة الرابعة ١٩٩٦م، مكتبة وهبة القاهرة.
- الخصائص لابن جني، تحقيق:محمد علي النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٦م.
- دراسات منهجية في علم البديع، د/الشحات أبو ستيت، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، دار خفاجي للطباعة والنشر، القليوبية، مصر.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق:محمود محمد شاكر، الطبعة الثالثة ١٩٩٢م،مطبعة المدني- القاهرة -جدة.
- دلالات التراكيب. د/محمد محمد أبو موسى، الطبعة الثانية ١٩٨٧م، مكتبة وهبة - القاهرة.
- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان البكري الصديقي الشافعي، الطبعة الرابعة ٢٠٠٤م،دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها للشيخ الألباني، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.
- سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.
- سنن أبي داود، محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، بدون تاريخ.
- سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الثانية ١٩٧٥م، مصطفى البابي الحلبي، مصر.
- شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام المصري، تحقيق: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، سوريا، بدون تاريخ.
- شرح التسهيل لابن مالك، تحقيق: د/ عبد الرحمن، د/ محمد بدوي المختون، الطبعة الأولى ١٩٩٠م، دار هجر.
- شرح رياض الصالحين لمحمد بن صالح العثيمين، دار الوطن، الرياض ١٤٢٦هجري.
- شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان للسيوطي، وبهامشه حلية اللب المصون على الجوهر المكنون للشيخ أحمد الدمنهوري، دار الفكر، بدون تاريخ.

- شرح المفصل لابن يعيش، مكتبة المتنبي، القاهرة، بدون تاريخ.
- شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- شعب الإيمان للبيهقي، تحقيق: د/ عبد العلي عبد الحميد حامد، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م، مكتبة الرشد، الرياض.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثانية ١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- صحيح الإمام مسلم، ترقيم وترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى ٢٠١٨م، دار ابن حزم، القاهرة.
- صحيح القصص النبوي. د/ عمر سليمان عبد الله الأشقر، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، دار النفائس، عمان، الأردن.
- ضياء السالك على أوضح المسالك لمحمد عبد العزيز النجار، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، رقمه وبوبه: محمد فؤاد عبد الباقي، أشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت ١٣٧٩ ه.
- فروق التقديم والتأخير عند عبد القاهر الجرجاني. د/ أحمد السيد طلحة، طبعة ١٩٩٦م.
- الفصل والوصل في القرآن الكريم. د/ منير سلطان، الطبعة الثانية، منشأة المعارف بالأسكندرية، بدون تاريخ.

- في البلاغة القرآنية. أسرار الفصل والوصل. د/صبّاح عبيد دراز، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، مصر.
- فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح للشربيني، مطبعة والدة عباس الأول، بدون تاريخ.
- الكليات معجم في الفروق والمصطلحات اللغوية للكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون تاريخ.
- اللباب في علل البناء والإعراب للعكبري، تحقيق: محمد غازي طليمات، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، دار الفكر، دمشق.
- لسان العرب لجمال الدين بن منظور، دار المعارف، مصر، بدون تاريخ.
- كشف اصطلاحات الفنون للتهانوي تحقيق/ أحمد حسن الشيخ، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدمي، القاهرة ١٩٩٤م.
- المحكم والمحيط الأعظم في اللغة لابن سيدة، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- المستدرك على الصحيحين للحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى ١٩٩٠م دار الكتب العلمية، بيروت.
- مسند أبي يعلى الموصلي، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، دار المأمون للتراث، دمشق.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، الطبعة الأولى ٢٠٠١م مؤسسة الرسالة، بيروت.

- مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله وآخرون، الطبعة الأولى ٢٠٠١ م مكتبة العلوم والحكمة، المدينة المنورة.
- المصباح المنير للفيومي، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٩٠م.
- مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق: كامل يوسف الحوت، الطبعة الأولى ١٤٠٩ه، مكتبة الرشد، الرياض.
- المطول لسعد الدين التفتازاتي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- معاني القرآن وإعرابه للزجاج، عبد الجليل عبده شلبي، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، عالم الكتب، بيروت.
- معاني النحو للدكتور: فاضل صالح السامرائي، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، الأردن.
- المعجم الكبير للطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية ١٩٩٤م، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام المصري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ١٩٨٧م.
- المفارقة القرآنية. دراسة في بنية الدلالة د. محمد العبد، الطبعة الأولى ١٩٩٤م دار الفكر العربي.
- مفتاح العلوم للسكاكي، المكتبة العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق/ صفوان عدنان الداوودي، الطبعة الثالثة ٢٠٠٢م، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت.

- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق/ صفوان عدنان الداوودي، الطبعة الأولى ١٤١٢ه، دار القلم، الدار الشامية، بيروت، دمشق.
- المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري تحقيق/ د. علي بو ملحم، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، مكتبة الهلال، بيروت.
- المفهم شرح صحيح مسلم للحافظ الأنصاري القرطبي، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، دار الكتاب المصري، القاهرة.
- المقتضب لمحمد بن يزيد النحوي الملقب بالمبرد، تحقيق/ محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت ١٩٩٣م.
- مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق/ عبد السلام محمد هارون، دار الفكر العربي ١٩٧٩م.
- المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي، الطبعة الثانية ١٣٩٢هجري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الموطأ للإمام مالك بن أنس، خرج أحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٥م.
- نظرات في أسلوب الإنشاء والقصر د/ محمد إبراهيم عبد العزيز شادي، طبعة ١٩٩١م.
- نفائس الأصول في شرح المحصول لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام محيي الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري، تحقيق: محمد صلاح عويضة، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية، بيروت.